مِيرنامه

الشاعر والأمير

«رواية»



جان دوست



نبذة عن المؤلف المترجم :

جان دوست:

كاتب ومترجم بالعربية والكردية، مواليد 1965 في عين العرب/ سوريا، مقيم منذ عام 2000 في ألمانيا.

رواياته بالكردية:

مدينة الضباب، دياربكر 2003.

ثلاث خطوات إلى حبل المشنقة، اسطنبول 2007.

ميرنامه - الشاعر والأمير، اسطنبول 2008.

جان دوست

ميرنامه
الشاعر والأمير

مراجعة وتحرير: كاميران حوج

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م
حقوق الطبع محفوظة

ميرنامه.. الشاعر والأمير

جان دوست

PK6908.9.D67 M5712 2011
Dost, Jan
ميرنامه: (الشاعر والأمير) / تأليف جان دوست؛ ترجمة جان دوست؛
مراجعة وتحرير كاميران حوج.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
ص280 ؛ 14×24 سم.
ترجمة كتاب : Mîrname.
تدمك: 978-9948-01-672-4
1 - Dost, Jan 2 - الأكراد-تراجم.
3 - القصص العربية-العصر الحديث-المترجمات من الكردية.
4 - القصص الكردية-العصر الحديث-المترجمات إلى العربية.
أ- Dost, Jan ب-حوج، كاميران.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الكردي:
Jan Dost
Mirname



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

المحتويات

تقديم

من هو العالم الشاعر؟ وما دوره في مجتمعه وزمنه؟ يسعى كاتب الرواية للجواب على هذين السؤالين ارتكازا على سيرة أمير الشعراء الأكراد أحمد الخاني (1651–1707)، بلغة متينة وأسلوب شاعري يصف به مكان الرواية زمانها، الحياة الاجتماعية للأكراد، قصص العشق والغدر، حب الحياة ومقتها، ملاحم البطولة والخيبة، ومجلس الشاعر ومسجده، الذي يصير منارة للعلم في زمنه.

تبدأ الرواية بتشييع جثمان الشاعر العلامة، المتسامح الشجاع، والمتصوف العاشق.

أثناء دفن الشاعر في جامعه يهطل المطر، ولكنه ليس أي المطر، إنه حبر، الحبر المعطر الذي تعلم الشاعر أن يصنعه في فتوته على يد حبيبته التي زوجها أبوها من دباغ غني، فعاشت حياتها بين عطن الجلود التي تنبعث من زوجها، بينما كانت تحلم في صباها أن تعيش مع الشاعر الذي يكتب بحبر تفوح منه رائحة العنبر. أما الشاعر فيكتم حبه في قلبه إلى نهاية العمر ويعرض عن الزواج بأخرى. عندما حضرت الحبيبة مجلس المناحة على الشاعر جلست دون أن تذرف الدموع، لكن عبرات قلبها لم تتوقف منذ أن زوجها أبوها للمرة الأولى وجعلها سلعة يزوجها من جديد كلما مات أحد الأزواج.

يمتعض الشاعر من الأمير الجديد ويمتنع عن التردد على مجلسه أو ذكر اسمه في الخطبة، فيهدده رجال السلطة ويحلفون عليه بطلب

الغفران من الأمير، بيد أن الشاعر يأبى الخنوع ولا يكف عن نشر العلم والمعرفة، فيكلف رجال الأمير الحاقد مجهولاً دنيئاً، يجيد صناعة السموم ويمتهن القتل لأجل المال، بالغدر بالشاعر الذي أصبح شوكة في عين الأمير الضعيف.. فهل يُقتل هذا الشاعر ولماذا؟

لا يتدخل الراوي في السرد، بل يدع هذه المهمة لشخصيات روايته، فتحكي كل منها ذكرياتها الذاتية عن الشاعر وتربطها بالأحداث الكبرى أو شؤون الحياة اليومية، ولهذا تأتي الرواية بأطروحات عديدة على لسان المغني وطالب العلم، على لسان صانع الحدوات وتاجر الجلود، العاشقة المحرومة وأبيها الجشع، المجرم والسكير، الوصولي والانتهازي وكذلك رجل الدين المتنور والشيخ القاتم، الذي يدعو الشعب إلى الجهاد في سبيل الإمبراطورية الغاشمة ويرسل الفقراء إلى الحروب والتقتيل، بينما يستمتع هو بمتع الحياة الدنيا. لذلك نجد العديد من الآراء والتحليلات عن الزمن الذي يعيش فيه الشاعر، حيث أن لكل شخصية رؤيتها الخاصة للحياة، للجمال، للحب، للسلطة والمال.

تمتد الرواية على مدى زمني طويل وتتطرق بذلك إلى الكثير من الثيمات التي كانت تشغل العالم آنذاك والتي لاتزال حتى يومنا الراهن.

بهذا يستمتع القارئ بنسيج مزركش عن ذلك الزمن الصعب والجميل، كما يتألم لمعاناة شاعر أراد أن ينثر العلم بين أبناء جلدته،

فاصطدم بسلطة لا تعي من الحياة شيئاً سوى الأنانية والسطوة ورجال دين لا هم لهم سوى استغلال الجمهور بالخرافات وتقويل العالِم ما لم يقله. الرواية مكتوبة بأسلوب شائق، مبني على التاريخ، دونَ أن تدخلنا في متاهة الوثائق، وتعطي صورة جميلة ورقيقة عن دور الأدب والعلم حيث يصطدم الجهل بالظلام، العنف بالرقة، الجمال بالقبح والتسامح بالقتل.

كاميران حوج

إنه الحبر
يُمزج بالدم والدموع
وبالسم أيضاً
قد يحيي
وقد يميت

التشييع

كان صباحاً ماطراً

نفض الملثم بيده اليمنى ما علق على ثيابه ولثامه من التراب الممزوج بالمطر وهتف من قاع القبر: «يكفي هذا القدر».

وحينما مدوا أيديهم إليه وأخرجوه، ملأ رئتيه بالهواء الندي وهو يقول بصوت أنثوي: «أوووووه. الحمد لله، لم نصادف صخوراً» وألقى نظرة مفعمة بالرضا على قاع القبر.

صمت يليق برهبة الموت كان يلف ضوضاء خيالات المجتمعين حول القبر في ذلك الصباح الماطر، تماماً كما يخفي اللثام وجه حفار القبر، بيد أن الحزن البادي على كل الوجوه لم يكن ملثماً، كان بعض الرجال يخفون وجوههم في أكفهم ويمسحون دموعهم كي لا يراها أحد، كانوا يخفون دموعهم بعضهم عن بعض، أما الآخرون فكانوا يسندون ظهورهم إلى جذوع أشجار الدلب وينظرون بصمت من ذاك العلو إلى المرتفعات الصخرية الجرداء التي كانت تزيد الصمت عمقاً. وحده الملثم كان يستطيع بعينيه الجميلتين الجافتين قراءة الحزن على كل وجه من ذلك الجمع. مر على الرجال فرداً فرداً قائلاً: «ليت لنا خاتمته! لقد رحل عن دار الفناء». وحينما ظهر النعش الذي يحمل جثمان الشيخ أحمد الخاني، حث الملثم الخطى صوبه، كان

أربعة رجال يمشون بتؤدة وهم يمسكون بأطراف النعش، وصل الملثم إليهم وانحنى يحمل النعش معهم، كان الكفن الأبيض الملفوف على الجثمان جافاً وكأن لا مطر يهطل، لكن حملة النعش ما كانوا على علم بذلك، نبه ملا إسماعيل، الذي يحمل النعش من الأمام على اليمين، صلاح الدين الوراق على اليسار: «ألا تلاحظ أنت أيضاً؟»

أزاح صلاح الدين الوراق قطرات المطر الممزوجة بالدمع عن وجهه النحيل الحنون وسأل:

«ألاحظ ماذا؟»

خفض ملا إسماعيل من نبرة صوته وقال: «لم أر في حياتي جثماناً في خفة هذا الجثمان!»

همس الملثم، بعد أن تلا آية (كل من عليها فان)، في أذن ملا إسماعيل بصوته الأغنّ قائلاً:

«للجثامين الثقيلة علاقة بقذارة روح المرء، أما هذا الشيخ فقد كان ذاتاً طاهرة، وخفة جثمانه تعود إلى روحه النقية يا ملا، إنه نور محض، أللنور ثقل يا ملا إسماعيل؟»

التفت ملا إسماعيل، الذي تبلل جانبه الأيمن من عمامته حتى نعليه، إلى الوراء. فغر فاه دهشة ورمى لثام الرجل الرطب بسؤال جاف: «أين رأيتك من قبل؟»

* * *

الصمتُ المغسولُ بالمطر، صمت الرجال الحزينين المتحلقين حول قبر الخاني المحفور للتو، وصمتُ الرجال الأربعة الذين كانوا يمشون تحت المطر حاملين النعش، تمزق مثل قماشٍ حريرٍ في البيت القديم لشقيق الخاني، ملا قاسم، ووصل عويل النائحات حتى ثلوج جبل آكري[1].

كانت النساء المتشحات بالسواد، يخرجن مناديلهن الملونة من أكمامهن ويجففن المطر المتدفق من مآقيهن. وكانت دموع بعض النسوة ممن نسين مسح الكحل، تبدو كأنها قطرات حبر تنحدر فوق وجناتهن على تلك الوجوه الذابلة.

كانت دموع شقيقة الخاني الكبيرة، پَرِي، تنهمر مثنى على خديها وهي تولول:

ويحي ثم ويحي
والويل لي
اليوم صار شقيقي أحمد
صاحبُ اليراع الذهب
والقراطيس الثلج
ضيفَ القبر البارد
ويحي ثم ويحي
يا جيران

(1) يسمى جبل أرارات. المترجم

يا أهل

يا قوم

مصباح بايزيد مطفأ اليوم

الحجرات والقصور والقباب والمنارات غرقت في الظلام

يا ويلتاه

المطر يهطل من الغيوم

والعيون تذرف العبرات

شقيقي أحمد

كاتب ديوان الأمراء

صاحب مم وزين

السماء تبكي اليوم عليه

احترق قلب الجبال

من حزنها ذابت ثلوج جبل آكري

وا ويلاه

الويل لي أنا الحزينة

البائسة

ها إنني سأرمي العصابة الكسروانية التي تلف جبيني

وأقص خصلات شعري الأبيض حزناً على شقيقي

سأجلس تحت شجرة الصفصاف وأهز الأغصان

وأقول ما دامت الروح تسري في بدني:

يا ويلتاه

يا خلان

يا جيران

يا قوم

ويحي

ويحي

ويييييي

بكلمتها الأخيرة المديدة (وِي)، مرَّ سكين البكاء على حنجرتها وذبح خروف آهاتها.

بين جمع النساء اللواتي يرثين أحمد الخاني ويبكينه، كانت شَنْكى خاتون الجلالية، كانت تبدو وكأنها تخجل من النحيب، وكان بكاؤها ينبثق من شغاف القلب فتهتز مثل لهيب شمعة دون أن تذرف العبرات، وكانت تضع رأس ابنها أحمد ذي الخمسة أعوام على ركبتها وتهز برأسها ذات الشمال وذات اليمين، بينما تضغط بإصبعين على أنفها، كما لو أن عبراتها تسلك قناة الدمع منحدرة من عينيها إلى أنفها وتختنق فيها. كانت بعض النساء اللواتي يعرفنها، يرمقنها ويمتعضن كأنهن يقلن لها: (ويحك، ألا تذرفين ولو دمعتين

على المرحوم! أقلبك حجر!) ما كانت تلك النسوة ليسمعن بكاء قلبها.

* * *

لكن الكفن لم يتبلل

لما ألقى ملا إسماعيل سؤاله الجاف، انسل الملثم من تحت النعش وأصبح يسير هنا وهناك كمن يبحث عن أحد، ثم توجه ثانية إلى القبر ووقف على حافته.

قال أحد الرجلين اللذين يحملان النعش من الخلف:

«أسرعوا لكي لا يتبلل جثمان الشيخ».

مد ميرزا صبري، الذي كان يمسك أحد طرفي النعش في الخلف، يده اليمنى وتحسس كفن الخاني، وإذ أدرك أن الكفن لم يتبلل، أصابته رعشة مجهولة وهمس في أذن ملا فريد الذي يحمل النعش بجانبه:

«منذ مدة ونحن نمشي تحت المطر، لكن كفن الشيخ مازال جافاً!»

تنهد ملا فريد تنهيدة طويلة ملفوفة بكفن الندم الأسود ثم قال:

«لقد كان الشيخ ناراً متقدة فكيف لكفنه أن يتبلل!!»

* * *

في اللحظة التي وقف فيها الملثم ثانية على حافة القبر الذي حفره، همس له الشيخ سيف الدين ذو الجبة الزرقاء: «سلمت يداك. لقد أحسنت في حفر قبره».

ألقى الملثم نظرة افتخار عظيمة إلى قاع القبر، وقال بصوت ناعم فيه غنة: «أردت أن أحفر أعمق، لكن هذا ما كان في الإمكان يا مولانا».

ربت الشيخ سيف الدين على كتفه قائلاً: «لو نقشت شاهدة قبره أيضاً لأجدت. خطك فائق الحسن».

جال الملثم بعينيه باحثاً عن حجارةٍ، وحفر بنظراته المغلفة بضباب كثيف على صخرة خياله نقوشاً لا مرئية.

كان المغني دوستو الأرموي وصوفي حيدر القَرْصي واقفين يحدقان بأسى في تراب قاع القبر الذي كان المطر يبلله رويداً رويداً. لم يسمع الرجلان حديث الشيخ سيف الدين والملثم، لكنهما أيضاً أبديا رضاهما عن القبر المحفور بإتقان.

كان بُهاري الشاعر واقفاً بعيداً عن الحشد، مستنداً بظهره إلى صخرة شاهقة ممسكاً بين يديه بكتاب، وإذ وقع بصره على ملا صالح الجَزَري، أطبق دفتي الكتاب، لكن ملا صالح أدركه قائلاً: «هيه يا بُهاري أفندي! ألا يصيب المطر كتابك! أجزم أن الحبر يسيل الآن بين صفحاته».

ضحك الشاعر الذي اتخذ من اسم بُهاري لقباً يُعرف به، وقال:

«لا، لا! فكتابي هذا لم يُسطَّر بالحبر».

ثم أردف قائلاً، وكأنه ندم على ضحكه مدركاً أن الضحك لا يليق بمقام الموت: «والله إني لحزين يا ملا صالح. حسرتي عليه. ماذا جرى له يا رجل؟ لقد رأيته قبل أيام، وأيم الله كان قوياً كجبل!»

غادره ملا صالح دون أن يجيبه، أشاح بوجهه عنه وأسرع إلى النعش يحمله مع الآخرين.

ظهر فارسٌ من بعيد، كان صوت سنابك فرسه في الطين يعكر صفو هدوء ذلك الصباح. أمعن واحد من الحشد النظرَ فيه، أسبل حاجبيه على عينيه ووضع إحدى يديه على جبينه وهو يقول:

«إنه الحاج زهدي والله! هاهو قادم مع غلامه».

وصل الفارس، الحاج زهدي التاجر الجلالي، وترجل عن فرسه بمساعدة الغلام الذي كان يتقدمه. توجه الحاج، الذي لم تستطع عباءة الفرو إخفاء كرشه الكبيرة، مباشرة إلى الحشد المتحلق حول القبر وقال: «فلتعذروني أيها القوم، وصلت تواً برفقة القافلة القادمة من أورمية. لقد أتيت بعباءات جديدة من هناك. حال وصولي لم أجد من ينزل الأمتعة في البلدة. لم أدرك السبب لذلك توجهت إلى هنا. لقد سمعت عويلاً خارجاً من بيت المرحوم ملا قاسم. عسى أن يكون خيراً؟»

كان الحاج زهدي، بسترته البيضاء التي نقطها المطر بحروفه المائية، يتحدث دون توقف. وكانت الكلمات تخرج كالزخِّ من فمه

دون أن يعطي الفرصة لأحد بالرد عليه، لكن تناهى إلى سمعه صوت رجل ضرير من بين الحشد. ضرب الضرير بعصاه الأرض الرطبة عدة مرات وقال: «الخاني، الخاني!! لقد رحل الخاني!»

عدّل الحاج زهدي من هيئة سترته تحت العباءة، ووضع يده على بطنه وقال: «أوااااه! وهل صليتم عليه صلاة الجنازة؟»

مد الضرير في كلماته كمن يتحدث بسخرية وقال: «بلى لقد صليناااااا. لم نكن نعرف أنك هنااااااا. لقد حرمك الله من بركة الصلاة يا حااااج. ولكنك محظوظ إذ ستحضر دعاء التلقين أيها التاجر بيك».

أراد الضرير، بجوابه ذاك، أن يستهزئ بالحاج زهدي التاجر، حتى أوشك بعض المشيعين على الضحك، لكنهم لمحوا النعش الذي يحمله نفر من الرجال المعروفين قد وصل إلى حافة القبر فأفسح المتحلقون حوله ممراً لإنزال جثمان الخاني، المغطى بكفن أبيض جاف، إلى اللحد.

وإذ رأى الناس الكفن جافاً أصابتهم الدهشة، وهطلت أمطار الأسئلة لتتدفق السيول في وديان خيال المشيعين جميعاً. قرأ الملثم، جميع الأسئلة التي كانت تسيل على الوجوه، نزل بقفزة واحدة إلى قرارة القبر وقال: «لا تعجبوا يا قوم! هذا هو دأب أولياء الله».

نزل ميرزا صبري، الذي تبلل جانبه الأيسر، أيضاً إلى القبر وصاح الاثنان في الواقفين على الحافة: «هيا أيها الرجال. هيا. ناولونا جثمان

المرحوم. فمن سنة نبينا الإسراع في دفن الميت».

انحنى بعض الرجال الواقفين على الحافة وأدلوا الجثمان إلى الأسفل. تناول ميرزا صبري والملثم، الجثمانَ، ووارياه في اللحد المحفور كأخدود بمسافة شبرين قِبَل القبلة. ثم وضعا عليه صفاً من الحجارة، وعند ذاك فقط، غاب الخاني عن الأنظار، بكفنه الجاف وآماله المتقدة.

أراد ميرزا صبري، الذي ضاق صدره في قاع القبر، أن يسبق الملثم في الخروج، فقال لملا فريد الواقف على الحافة: «هات يدك يا سيدي. لقد أصبح الشيخ في اللحد».

لكن ملا فريد أشاح بوجهه عنه، ومسح دموعه الممتزجة بالمطر مبتعداً عن القبر، أمسك رجلان بيدي ميرزا صبري والملثم وأخرجاهما، بانت علامات البهجة على وجهيهما وكأنهما عائدان من سفر طويل، مسح الملثم كفيه كمن يزيل عنهما غباراً وقال: «الحمد لله. لقد انتهينا من الدفن».

ثم ذهب مسرعاً صوب رجلين واقفين بعيداً تحت شجرة دلب. بدا من هيئة الرجلين اللذين استقبلاه مبتسمين، أنهما غريبان عن تلك البقاع، فقد كان زيهما مختلفاً عن زي حشد المشيعين حول القبر، وكان أحدهما يرتدي عباءة مبطنة بفرو السناجب ويحدق بوجهه الكوسج في السماء الغائمة، أما الآخر فقد كان يرتدي سترة من المخمل الأسود معتمراً قبعة مخروطية طويلة.

شيع ميرزا صبري الملثمَ بنظرات الرضا ثم توجه إلى بنكين، حاجب الأمير وسأله: «ألن يأتي الأمير؟»

«لا لن يأتي. لقد كان مشغولاً فانتدبني مكانه».

ثم بدأت المجارف تحثوا التراب الرطب على جثمان الخاني المغطى بكفن أبيض جاف.

* * *

كانت الكلمات غير المترابطة لحشد المشيعين المتحلق حول القبر تمتزج بقرقعة المجارف، وبدا الكل يتكلم إلى نفسه. فلا أحد يصغي إلى أحد، ولا يدرك المشيعون ما يقولون! كان كل منهم، يرتجلُ، إذ يلتقي بآخر، سؤالاً ما ويمضي. في ذلك الصمت الرطب، كان بنكين الحاجب الذي وصل للتو، يبحث بعينيه عن ملا إسماعيل البايزيدي سائلاً كل من يصادفه عنه. حتى قال له رجل بصوت يكاد أن يكون عالياً: «ما الذي جرى لنا يا قوم! لقد تشتتت أذهاننا جميعاً اليوم، وندور كالسكارى حول أنفسنا! ها هو ملا إسماعيل وراءك يا بنكين أفندي وأنت تبحث عنه!»

حانت من بنكين التفاتة إلى الوراء، ألقى التحية على ملا إسماعيل ثم سارع إلى دس بضعة أوراق في جيبه هامساً في أذنه بعض الكلمات. أراد ميرزا صبري والملثم الذي كان قد عاد لتوه من عند

الرجلين الغريبين، أن يتنصتا إلى حديثهما لكنهما سمعا فجأة صوتاً من بين الحشد يقول: «هلموا أيها القوم. سنقرأ دعاء التلقين».

رفع الشيخ سيف الدين جبته الزرقاء حتى خصره الثخين وجلس عند شاهدة قبر الخاني متهيئاً ليقرأ التلقين.

كان المطر قد خفض من حديثه المائي أيضاً، وكأنه يريد الإصغاء لما سيلقنه رجل حي لرجل ميت. كانت القطرات التي تسقط تكتحل بالسواد رويداً رويداً، لكنها لم تثر انتباه أحد حتى قطع صوتُ تيمور السكير، المعروف بتيمور الفاسق، همهمةَ الشيخ سيف الدين عندما قال بحدة وخوف: «يا للهول! ما هذا!! حبرٌ يهطل من السماء».

تيمور الفاسق

كان الخاني يكتب رسالة

حينما صرخت وقلت: (حبر يهطل من السماء!) لم أكن ثملاً، كنت ممسكاً بلجام خيالي وأميز رائحة الحبر أكثر من رائحة العرق في إبط عشيقتي الأرمنية.

جميع من في الحشد الذي كان متحلقاً حول قبر الخاني ويستمع لقراءة تلقين الشيخ سيف الدين صاحب الجبة الزرقاء والقلب الأسود، نظروا إليَّ ثم أطلقوا غربان نظراتهم إلى الأعالي وهم يفتحون أكفهم كحمامات لتلقي قطرات المطر التي كانت في لون دموع ممزوجة بكحل عيون نسوة في مجلس عزاء.

كان المطر قد بدأ يهطل على مهل وبأناة، برقة كان المطر يهطل، لكأن السماء تقرأ الفاتحة على روح الشيخ، كان المطر يتساقط حزيناً وهادئاً.

لم يكن السُّكْر قد خطف اللجام من يدي بعد، حين رأيت أن المطر أصبح بلون الحبر، الحبر الذي كنت أبصره في قارورة لدى الخاني يلمع في كثير من الليالي في ضوء السراج.

كان الشيخ يحب الحبر كثيراً، وما أكثر المرات التي كان يدني فيها قارورة الحبر من أنفي ويقول: «بالله عليك! أليست رائحة هذا الحبر

بأزكى من رائحة الخمر التي تشربها؟»

أحياناً، وعندما كنت أذهب لأسامره، كنت أراه يضع القلم في الدواة، وبكل القوة التي في رئتيه يشم الحبر ويقول: «هذا ليس حبراً يا تيمور، إنه عبرات قلب تائه محترق».

في إحدى ليالي مرضه المجهول، دخلت حجرته. كنت قادماً لتوي من الدير الواقع شمال بايزيد وكان السكر قد بلغ بي حداً أشعر فيه أن رأسي ثقيلة كأنني أحمل جبل قاف. وكانت شمعة بيضاء ثخينة تضيء جنبات الحجرة والخاني منكب على أوراقه البيضاء يسطرها بحبر يلمع في ضوء الشمعة. حينما أبصرني، ارتسمت البهجة في محياه، وضع قلمه القصبَ ذا الرأس الأسود بحنان إلى جانبه وقال: «أهلاً بك يا تيمور. تفضل اجلس». جلست بجانبه وسكبت خمرة نظراتي على ورقاته ناصعة البياض كروحه. كان جلياً أنه يكتب شيئاً مهماً لكنني لم أعرف كنهه، فسألت: «أتكتب غزلية جديدة يا مولاي؟» زفر زفرة عميقة جعلت لهب الشمعة المشتعلة يتراقص دون أن تنطفئ. اهتز ظله المرسوم على الجدار قليلاً وقال بأسى: «أنا أكتب رسالة للأمير يا تيمور». لم أره حزيناً هكذا من قبل.

صحيح أن بهجة ارتسمت على وجهه أول ما دخلت، بهجة ظننت أنها بسبب الشمعة التي لم أر مثلها تضيء في حجرتها قبلاً، إذ كان يكتب دائماً على ضوء السراج ويقول: «الشموع للأمراء والبكلرية»، لكن سرعان ما غزت موجات الحزن وجهه المصفر حتى

رأيت على ضوء تلك الشمعة الجديدة عينيه المبللتين أيضاً.

طوى ورقته التي كان قد سطرها حتى منتصفها، ثم توجه إلي وقال: «ما الموت في قاموسكم أنتم معشر عاقري الخمر يا تيمور؟» سؤاله هذا، الشبيه بماء الثلج، أطلق عنان خيالي فقلت بداهة: «الموت هو اليقظة الكبرى». فسأل: «والحياة؟» أجبته: «سَكْرَةٌ طويلة». عادت البهجة قليلاً إلى وجهه وقال: «إذن أنا على أعتاب اليقظة». لم أفهم ما يقصده، أمسكت برأسي الثقيلة وفركت صدغيَّ. قال بحزن: «هناك من يشم رائحة الموت، وهناك من يشعر بطعمه. وهناك من يرى الموت، بينما يسمع آخرون وقع خطواته. وهناك من يتلمس بيديه خشونة أو نعومة موته. أما أنا....». وبمقدار البرهة التي تمتلئ فيها الكأس خمراً، بقي الشيخ صامتاً ثم فتح الورقة التي كان قد طواها قبل قليل وعقب: «أما أنا، فإنني أكتب موتي».

* * *

تمتد صداقتي مع الشيخ لعشر سنوات خلت. لا أدري أكان ذلك في زمن السلطان أحمد أم في بداية عهد السلطان مصطفى! لكنني أتذكر أنه كان يكتب حينها قصة «مم و زين»[2]، يرسل إلي أحياناً

(2) قصة مم و زين: هي قصة شعرية نظمها شعراً الشاعر الكردي أحمد خاني (1651–1707)، وقد عرفها القراء العرب عبر ترجمة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. المترجم

ويبقيني في حجرته حتى الفجر. وبخلاف أهل بايزيد، كان يلتفت إلى حالي حتى أنه كان ينقدني في بعض الأوقات دراهم قائلاً: «غفر الله لك وهداك. أعرف أنك لا تنال الخمر مجاناً». كانت الأسئلة التي يطرحها علي تدهشني في البداية. لكنني بعد أن عرفت ما يكتبه، سررت جداً ورحت كلما أرسل في طلبي أحتسي بضعة كؤوس من الخمر وأذهب إليه في حجرته.

سألني الشيخ ذات يوم: «صف لي ما تعمله الخمر فيك، يا تيمور!» ظننت أنه سيعظني ويسدي إلي نصائح كي أجتنب شرب الخمر، ما لم أكن أود سماعه، ولكني إذ رأيته جاداً في طلب الجواب، أجبته: «الخمرة يا مولاي مفتاح كل لسان». قال لي: «أفصح بالمزيد». فقلت: «عندما أشرب الخمر ينكشف الغطاء عن اللهيب المضرم في قلبي، تتمزق الأستار والحجب فأتفوه دون خوف بما لم أكن قادراً عليه في صحوي. وإنه لو كان في قلبي سرٌّ أريد أن أفشيه فالخمر دوائي». سُرَّ الشيخ كثيراً بما قلت، فقال: «عن هذا كنت أبحث».

الخمر في الأصل لا يمكن فهم جوهرها ما لم يتذوقها المرء، إذ لا تشبه شيئاً آخر سوى نفسها، ومع ذلك أردت أن أقرب له مفهوم السكر فقلت: «رجل يسمع بالبحر، ثم يقترب من ساحله ويرى البحر عياناً، ثم يخوض في لجته فيتذوق ماءه ويشم رائحته، أخيراً – يا مولاي– يأخذه الموج فيغيب عن نفسه. والسكر هكذا يا مولاي». رد علي الشيخ الخاني: «هذا مثال أخذتموه من التصوف».

عارضته: «كلا يا مولاي. بل الصوفية أخذوه عنا». وقبل أن أخرج من عنده، أمسك بيدي وهمس قائلاً: «أحضر معك في المرة القادمة، إن استطعت، قليلاً من الخمر». قلت مندهشاً: «يا مولاي!!» رد قائلاً: » لا، لا. ليس الأمر كما تتخيله! لكنني أريد مزج الحبر الذي أكتب به مم و زين، بالخمر. أريد كتابة ما سيجيش به صدري، بخيالٍ صاحٍ وحبرٍ سكران».

* * *

الحبر ألمٌ تخثر

كان شتاء بارداً. الثلوج التي تلوح على مدار العام فوق قمة جبل آكري، كانت قد هطلت على بلدة بايزيد أيضاً. كان الضيف الأبيض قد استحسن المكوث في كل بيت ناوياً قضاء أشهر عدة هناك. في آخر ليلة من ليالي ذاك الشتاء كنت أنا أيضاً ضيفاً في حجرة الشيخ. حينما دلفت إلى حجرته استقبلني كعادته جذلاً وأجلسني بجانبه. كانت رائحة الحبر تفوح من كم عباءته، ورؤوس أصابعه مسودة من أثر الحبر. كان جلياً أنه أنجز شطراً كبيراً من مصنفه.

قرأ لي بعض الأبيات التي يتحدث فيها عن الخمر. كان قد نظمها ببراعة شديدة متحدثاً عن أثر الخمر كأنه من شاربيه. وكان قد كتب

أن على ساقي الخمر أن يقدمها في صمت دون مصاحبة قرع دف أو نغمات قانون! ضحكت وقلت له: «إن شرب الخمرة في السر يا مولاي، مثل.....». قطع كلامي ورد بضحكة خفيفة قائلاً: «أعرف ما الذي ستقوله، أعرف. لكن الخمر التي أتحدث عنها هي خمر التصوف يا تيمور»، ثم فتح دواة حبره وقربها من أنفي، سائلاً: «أتعرف أي شذى يفوح من هذا الحبر؟» كانت رائحة طيبة تفوح من الدواة لم أعرف ماهيتها. كان الشيخ قد مزج الحبر بالخمر وكتب به أبيات مقدمة كتابه. ولكن أي رائحة كانت تفوح من الدواة في تلك اللحظة! ماذا أضاف للحبر سوى الخمر؟ وما الذي كان ينوي أن يكتب به؟ ذلك ما لم أكن أعلمه. نظرت مدهوشاً إلى عينيه المبتسمتين في ضوء الشمعة. فهم الشيخ حيرتي وقال: «لقد مزجت هذا الحبر بآلامي وحسراتي. ألم تميز فيه رائحة الحريق؟» ثم سحب بضع شعرات من جوف الدواة، تشممها ثم قال وهو يتنهد: «ما تزال رائحة مسك تلك السنوات تفوح من هذه الشعرات. لقد وضعتها في الدواة بدل خيوط الحرير التي يضعها الخطاطون في قوارير حبرهم كي لا تفسُدَ، لقد أبقيتها في هذا الحبر كي أستطيع سرد قصة حب مم و زين بسلاسة أكثر وألم أمضى».

*   *   *

كان الشيخ يهيئ حبره بنفسه قائلاً إن الحبر الذي يباع في الأسواق مغشوش، يحول لونه مع مرور الزمن وتُمحى السطور المكتوبة به. كان يسحب من الرف عند رأسه بضعة كتب مغلفة بجلد غزلان رعت زهور النرجس، ويريني واحداً منها قائلاً: «انظر. هذه نسخة من منظومة خسرو وشيرين للشاعر نظامي اشتريتها من مدينة ماكو قبل خمسة عشر عاماً. ما الذي بقي منها؟ لم يبق منها سوى جملة: أز بنج كنج نظامي كنجوي ! يكتب النساخ بحبر مغشوش وكل همهم بيع الكتاب وحسب، لا أن يبقى الكتاب».

ثم كان يعمد إلى حُقٍّ من المخمل ويستخرج مقدار ملعقة من رماد نوى الزيتون المحترق في وعاء مغطى ويمزجه بقليل من الصمغ ويضيف إليه رشحات من الماء كي يتميع الخليط ويصبح سلساً خلال الخلط. وأثناء عمله كان ينظر إلي قائلاً: «أحياناً أسكب الدمع بدل الماء». كان يتوقف قليلاً، ثم يدني قطعة زجاج من لهب الشمعة حتى تسودَّ من السخام، ويكشط بسكين صغيرة السخام ويضيفه إلى خليطه وهو يقول: «هكذا يغدو الحبر أكثر لمعاناً».

ثم كان يأخذ قسطاً من الراحة ويبقى صامتاً لتحترق نظراته كفراشات في لهب الشمعة المتقدة، بعد ذلك يرفع رأسه ويقول: «الحبرُ ألمٌ تخثَّر».

* * *

ليلة عدت ثملاً من الدير القائم شمال بلدة بايزيد، وذهبت إلى

زيارته، كنت قادراً على قراءة الموت المسطور على وجهه بحبر لامرئي. كان الموت يتراقص في نظراته. كان هو بنفسه يتحدث عن موته ويقول: «إنني أكتب موتي». أدركت، مع أنني كنت ثملاً، أن هناك من أقلق راحته وآذى روحه المباركة، لكن من هم ولماذا؟ ذاك ما لم أستطيع تبيان خيطه الأبيض من الأسود. لكنني كنت أستطيع، في الضوء الحزين لتلك الشمعة الثخينة، رؤية دموعه تنحدر بهدوء على شعر لحيته الخفيفة.

طوى الورقة التي كان يكتب عليها رسالة إلى الأمير ورماها وراء ظهره بحدة قائلاً: «عبثٌ».

ترى أكان الشيخ يقصد تلك الرسالة عندما قال إنه يكتب موته؟ ولماذا كان يعتبر كتابة رسالة إلى الأمير بمثابة موته؟ لقد كان باب ديوان الأمير، على ما أعتقد، مفتوحاً له على مصراعيه. فما الحاجة إلى كتابة رسالة للأمير؟ كان بمقدوره الذهاب إلى الديوان والجلوس مع الأمير وقول ما يشاء. تلك الأسئلة كانت تدفعني إلى الصحو كما سقاة الخمر يدفعون الكؤوس إلى السكارى. والآن أيضاً وبعد أن قضى نحبه على تلك الصورة، تفور تلك الأسئلة في رأسي كمن يخض الخمر في زق.

* * *

في تلك الليلة قام الشيخ ثم استوى جالسا عدة مرات، بعد ذلك تمشى قليلا ثم صاح فجأة بصوت ذبيح: « لقد سرقوا دواتي».

ذُبِح ما تبقى من سكري مع صوته الذبيح ذاك. واندفع عمر الضرير فجأة إلى داخل الحجرة.

عمر الخزندار

مع صرخة تيمور الكُرْجي، خمّنت أن الجميع توجهوا بأبصارهم إلى السماء. همهم بعض الحاضرين: «ها قد فقد هذا السكير عقله ثانية»، حتى أنا رفعت بصري كأني نسيت أنني أعمى. لكني لم أبصر شيئاً. وما الذي كان بإمكاني رؤيته وأنا أعيش منذ سنين طويلة في ظلمة تشبه الحبر! ألا إن العمى حبر لا يستطيع إلا العميان قراءة سطوره.

ولكني لم أستطع ذلك اليوم قراءة السطور التي كان يخطها مطر الحبر، فمددت كفّي ليتساقط الرذاذ الناعم عليهما. ثم شممتهما. كانت رائحة حبر حقيقي تفوح منهما.

تمنيت، منذ أن أصبت بالعمى، أن يرد الله بصري في حدثين. المرة الأولى كانت يوم خرجت من مسقط رأسي بدليس. فبعد أن سرت طويلاً، حانت مني التفاتة دون قصد صوب مدينتي المنكوبة لألقي عليها نظرة الوداع الأخيرة. وإذ لم أر شيئاً، كاد قلبي يتفطر وأخذت أجهش بالبكاء كأنني جروٌ بتر صبية أشقياء ذيله. المرة الثانية كانت يوم دفن أحمد الخاني، وكم تمنيت حينذاك أن أفتح عيني لأرى الحبر يهطل.

* * *

في السنة التي عميت فيها، كان ملا إلياس، والد أحمد الخاني، قد توفي حديثاً. كان ما يزال المرحوم الأمير محمد بوربلاني أميراً على بايزيد وما حولها. كنت قادماً لتوي من بدليس المنكوبة وحضرت مجلس عزائه. كان صوت صبي يتناهى إلى مسمعي. وإذ سألت جاري من الصبي، قال: «هذا أحمد ابن ملا إلياس». عرفت أحمد منذ ذلك اليوم. ولأنني كنت حافظاً فقد أسلمه إلي شقيقه ملا قاسم ليقرأ القرآن علي. كان خارق الذكاء قوي الذاكرة ويحفظ طوال السور في أسبوع. لم يكن شبيه أترابه، بل رزيناً، صامتاً، ومحباً للمساعدة. كان يمسك بيدي عقب كل درس من دروس تحفيظ القرآن ويرافقني إلى باب المسجد أو أي مكان أود الذهاب إليه. كنت أحبه كثيراً وأمنحه كل مرة آقجةً أو أضع في كفيه الشبيهتين باللوز الطري، حمصاً مشوياً مملحاً. لفرط ذكائه أدرك أنني لم أكن أعمى بالولادة، فقد كانت حركاتي تشي بأنني كنت بصيراً في الأيام الخوالي. وذات يوم، وبعد قراءة (تبارك) عدة مرات ليحفظها بإتقان، سألني: «لماذا عميت يا عم عمر؟»

سؤاله ذاك كوى قلبي وأحرقه أكثر مما فعل السفودان المسجوران اللذان سملوا بهما عيني. لم أرد أن أجيب عليه، كان عماي وسببه

أكبر من فهمه، أو هكذا كنت أظن. لكنني وأمام إصراره اضطررت إلى سرد حكايتي.

* * *

كان ذلك ذات خريف. كان الجو بارداً كما الآن. كانت ثمار الكستناء التي تتساقط من الأشجار، تتناثر على الأرض كالقنافذ وأعمدة الدخان التي تتصاعد من قلعة بدليس، تستر الشمس الغاربة في جهة قرية موتكي عن الأنظار. مساء ذلك اليوم كنت في بيتي، وكنت قد وضعت عدداً من ثمار الكستناء على جمرات متقدة في المنقل مستمتعاً برؤية الأوراق الصفر وهي تتساقط من أغصان شجرة الكستناء وسط فناء الدار. كان الأمير عبدال خان وأسرته قد فروا من المدينة وحاصر الخوف الجميع. لكنني لم أكن قد بقيت في المدينة بسبب الخوف، بل كنت قد احترت في أمري ولا أعرف أين أولي وجهي. كان والي وان، ملك أحمد باشا، قد ضرب طوق الحصار على المدينة وأهلها ونهب جنودُه قصرَ الأمير عبدال خان. كانت حبة قلبي تحترق أكثر من حبات الكستناء في ذلك المساء الملطخ بالسخام والدخان وخيانة أمراء الأكراد لقومهم. كان المهاجمون قد أفرغوا رفوف مكتبة الأمير وحملوا الكتب على ظهور البغال. لكنني كنت قد أحضرت إلى البيت قبل النهب بثلاثة أيام، كتاب شرفنامه الذي

سطر الأمير شرفخان[3] على صفحته الأولى إهداءً إلى والد الأمير عبدال خان بخط يده. لم يبق في القصر شيء لم ينهبوه، لكن ذلك كله لم يشف غليل ملك أحمد باشا ولم يخفف من غلوائه. كان يبحث عن خزينة كنوز عبدال خان الكبيرة.

لم تتسن لي فرصة الهرب من بدليس، وما كنت أعتقد أن أحداً سيتعرض لي بسوء. صحيح أنني من عشيرة الأمير، لكني لست فرداً من عائلته وما كنت سوى أمين خزانته. كنت خزندار الأمير وأحتفظ بمفاتيح كنوزه. لكن الأمير لم يكن ذلك المجنون الذي يترك دفائنه وكنوزه وجواهره وراء ظهره ويهرب دونها. المال أغلى من الروح في أحايين كثيرة.

* * *

التقطت حبة كستناء أنضجَتْها النارُ وأوشكتُ على تقشيرها. كنت أنفخ عليها لتبرد قليلاً إذ سمعت جلبة وسط الدار. وفي لمحة عين اندفع إلى غرفتي كالإعصار، بضعة رجال بمغافر معدنية وسيوف مسلولة. سألني أحدهم، وكان يضع على خوذته ريشة حمراء، بحدة: «ألست عمر الخزندار؟» أجبته: «بلى. خيراً!!» رد علي

(3) أمير ومؤرخ كردي اشتهر بكتابه الشرفنامه الذي يبحث في تاريخ الأكراد. انتهى من كتابته عام 1005 للهجرة. المترجم

بالحدة ذاتها: «الباشا يدعوك إليه».

رميت حبة الكستناء التي كنت على وشك تقشيرها في المنقل وقمت كي أغير ثيابي. أمسكني أحد الجنود وقال محتداً: «لا. لا داعي لذلك». ثم هجم علي رجلان على حين غرة وأمسكا بي من ذراعي وسحلاني إلى القصر الذي كان ملك أحمد باشا مقيماً فيه. كان غلامه، نظمي الشركسي، الذي كان فيما مضى غلاماً للأمير عبدال خان، يقشر له حبات الكستناء المشوية ويضعها أمامه على طبق فضة. كنت قد رأيت ذلك الطبق ذاته مرات كثيرة أمام الأمير عبدال خان. فقد كان من عادة الأمير أن يمزج زبيب نواحي ماردين بلب الجوز ويأكله في أمسيات الشتاء في ذلك الطبق الفضي.

استقرت نظراتي على طبق الفضة بينما سافر خيالي إلى تلك الأيام الخوالي التي كنت فيها خزندار الأمير. كنت في الثالثة والعشرين من عمري، ومع ذلك كان الأمير قد سلمني مفاتيح صندوق جواهره الثمينة. لقد كان يثق بي أكثر من ثقته بولده ضياء الدين ويثني علي في مجالسه الخاصة قائلاً: «لا يوجد أحد مثل عمر في عشيرة الروزكي كلها. عيناه عينا صقور جبل شرف الدين! بإمكانهما تمييز لص حتى بين الطائفين بالكعبة».

كانت بدليس في عهده قد أصبحت جنة الدنيا! وما كانت الغربة تغري أحداً بالرحيل عنها. حتى أن زائرها ليومين كان يستطيبها ويمكث فيها أكثر من أسبوع. كانت خاناتها رخيصة الأسعار،

ولكن أغلب الناس ممن لا خيول معهم لم يكونوا يرتادون الخانات بل يذهبون إلى الخانقاهات والمساجد الأكثر عدداً من الحوانيت ليبيتوا فيها مجاناً. ما كانت تمضي ليلة إلا ويبيت أكثر من عشرة رجال في مسجد الشرفية وحده. وكانت مساجد الخطيبية والإدريسية والإخلاصية تعج بطلبة العلم القادمين من ملاذكرد وخنوس وموش وديار بكر للدراسة. وكان الأمير عبدال خان قد تكفل بمصاريف مأكلهم ومشربهم ومبيتهم.

وقرب الميدان الأزرق كانت ثمة تكية يلجأ إليها كل دراويش تلك البقاع. أما حمامات بدليس، فلم يكن في الدنيا كلها ما يضاهيها وقد طبقت شهرتها الآفاق، حتى أن جدي كان يروي عن أحد سلاطين آل عثمان، كان قد زار بدليس ودخل أحد حماماتها، وقال لما رأى ما في ذلك الحمام من بدائع الصنع: «أواه. ليت لي في الآستانة حمام كهذا الحمام!»

* * *

أدرك ملك أحمد باشا أنني أرمق طبق الفضة، فظهرت ابتسامة على طرف فمه وقال:

– هذا طبق الأمير، أليس كذلك؟

– بلى.

– كانت له ذخائر نفيسة أخرى. أليس كذلك؟
– بلى.
– أين هي؟

بسؤاله ذاك، عرفت لماذا طلب مثولي بين يديه. فهو لم يكن قد شبع من النهب بعد. ومع أنه نهب مكتبة الأمير وحمل كتبها على ظهور البغال، ووضع كل ما وصلت إليه يداه من أملاك الأمير وذهبه في صناديق صغيرة، إلا أنه ما كان ليكتفي بذلك. وحينما أجبته أنني لا أدري أين هي باقي الكنوز، ثار وهاج ونهض عن كرسيه، لا لم يكن كرسيه ولا كرسي أبيه، لكن لا يمكنني سوى قول ذلك، وصرخ بصوت حارق أكثر من الجمرات المتقدة تحت حبات الكستناء: «قل لي أين هي الكنوز قبل أن أعلق جثتك على مشنقة باب القلعة، أو أضع رأسك على رمح. أو، إن بدا لك ، فإن في حوزتنا خوازيق مناسبة!»

ما كنت أخاف، لكنني لم أكن أعرف حقيقةً أين هي خزائن الأمير! لقد أخذ معه الكثير بينما أخفى بعضاً من ثروته في أماكن تحت الأرض لم يكن أحد يعرفها سواه.

كنت على وشك أن أقسم أنني لا أعرف مكان الخزائن، لكنني لمحت الباشا يغمز لأحد الجنود الممسكين بي. لكمني الجندي على فمي وكسر بعض ثناياي. سال الدم أحمر من لثتي وشفتي وعاد ملك

أحمد باشا ليسأل: «والآن؟» لكنه لم ينتظر جوابي، بل استمر قائلاً: «ألستم رجالَ عشيرة الروزكي تزعمون أن وراء كل حجر في قلعة بدليس، رأس رجل منكم؟! إذاً سأضيف الليلة حجراً جديداً إلى سور القلعة».

تمنيت وقتها لو أعثر ولو على خابية صغيرة مليئة ذهباً حتى أفدي بها روحي. بحثت في كل مكان لكنني لم أظفر بشيء. أخيراً يئس الباشا وقال لغلامه: «هلم، ضع سفودين على النار».

عندما سمعت كلمة السفودين، عرفت أنه ينوي شراً، فتضرعت: «أي ذنب اقترفته أنا؟»

لمع الجشع إلى الذهب في عينيه أكثر من لمعان الذهب في وهج نار مستعرة وقال: «ما الذي ستفعله بهاتين العينين اللتين لا تستطيعان العثور على كنوز عبدال خان؟ حرام عليك أن تبصر!»

عندها حمل رجل مفتول الساعدين سفودين متوهجين ومشى ناحيتي. لم تجد مقاومتي نفعاً، وذهب صراخي الذي كان يمزق ليل بدليس عبثاً. وفي اللحظة التي اقترب فيها السفودان من عيني، توقفت عن الصراخ واستقبلت قدري بشجاعة تليق بأبطال عشيرة الروزكي. بقيت عيناي مفتوحتين تحدقان في حبات الكستناء التي تحترق على النار، وفي لمح البصر غرز الرجل السفودين في عيني فشعرت وكأني وقعت في لجة من الحبر، ولم أعد أرى شيئاً.

كم أتحسر، لأن وجوه أولئك الظالمين، كانت آخر ما أرى!!

* * *

عندما رويت حادثة سمل عيني لتلميذي أحمد، سكت برهة ثم حضنني ولثم عيني المفقوءتين. مسحت بيدي على رأسه وقلت له: «لا تحزن يا ابن أخي فأنت بمثابة عيني».

لقد كان حقاً بمثابة العينين لي، فقد كان يضع أمامي إبريق الماء، ويمد سجادتي ويوجهني ناحية القبلة، وعندما تسقط مسبحتي من يدي أو أفقد سواكي، يضعهما في يدي.

كنت كلما توجهت صوب القبلة، أتذكر بدليس وأبكي في صمت. كانت حمّاماتها وأسواقها، جبل نمرود، بساتينها وأنهارها، مساجدها ومدارسها وقلعتها الشاهقة المنيعة تتراءى مجتمعة في خيالي فأتوه عن نفسي ولا أعود أتذكر كم ركعة صليت!

عندما بلغ أحمد من العمر عشرة أعوام، كان قد حفظ القرآن عن ظهر قلب. فبدأت أعلمه اللغة الفارسية وبدأنا بكتاب كلستان لسعدي الشيرازي. كان هو يقرأ الكتاب وأنا أشرح له. وحينما شعرت أنه بلغ سن الرشد بدأت أسرد له وقائع الكرد وبعضاً من تاريخهم. حدثته عن بدليس وتاريخها، عن عشيرة الروزكي وحروبها الداخلية، عن صراعات البدليسيين وانشقاقهم ومعارك القواليسيين والبلباسيين، عن خيانة أمراء الكرد والأيام السالفة. سردت له كيف جرفت أمواج

قره قوينلو وآق قوينلو عشيرة الروزكي وباقي عشائر الكرد. حدثته عن الشاعر البدليسي شكري وكيف أنه نظم الشعر بالكردية فلم يلتفت إليه أحد فاتجه إلى نظم الشعر بالفارسية والتركية وسطع نجمه حتى غدا من بطانة السلطان سليم وخاصته وكانت له مكانة رفيعة عنده حتى منحه ذهباً بقدر وزن ديوانه سليمنامه!

كانت حروب الترك والعجم تلفت انتباهه، تلك الحروب التي يسبر أغوارها وتضطر السناجق والأقضية إلى إمدادها بالحطب لإضرام نار حرب وقودها الصراعُ المذهبي والذهبُ الذي يجمعونه من المساكين. ذات مرة، وقبل أن يذهب إلى جزيرة بوطان لطلب العلم ونيل الإجازة، سألني أحمد: «ألم يكن في الأكراد رجل مثل سلاطين الترك أو شاهات العجم ليوحد هذه العشائر والطوائف تحت رايته ويبني دولة كبيرة؟»

كان سؤاله أكبر من عمره وفهمه لكنني لم أشأ تركه بلا جواب فرويت له حديث النبي ودعاءه على الأكراد: «لا وحَّد الله هذه الأمة!» وقلت له إن هذا هو قدر الأكراد. لكنه لم يقتنع بجوابي، ارتعش صوته الفتي وقال: «لا الترك الحنفيون ولا العجم الشيعة بأكثر إسلاماً منا نحن الكرد. فلماذا لم يدْعُ عليهم الرسول! لا. الرسول لم يدع على الأكراد. وهذا الحديث غير موجود لا في الصحاح ولا في ضعاف الأحاديث. ثمة علة أخرى تفرقنا».

حينذاك، أخرجت كتاب شرفنامه من الغلاف الحريري المزركش

ووضعته في يده قائلاً: «يا أحمد! كان هذا الكتاب في بيت الأمير عبدال خان. انظر! غلافه من جلد غزالٍ اصطاده الأمير بنفسه في سفح جبل نمرود. اقرأه وسترى فيه أجوبة كثيرة».

كنت قد أتيت بذلك الكتاب معي من بدليس لما هاجرت منها. فقبل أن يدخل ملك أحمد باشا وجيشه القلعة كان الأمير عبدال خان قد سلمني مفاتيح مكتبته وقال: «يا عمر أفندي! لا أستطيع أخذ مكتبتي معي. ولا أظن أن ولدي ضياء الدين سيهتم لأمرها من بعدي. خذها إن استطعت إلى مسجد حاجي بكي وأخفها عن أعين الجند. وإن لم يسعها المسجد فضع في كل مسجد بضع مجلدات أو فرقها بين الملالي وطلبة العلم في بدليس ولا تدعها تقع في يد هذا الحاقد الخبيث».

لم أتمكن من تأمين تلك الكتب التي كان عددها يبلغ المئات، فأخذت ما استطعت حمله وكان كتاب شرفنامه من بينها. كان شرفخان عم الأمير عبدال خان قد وضع خاتمه في أسفل الصفحة الأولى من الكتاب وكتب إهداء باللغة العربية إلى أخيه والد الأمير عبدال خان نصه: «إلى أخي الأجلّ».

في ليالي بايزيد الطويلة، كان الخاني يقرأ الكتاب وأنا أشرح له المواضع العصية على الفهم. كانت لغته الفارسية قد تقدمت كثيراً، لكنه ما كان ليعرف العديد من الأعلام التي يأتي الكتاب على ذكرها فيضطر للاستفسار عنها. وكان أكثر ما شد انتباهه في الكتاب،

فُرقة الأكراد وصراع قادتهم، وارتماؤهم في أحضان الترك والعجم وكونهم بلا دولة. كانت الأسئلة التي يطرحها هو ورفيقه إسماعيل البايزيدي الذي كان يصغره بعدة سنوات تنفخ في الجمر الكامن في رماد خيالي. فلولا أنه سألني عن سبب تدوين كتاب شرفنامه باللغة الفارسية؟ لما انتبهت لذلك أبداً.

* * *

لم أكن في بايزيد عندما كان يكتب قصة مم وزين. كان أحد آغوات الجلاليين قد استدعاني إلى بلدة ديادين وأقمت هناك ضيفاً عليه لبضع سنين. كنت قد أصبحت مغنيه الأول، ولم يكن يوقد شمعة للسمر بدوني.

حتى مطلع الفجر كنت أترنم بأغنيات عن ممى آلان وأبطال حروب القزلباش والترك، اليزيديين والحسينيين، آق قوينلو وقره قوينلو[4]، وأغاني حب من بلاد العرب والعجم. كان العمى قد أوقد تنور ذاكرتي وكنت أصقل مسامع السامرين في مجلس الآغا الجلالي بالنار الخفية المتأججة في حنجرتي. لقد قادني العمى إلى سلوك طريق الأغاني، فلم أكن أغني في بدليس إلا في مجالس أنس العائلة. ولقد

(4) طائفتان كبيرتان من التركمان حكمتا مناطق واسعة في الشرق في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. المترجم

تبع عماي صفاء الصوت وكأن الله تعالى عوضني عن البصر بالصوت الحسن.

ولم يكن لأحد أن ينافسني في الغناء سوى المرحوم ميرخان الأرموي والد المغني دوستو.

كنت أفضل تحفيظ القرآن على الغناء. لقد كان في ذلك ثواب لي من جهة، ومن جهة أخرى كنت أجد راحة كبرى في قراءة القرآن. لكن الآغا الجلالي أجبرني على الغناء قائلاً: «صوتك الحسن هذا يليق بإنشاد ملاحم الأكراد».

مرت أعوامي هناك سراعاً. وذات ربيع متأخر، كان الرُحَّلُ قد ذهبوا إلى المصايف ورائحة الجبن تفوح حتى بلدة إغدر، عرفت أن سوقي في الغناء لم تعد رائجة لدى ذلك الآغا وأن المغني ميرخان بدأ يسحب البساط من تحت قدمي. حتى أنني سمعت من يقول في المجلس: «ما لعمر الأعمى يريد منافسة المغني الماهر ميرخان!» عندها ودعت لقب المغني وأهل ديادين وأردت العودة إلى بايزيد وإلى لقب الحافظ.

في ذلك العام كان صوفي مهدي والد صلاح الدين الوراق ما يزال على قيد الحياة. وفي اللحظة التي أوصلني فيها الدليل إلى بلدة بايزيد، سألني: «خال عمر، ها نحن في بايزيد. قل لي الآن أين تحبذ النزول؟»

لم أكن أعرف إلى من سأتوجه! كان الخاني أول من فكرت فيه. كان قد بنى مسجداً ومدرسة وصار له كثير من التلاميذ. وإذ أردت أن أقول لدليلي: خذني إلى أحمد الخاني، تناهى إلى سمعي صوت ناعم حنون خالطه نهيق بغل يصلحون نعله:

- هذا عمر يا رجل.
- أهذا أنت يا صوفي مهدي؟
- دعه يدخل، دعه يدخل. والله لقد اشتقت إليه.

وبمجرد أن دخلت حانوته، فاحت روائح الحبر والصمغ الزكية التي ذكرتني بالسوق القريب من الميدان الأزرق حينما كنت طالب فقه أدرس في تكية الشمسية في بدليس. كنت أذهب كل يوم خميس مع أقراني إلى حوانيت الوراقين شمال الميدان الأزرق نشاهد الكتب التي يجلدها الوراقون ويصقلون أوراقها ويثقبونها ليلصقوها بعضها إلى بعض. وأحياناً كان الوراقون يشفقون علينا ويعرفون أننا طلبة الفقه نطمع في مطالعة تلك الكتب ولكننا لا نقدر على شرائها، وكانوا يقولون لنا: «خذوا هذه الكتب وضموا صفحاتها متسلسلة وألصقوها، اقرؤوها ثم ردوها إلينا».

* * *

انتبه صوفي مهدي إلي وعرف أنني أشم حانوته غارقاً في بحر الذكريات، أمسك بيدي وأجلسني. تنفست الصعداء ثم قلت: «باركك الله يا صوفي مهدي. ها أنت تجلد كتاباً جديداً!»

ضحك ومد إلي ماء بارداً وهو يقول: «العميان يبصرون بنور الله. كيف عرفت أنني صوفي مهدي وكيف عرفت أنني أجلد كتاباً جديداً يا عمر؟»

«ألم تقل أنت بنفسك إنني أبصر بنور الله تعالى؟ إن أنفي لا تخطئ رائحة الحبر ولو بين آلاف الروائح».

وبعد برهة قصيرة من الضحك وتجاذب أطراف الحديث، رجوته أن يبعثني إلى أحمد الخاني، لكنه أمسك بيدي وقال:

– أتميز رائحة الورق أيضاً؟

– كيف لا! إن كان الورق سمرقندياً فاحت منه رائحة الجص، وإن كان بغدادياً فاحت منه رائحة النخيل.

ضحك وقال: « هذا صحيح». ثم نادى:

– صلاح الدين! يا بني. ناولني ذلك الكتاب.

– وي! أصلاح الدين هنا؟

– أي نعم. وأين سيكون! إنه يقتفي أثري وأثر جده. سيصبح هو الآخر وراقاً مثلنا.

وناولني كتاباً ثخيناً وهو يقول: «فلتشم هذا الكتاب إذن».

من رائحة الكتاب، من ملمس الجلد اللين والأوراق التي تفوح منها رائحة الرمل والحبر، عرفت أنه نُسِخَ حديثاً. ملأت رئتيَّ من عبقه وقلت:

– يفوح من هذا الكتاب شذى قلبين احترقا هياماً.

– ويلاااااه! أقسم برأس ولدي أنك تبصر بنور الله سبحانه. هذا مم وزين، كتاب أحمد الخاني. انتهيت البارحة من نسخه. لقد أتقن في تأليفه.

ثم خفض من صوته قليلاً وقال كمن يفشي سراً: «لكنه يتعرض فيه للأمير».

وتعالى من جديد نهيق ذلك البغل الذي كانوا يصلحون نعله.

* * *

في ذلك المساء، عندما كانت رائحة تيمور الكرجي الذي يسميه

أهل بايزيد تيمور الفاسق تفوح من حجرة أحمد الخاني، شممت رائحة ألم خفي من قلب الخاني أيضاً. كان بإمكاني سماع هموم قلبه، ومن نغمة حديثه كان يبدو أن الأرض قد ضاقت عليه. شممت أيضاً رائحة الخمر التي كان تيمور قد احتساها، لكنني غضضت الطرف عن ذلك واتخذت مجلسي حيث أشاروا.

طرح تيمور الفاسق سؤالاً مجنوناً علي فقال: «يا عم عمر، ألم تر دواة الشيخ، لقد سرقوها؟»

ضحك الخاني ضحكة شعرت معها أن غدير بُولانِقْ سيرتجُّ معها، لكن عندما قلت: «نعم رأيتها»، توقف الخاني عن الضحك وقال بصوت حزين، كمن ندم على شيء: «كانت لي قارورة حبر...».

لكنني لم أدعه يكمل جملته وقلت: «إن الذي سرق زهور خيالك، سرق الحبر الذي كنت تسقي به ذلك الخيال أيضاً».

* * *

الآن تنثر أشجار الكستناء ثمارها في بدليس. تجتمع كما القنافذ ويأتي الأولاد ليخرجوا الحبات التوأم من أغلفتها الشوكية ويشووها على النار. علي أن أعود. كفى. علي أن أعود إلى بدليس مرة أخرى وأشم النسمات التي تهب من ناحية جبل نمرود. إن لم أعد بإرادتي، فإن هذا التاجر عديم الايمان والمتنفذ الحاج زهدي، سيخرجني

مكرهاً. إنه لا يرحم شيخوختي وعماي. لأعد ولأدفن في ذراع من تراب بدليس أفضل لي من أن أموت هنا، دون أن يشعر بي أحد.

شَنْكي

يوم عاد والدي من بلدة ماكو وقال: «لقد زوجتك» كان يوماً أسود. بل كان أكثر سواداً من أثر الحبر المتبقي على رؤوس أناملي وتحت حواف أظافري. لكن ما الذي كنت أستطيع فعله أنا المسكينة! كان قد عقد نكاحي واستلم مهري أيضاً. باعني مقابل جلود الغنم المدبوغة وارتسمت على فمه ابتسامة عريضة بلغت أذنيه.

كنت قد أعددت لتوي قليلاً من الحبر لمحبوبي أحمد، وكانت أناملي ما تزال تحمل آثار الحبر ما أثار انتباه والدي الذي قال مدهوشاً: «أليس في البيت خادمات حتى تغسلي الأواني المسخمة؟» كان يظن أن أناملي اسودت من سخام الأوعية وما كان ليعرف قط أنني أعددت الحبر لحبيبي.

كان المرحوم قد بعث مع أحد تلامذته رسالة – احتفظت طويلاً بتلك الرسالة في ثنايا العصابة الحيدرية التي كنت ألف بها شعري– طلب فيها أن أهيئ له بنفسي قليلاً من الحبر. وكان مما جاء في الرسالة أنه على وشك كتابة قصة حب وأنه يريد أن يخط سطور تلك القصة بحبر اختلط بأنفاسي. لم أنتظر طويلاً، بل عمدت فوراً إلى نوى الزايتون وحرقتها على نار هادئة في وعاء من الفخار، ثم مزجتها بالصمغ العربي ودققت الخليط في وعاء من النحاس لعدة أيام. وقبل أن أسكب الحبر في القارورة تركته في الشمس يوماً. ووضعت بضعة

خيوط من القز وخصلة من شعري أسفل القارورة ثم سكبت الحبر الأسود فوقها. زعموا أن خيوط القز تحفظ الحبر من الجفاف في قارورته. هذا ما علمتنيه بنات بايزيد اللواتي كن يقعن في حب طلبة الفقه ويهيئن لهم الحبر. كان أولئك الطلبة يدعون أن ما يُكتب بالحبر الذي تعده الصبايا يرسخ في الذاكرة ولا يمكن نسيانه أبداً. وكان كل طالب فقه يفتخر بحبره، يدنيه من أنف زميله ويقول له: «هممم! من حبري تهب روائح الجنة».

فيرد عليه الآخر: «أما حبري فيعبق بشذى نهدَي حبيبتي».

بينما يعلق ثالث: «آه. يا للروعة. لقد امتزج حبري برائحة المسك الذي على شعر حبيبتي».

* * *

حينما بشرني والدي بشارته السوداء تلك، نهضت وغسلت يدي ثم ذهبت إلى الغرفة التي وضعت فيها قارورة الحبر وبكيت. نزعت غطاء القارورة وذرفت دموعي فيها. ثم أرسلت القارورة مع ذلك التلميذ إلى المرحوم وقلت له: «قل لشيخك إنهم سيزوجون شَنْكي».

ما الذي جرى له وكيف استقبل الخبر؟ هذا ما لا أعلمه. لكنني أعلم أن زواجي كان الموت بعينه. والدي التاجر لم يحدثني بشيء

عن ذلك الرجل الذي سيصبح بعلاً لي. جل ما حكاه لي عنه أنه يملك خانات ومدابغ ومالاً وفيراً. لم يحدثني عن زوجاته الثلاث وسنواته الستين، ولم يقل لي إن عبد الله لا يستحلي المبيت إلا بين الجلود والروائح النتنة.

قضيت أسبوعاً في جحيم أعددت فيه جهاز العرس المفاجئ الذي ما كنت أرضاه لنفسي. كنت أمشي ولكن كمن يمشي على سهل من الإبر المتوقدة والجمر. وآكل لكني أغص بكل لقمة خبز أتناولها. كنت أبحث في سوق بايزيد عن جهاز عرسي، عن الكحل والمكحلة، الحناء العربية، المناديل الموصلية، المرايا الحلبية، أحذية موش وأقمشة أصفهان، والأساور والأقراط والحلي الذهبية، ولكن الأقمشةَ التي كنت أتفحصها كانت تبدو لناظري أكفاناً، وصندوقَ عرسي يبدو نعشاً، وماءَ الورد الذي أشتريه من العطار والطبيب الأرمني زُهْراب، الحَنوطَ الذي يرشونه على أجساد الموتى قبل دفنهم.

كنت أتمنى أن يكون ما يجري لي مجرد أضغاث أحلام وخيالات باطلة. وأمني النفس أن يأتي عزيز قلبي أحمد – كما في قصصنا وملاحمنا نحن الأكراد – على فرس بيضاء ويأخذ بيدي ليركبني خلفه ونذهب إلى بلاد بعيدة لا تطالها يد عبد الله ولا يد والدي ولا يد\أي تاجر آخر. غير أنها كانت الحقيقة المرة، حقيقة أكثر سواداً من السخام وأمر من العلقم، كأساً من السم الزعاف شربتها، حفرة من الروث أوقعني أبي فيها، تنوراً مسجوراً أقمت فيه واحترقت.

*　　*　　*

كان يوماً مثلجاً. وبقدر البياض الناصع لثلج ذلك اليوم، كان حظي – أنا المسكينة – غراباً حالك السواد. على فرس صهباء أخذت مع نفر النساء الفاردة صوب بيت زوجي عبد الله الماكويي. كان أبي يريد مرافقتنا إلى ماكو، لكنه غير رأيه حين سمع أن هذا الأمر مخالف لأعراف الأكراد. يقينا كان يريد السفر إلى ماكو لأجل تجارته. إلا أنه اكتفى بما ربحه من مال مقابل بيع جسدي.

كانت أهازيج النسوة حولي تمزق روحي، فكأنهن ينحن علي نواحاً في لبوس غناء. هن يغنين بالآذرية والفارسية وأنا أبكي بالكردية!

كان البرقع الأحمر الذي يغطي وجهي المصفر يجعلني أرى كل شيء أحمر اللون، فيبدو حتى ذلك الثلج الأبيض البارد وكأنه خالط دماً والخوف يقطع نياط قلبي كمن يتجه إلى وجر ذئب. كنت أعرف أنهم سيلقونني مثل حَمَل صغير أمام أنياب ذلك الوحش الذي يسمى عبد الله، الذئب الذي سيمسي ثلاث عشرة سنة مديدة زوجي وسيد صدري ونهديَّ. كنت أعرف أن عزيز قلبي أحمد سينكب في بطون الليالي على أوراقه ويطفئ بدمع قلبه نار فراقي. كنت أعرف أن قلبي يُقتلَعُ من جذعه ويُرمى كقطعة لحم أمام كلب عقور.

لكن ويحي أنا، ويحي أنا المسكينة، مجزوزة الشعر، منطفئة

السراج! ماذا كان بوسعي لأفعله حينذاك سوى أن أذرف الدموع. ما كانت دموعي لترقأ منذ أن أركبوني على صهوة تلك الفرس الصهباء وحتى وصولي إلى بيت زوجي عبد الله. ليتني مت ذلك اليوم وأخرجوني على نعش ولم أخرج بصندوق عرسي.

* * *

بدت حفلة عرسي وكأن القيامة قامت. حضرها الكثيرون من أهل ماكو ونواحيها. كانت حفلة لا توصف حتى أنها أنستني همومي وجعلتني أنشغل بالراقصين والمغنين من حولي. كان الليل يدلهم ساعة فساعة ويخفي وجه الثلج إلى أن مضى كل إلى بيته.

كان عقد نكاحنا، أنا ووجه النحس عبد الله، قد أُبْرِم وأمسيت بذلك زوجته على سنة الله ورسوله وصار من واجبي كزوجة أن أفعل كل ما يطلبه مني. لكن ما طُلِبَ مني ليلتها .....

إن لساني لا يطاوعني على سرد ما حصل، إذ لم يتلوث تلك الليلة جسدي فحسب، بل روحي وكياني وكل ما تبقى من حياتي أيضاً.

حينما دخل علي أمرني: «اخلعي سروالك يا امرأة». أمسكت بتَكّة سروالي متكورة على نفسي في السرير مثل أفعى. ظن أن ذاك من خجل العرائس ولم يفهم أنني أكرهه وأفضل الموت على اقترابه من جسدي. لم يفهم أنني لا أريد ذبح طائر بكارتي على ثلج ملاءته

البيضاء. دنا مني حتى بدت أسنانه الصفراء كأنياب ذئب من تحت شاربه الأشيب المدهون. كانت رائحته الكريهة تسبقه. كنت أتراجع إلى الخلف وهو يتقدم نحوي. بدنوه أكثر، اشتدت رائحة المدابغ والجلود وقشر الرمان والسماق والجص والغنم المذبوح وظهر الزبد على فمه، حتى رأيته واقفاً عند السرير ينزع عني سروالي. كانت عصابتي الحيدرية قد سقطت عن رأسي وهو يزيل قشور عفافي المرتجفة. من كان سيسمع صرختي في تلك الليلة التي ختم الثلج على أذنيها؟ كان كل من في الحفل قد ذهب إلى منزله، أما والدي فقد سدَّت جلودُ وجه النحس عبد الله أذنيه فما عاد يسمع بهما سوى رنين الذهب. لم أصرخ ولم أبكِ، بل فعلت كما ينبغي لعروس أن تفعل وسكتُّ. في تلك الليلة الباردة سلمته كياني جسداً وروحاً.

نفخ بفمه المزبد في الشمعة عند رأسي، ثم امتلأ فمي برائحة تراب عفن وجلد غير مدبوغ وأوشكت على التقيؤ. كان لعابه يسيل على وجهي وهو يتأوه. ولم يطل به الأمر كثيراً حتى صدر عنه خوار وقام عني سريعاً واتجه صوب الباب. سلم الملاءة البيضاء التي سال عليها الدم إلى إشبينه الذي كان في انتظاره وخرج في أعقابه ولم يعد تلك الليلة مرة ثانية إلى حجرتي. حجرتي التي كانت قد غدت مستنقعاً نتناً من الدم واللعاب ومنيّ ذلك الضبع الستيني. حجرتي التي ما كان نهر دموعي ولا حتى مياه سبعة ينابيع لتقدر على إزالة القذارة عنها.

*   *   *

ثلاثة عشر عاماً أمضيتها مع الذئب على ذلك المنوال. كان يأتي، كلما كانت ليلتي، من عند إحدى ضرائري ويندس في فراشي، يحط كالبوم على صدري. وبعد هنيهة من الرهز واللعاب السائل على نحري، يقوم عني ويشد تكة سرواله ويدير لي ظهره ويغادر.

لم أنس ولو لمرة واحدة – خلال السنوات الثلاث عشرة تلك – حبيب قلبي أحمد. لم يغب عن خيالي وجهه الحزين المصفر كالعسل ولو لبرهة واحدة. لم أنس ولو ليوم واحد رائحة الحبر الذي كنت أعده له وأضيف إليه ذرور الدارصيني. لا رائحة الجلود المدبوغة ولا رائحة المسك، الذي كان وجه النحس عبد الله يتطيب به أيام الجمعة، ما كانت لتنسيني رائحة ذلك الحبر المقدس.

كنت أزور بيت أهلي في بايزيد كل عامين أو ثلاثة وفي حجري وليد جديد. لم يكن حبيب قلبي أحمد يحاول الوصول إلي ولم أكن أجرؤ على محاولة الوصول إليه وكأن نهراً من القطران يفصل بيننا. مرة واحدة فقط لمحته في الطريق إلى حلقة الدرس. كان يحيط به بضعة تلاميذ يمشون معه على عجل. لم يرفع عينيه ولم ينتبه إلي. لكن الهواء الذي كان يهب مع رفرفة جبته البيضاء هيج عبق حبر السنين السالفة وذكرني بشبابي فأجهشت في البكاء.

* * *

الحب شمس لا تغيب

كنت في السابعة عشر من عمري وكان والدي قد عاد لتوه من الحج ودعا كبراء وأعوان بايزيد إلى دارنا. كنت من بين ذلك الجمع كله مهتمة بعزيز قلبي أحمد الذي كان يدرسني القرآن في طفولتي وحفظت على يده بعضاً من السور. حتى هذا اليوم وهذه اللحظة ماتزال رائحة الحبر التي كانت تعبق من أردان عباءته، نديةً في أنفي. كان صوته رقيقاً لكأنه مدهون بالسمن العربي. وكان طلق المحيا وكأنه في يوم عرسه.

في شبابي كان قد رآني لمرات عدة وأرسل لي على أوراق الدلب بضع رسائل مع شقيقته الصغيرة كَتانْ. وكان هذا منتهى حبنا: رسائل على أوراق الدلب ولقاءات خاطفة كالبرق محفوفة بالخوف ونبضات قلبين عاشقين.

كنت قد شغفته حباً وتخيلت أن أوراق الدلب وحدها تطلع على أسرار قلبينا. لكن أوراق جميع الأشجار باتت على علم بقصة حبنا حتى وصلت إلى مسامع المرجفين الذين بات كل واحد منهم يغزل على هواه خيوط قصتنا بمغزل خياله. كانوا يقولون إن غزليات الخاني كلها تتحدث عن حب شنكي. وكانوا يقولون إنه لا يسميها لكن

من سواها ألقى بقلبه في حلقة النار؟ من سوى شنكي خلب لب الشيخ الخاني ورمى به في بئر الضياع؟ كانوا يقولون ما يحلو لهم. أحياناً أقول إن والدي كان محقاً إذ أسرع بتزويجي. كان الناس قد فضحونا.

لكنني كنت سعيدة بذلك الحب. كنت في انتظار ذلك اليوم الذي يأتي فيه ويطلب يدي من والدي التاجر. كانت عيني على قصائده الغزلية، بينما عين والدي على جلود عبد الله المدبوغة. آآآه ما الذي يمكنني قوله! لقد غلبت رائحةُ الجلود المدبوغة رائحةَ الحبر فوقعت في شراك ذلك الملعون من ماكو.

والآن أيضاً يريد والدي تزويجي مرة أخرى. وكما لم يستطع قبلاً تحمل عزوبيتي فهو لا يستطيع الآن تحمل كوني أرملة. ماذا أفعل؟ بمن ألوذ أنا البائسة؟

ضائعة أنا كنقطة حبر على ثوب طالب فقه.

الحاج زهدي التاجر

لا أدري أيَّ مطر هطل يومذاك. قطرات سوداء لطخت ثوبي الجديد وجعلته كالسخام الأسود أسفل القدور. كنت قد اشتريت ثوبي ذاك من تبريز بخمسة تومانات.[5] كان ثمن الصدار وحده ثلاث تومانات. كان ذلك المطر يبدو وكأنه بلاء نازل يتعمد الهطول علي فقط. وعندما قيل لي إن كفن الشيخ أحمد لم يتبلل قط غضبت كثيراً. كان ذلك الكفن سيهترئ بعد مرور بعض الزمن في باطن الأرض. لكن ثوبي هذا! والله لقد كان جديداً. أقسم بالثلاثين جزءاً من كتاب الله أني حزنت على ثوبي كثيراً. لقد رحل الخاني عن هذه الدنيا. فهمنا هذا. لكن ما ذاك المطر الذي هطل عقب موته يا ترى!

* * *

أعمى بدليس

حينما سمعت صوت ذلك الأعمى الملعون، ضقت به ذرعاً وكدت أمزق ثوبي الجديد ذاك. لكن لم أجد من اللائق أن أفسد على الناس تشييعهم للخاني. يقيم ذلك الأعمى والمشرد البدليسي منذ

(5) التومان عملة إيرانية قديمة ما تزال مستعملة حتى اليوم. المترجم.

عشرات السنين بين ظهرانينا في بايزيد ويعيش على صدقات هذا وذاك لكنه مازال يتبجح وكأنه حفيد الأمير عبدال خان!

عندما وصلت أنا وغلامي إلى جمع المشيعين وخاطبني قائلاً: «إنك محظوظ إذ تحضر دعاء التلقين»، عرفت أنه يسخر مني. لكنني لم أرد عليه. وددت حينها لو ألكمه بين عينيه المفقوءتين لكمة تطيره إلى الميدان الأزرق في بدليس أو قمة جبل نمرود، لكنني كظمت غيظي وقلت في نفسي: «حينما تعمى الأبصارُ تسوء الأمزجة، كان الله في عونه».

إنه رجل عديم الوفاء. ولولا ذلك لعرف قيمتي واحترمني. لقد وهبته في سالف الأيام خمسين آقجة[6] أجرة شهر كامل، آقجةٌ تنطح آقجة، لأنه يُحفِّظُ أولادنا القرآن الكريم في مدرسة المرادية. كان العميان الذين بإمكانهم تحفيظ القرآن كثيرين لكن ما كان لأحد أن يضاهيه في حسن الصوت في طول بلاد الأكراد وعرضها. كان يقرأ القرآن بتجويد يأخذ بالقلوب ويجعل حتى الموتى يبكون! وفي مناسبات المولد النبوي كانت جميع العيون تدمع من رخامة صوته. كنت أشفق عليه وأقول إنه غريب بائس بعيد عن وطنه جدير بالرثاء. لكن ليت سلوكه كان حسناً كصوته.

إنني أعرفه منذ زمن بعيد، أيام كان المرحوم الخاني يطلب يد ابنتي شنكي قبل حوالي سبعة عشر عاماً. لقد بدأ منذ ذلك الحين يسيء

---

(6) الآقجة عملة عثمانية قديمة. المترجم.

التصرف معي وكأنه طلب يد ابنتي لنفسه ولم أزوجه بها!! كان يقول في كل مجلس غاضباً: «هل سيرى الحاج زهدي رجلاً أفضل من الخاني؟ لماذا لا يزوجه ابنته شنكي؟»

قلت له ذات مرة: «يا عمر هذا ليس شأنك فدعه. دع عنك هذه الترهات أفضل لك»، لكنه ركب رأسه ولم يدع مجلساً لم يتحدث فيه عن موضوع ابنتي والخاني. لم أجد مناصاً من التوجه إلى ديوان الأمير لأشكوه، وما إن أنهيت كلامي حتى مال مستشار الأمير، ميرزا صبري، على أذني وقال لي بصوت خفيض: «يا حاج زهدي! دع عمر وشأنه فأميرنا المبجل يكبره».

لم أكن أدري أن الأمير يجل عمرَ الأعمى ذلك الإجلال وإلا لما عمدت إلى إراقة ماء وجهي. لكنني إلى الآن لا أدري ماذا يحب فيه الأميرُ؟ هل الصوتَ؟ ثمة مغنون كثيرون حسنو الصوت. ها هو دوستو الأرموي يبزه في الغناء. أم العشرة الحسنة؟ كثيرون أحسن منه عشرة. إييه. لا أعرف والله.

ما كنت لأغلبه إذن، فجئته بالمداراة وقلت له: «يا عمر. انظر. جميع الطيور ومخلوقات الله تعود إلى أعشاشها ومواطنها. لقد لبثت أنت أيضاً فينا قرابة أربعين سنة لا أهل لك ولا ولد. أطعني لنعيدك إلى بدليس. من يدري لعل الموت قريب. لقد أصبحت عجوزاً وضعفت. من سيهتم بك سوى أهلك؟»

حاولت كثيراً أن أقنعه بالعودة إلى بدليس دون جدوى. ولما

أعدت على أسماعه ما أقوله له كل يوم، بكى بغتة ولم أدر كيف أطفئ النار المشتعلة تحت قِدْرِ بكائه! بعد أن مضت سويعة من الزمن هدأ قليلاً وقال: «ما بغيتك مني يا حاج زهدي؟ أنا ضرير. وسيان عندي إن كنت هنا أو هناك. فأنا أعيش في ظلام دامس أينما أقمت. ولو عدت إلى بدليس دون أن أرى قلعتها، وميدانها الأزرق، والدخان الذي يرتفع من مداخن حمّاماتها، والثلج الذي يزين أشجارها شتاء، والأقراط والخلاخيل والأساور وسائر الحلي التي تلمع على فتياتها اللواتي كالغزلان، ودون أن أرى أيضاً شمس بدليس التي تشرق من جهة مدينة وان، فلماذا أعود إليها؟ لقد حوَّل عماي كل مكان إلى ليل حالك ولا فرق إن كنت هنا أو هناك. لكن بدليس في قلبي وتصبح أكثر جمالاً يوماً بعد يوم. أراها في مرآة الخيال أنَّى كنت. إن العمى في بدليس قرين الموت يا حاج زهدي. سيان أكنت أعمى أم ميتاً. لمدينة مثل بدليس لا بد من عيون، عيوووووون» وأخذته موجة من البكاء.

* * *

كان أحمد أفندي يطلب يد ابنتي شنكي. لكنني لم أزوجه إياها وحسناً فعلت. لم يكن يملك شيئاً من المال. حتى أنه وهب نصف حصته من إرث والده المرحوم ملا إلياس لأخيه ملا قاسم وصرف

النصف الباقي على بناء مدرسة ومسجد وأنفقه على طلبة العلم. كان عدواً لرزقه وحتى عندما كان كاتب ديوان الأمير لم يأبه بمال الدنيا فلم يجمع منه شيئاً. إذن كيف أزوج ابنتي معتوهاً مثله؟ إن لم يكن الرجل ذا مال فهو لا يساوي شيئاً. وليحمل صدرُه علمَ الدنيا بأجمعها. من ذا الذي يزوج ابنته رجلاً معدوماً؟ إن الله جل جلاله يقول: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» ونحن لا نعرف أكثر من الله. لقد كان أحمد رجلاً لا يزينه مال. كان يقيم ليلاً نهاراً في قعر حجرته المظلمة الشبيهة بكهف أو وجر ذئب، منكباً مثل فأر – استغفرك ربي – على تلك الكتب والأوراق حتى طلوع الشمس. أيصبح رجل مثله زوجاً لابنة تاجر في منزلتي!! كانت أم شنكي– زوجتي الثالثة– تقول إن أحمد رجل شهم. انظروا إلى هذه البلهاء! يجب أن تظهر الشهامة في الجيوب. الشهامة الحقيقية هي رنين الذهب والآقجات والدراهم والدنانير، وليست خشخشة الأوراق وصرير الأقلام عليها.

تغزل أحمد كثيراً في قصائده بابنتي. لكن الله لَطَفَ فلم يذكرها باسمها. ولولا ذلك لكنت أريته نجوم الظهر وربما دفنته في ثلوج جبل آكري مثل مجنون سرحدان. أو كنت نفيته من هذه الديار إلى صحراء الحجاز.

ذات ليلة ذهبت إلى حجرته وقلت له: «يا ملا أحمد أنت رجل دب الشيب في نصف شعر لحيتك، فدع هذه الأشعار ولا تتحدث عن أعراض الناس». لم أكن حينها قد زوجت ابنتي من عبد الله

الماكويي لذلك كان يحترمني طمعاً في ابنتي شنكي. أشعل لي شمعة زيادة في احترامي وقال بلطف: «يا حاج زهدي أرجو ألا تغضب. لا تلق بالاً لما يقوله القوم فلست ممن يتعرض لأعراض الناس أو – حاشا – يلطخ شرف أحد. إنني شاعر والشعراء يدور على ألسنتهم ألوان الكلام. والفتاة التي أتغزل بها في قصائدي ليست فتاة بعينها بل هي من نسج خيالي. وأحياناً تكون تلك الفتاة.....». وخاض في حديث الدراويش الذي لا هم ولا غيرهم يفهمونه. يشهد الله أن كلامه وكلام مجنون من بايزيد تأخذه الجذبة أيام الأعياد كان سواء.

خلاصة القول أنني أدركت أن رائحة هذه المسألة ستفوح أكثر كلما خضت في أعماقها وسأتضرر منها. أدركت أن الصالح والطالح من أهل المدينة سيجعلون من هذه القصة مغزلاً يغزلون به صوف الأكاذيب ويصبح اسم ابنتي شنكي على كل لسان في بايزيد مما يعرض تجارتي للخطر.

أغلقت باب القضية بسبعة مفاتيح ورميتها في قاع بحيرة أورمية بحثاً عن حل.

* * *

كنت أعرف عبد الله الماكويي منذ مدة طويلة. كان دباغا يتاجر بالجلود وكانت تجارته مزدهرة وبلغت شهرة جلوده المدبوغة أسواق

تبريز ويريفان وسائر أسواق الممالك الأخرى.

حينما التقيته لأول مرة أعجبت بذكائه. كان يعرف العربية والفارسية والآذرية والكردية وحتى الروسية ويملك ثروة طائلة، خانَين للمسافرين في ماكو وأورمية، وأربعة خانات على طرق يريفان وتبريز والموصل وأصفهان ومدبغته الكبرى في تبريز. لكن لم يكن له من الأولاد الذكور سوى اثنين. ذات ليلة سامرته في قصره وكان ابناه حاضرين معنا لا يتكلمان. وعلى حين غرة قال عبد الله بصوت فيه كثير من المرارة: «أهذه قسمة يا حاج زهدي؟ من ثلاث نساء ولدان فقط! ثمة فقراء رزقهم الله ذُكراناً كثيرين». أردت أن أواسيه، فضحكت وملت عليه وقلت هامساً: «هذه حكمة الله! أنا مثلاً لم يرزقني الله حتى بذكر واحد من أربع زوجات». ثم خطرت في ذهني فكرة وقلت في نفسي لماذا لا أزوج ابنتي شنكي من عبد الله! هل سأجد أفضل منه! هكذا سأتخلص من ملا أحمد الخاني وأقاويل الناس. إن عبد الله رجل ميسور الحال ولو زوجته ابنتي فإنني سأحظى ببعض المال ولا شك وإن أنجبَت له بنيناً فإنني وأحفادي سنرث أمواله. لذلك توجهت إليه وقلت: «تعال أزوجك ابنتي». وكمن لم يصدق ما تسمعه أذناه صرخ مدهوشاً: «أصحيح ما أسمعه!!»

* * *

حالما عدت من ماكو أخبرت شنكي بالأمر وقلت: «لقد زوجتك يا ابنتي». كانت أناملها مسودة، ظننت أنها من أثر الحناء، لكنني إذ أمعنت فيها النظر أدركت أن ما على أناملها سخامٌ، ضحكت وقلت: «ما هذا يا بنيتي! لا تقولي لي إنك قد جليت القدور! فما هو عمل الخادمات إذن؟» لم تجبني لكنها بدأت تفكر بما قلت لها أولاً واضعة وجهها بين كفيها. ربما كانت تظن أنني سأزوجها من ملا أحمد، لكنني سحبت زورق خيالها من بين أمواج الأسئلة وقلت: «بعد أسبوع سترافقينني إلى ماكو. لقد زوجتك تاجراً كبيراً. إنه رجل بلغ ثراؤه أعمدةَ عرش الرحمن».

ذبل وجهها، وكادت تقول شيئاً لكنها صمتت وأسرعت إلى إبريق ماء لتغسل أناملها.

* * *

كان صداق ابنتي أحمالاً من الجلود المدبوغة بعتها خلال يومين. اشتراها كلها تاجر من خنوس بأربعين فلوران[7] ذهب. أربعون قطعة رنَّت في كفي. ذهبت إلى صراف ليفحص لي تلك القطع الذهبية ويرى أهي صحيحة أم مزيفة! عضها الصراف قطعة قطعة بأسنانه. ياللهول!! كنت أشعر وكأنه يعض قلبي. ولكن حمداً لله

(7) الفلوران، الفلوري: عملة أوربية ذهبية قديمة. المترجم

كانت كل القطع صحيحة، فأخذتها إلى البيت وألقيت بها في خابية صغيرة أخذتها إلى مدفن الخوابي. صار لدي ست عشرة خابية مليئة بالذهب، خابيةٌ لِصقَ خابية ما تزال مطمورة إلى الآن بعد أن بلغ عددها العشرين ولا يعلم أحد غيري بمكانها. وإن شاء الله فإن عددها سيصل في غضون أعوام قليلة إلى خمسة وعشرين.

ما الذي كان سيعطينيه ملا أحمد؟ حملاً من الكتب! أم عمامته وجُبَّته! أم محابره السوداء الوسخة! لقد كان رجلاً زاهداً في الدنيا. كان يجمع حوله أطفال بايزيد ويلقي عليهم دروس الفقه والنحو ولا أدري ماذا أيضاً. إنه، وبدل أن يوجههم إلى امتهان صناعات تفيدهم وتفيد أهلهم، كان يصِمُّ آذانهم بتلك العلوم التي لا طائل منها.

ما زلت إلى الآن غير نادم لأنني لم أزوجه ابنتي. إذ ما الذي ترك وراءه سوى هؤلاء النفر من طلبة الفقه وبضعة كتب سيان وجودها وعدمها. أقسم برأس الشيخ ذي الجبة الزرقاء أني كنت أفضل أن أزوج ابنتي بخالد المُخدَج على أن أزوجها بأحمد الخاني. كان خالد يقبض على الأقل بضعة قروش راتباً وكان بإمكانه دفع مهر لا بأس به.

يقولون إن الخاني لم يكن يحب المال وإنه هجا في كتابه أصحاب الأموال. ويقول في هجائه إن حب المال يجعل المرء خسيساً دنيئاً. ماذا كنت لو لم يكن لدي مال؟ لولا مالي لما كان لي ذكر بين الناس. كل من في بايزيد وما حولها يعرفني ويعرف قدري. إن قيمتي بين الناس هي بمقدار ثروتي. لا يعرفني ويحترمني الناس في بايزيد وحدها،

بل في ماكو وخوي وموش وبدليس وألشكرد ووان أيضاً ويعرفني التجار حتى في يريفان. ولو تبعت مثله علوم الكتب لكنت اليوم أهمهم لتلاميذ وطلبة الفقه في زاوية مسجد منتظراً إحسان الأغنياء.

ها نحن رأينا أن مشيعيه لم يتجاوزوا الثلاثين رجلاً وهم جميعاً من معارفه وتلامذته. يقولون إن المشيعين كانوا بالمئات وأن بايزيد فرغت من ساكنيها يوم موته. لقد حضرت الدفن. وليكن عدد من حضروه مائة وخمسون. نعم مائة وخمسون ولا أكثر من ذلك. أما صهري عبد الله عندما رحل، فقد خرج أهل ماكو وما حولها عن بكرة أبيهم ليشيعوا جثمانه حتى باب القبر. حتى أن أمراء العجم حضروا من تبريز. مائة قارئ تناوبوا على تلاوة القرآن على روحه. وطوال أسبوع كانت الفاتحة تقرأ على روحه عقب كل صلاة في المساجد. لقد ترك وراءه مالاً وفيراً وُزع منه الكثير على الفقراء على مدى أربعين يوماً بعد وفاته.

ومن أحمال الجلود المدبوغة التي بعتها إلى التاجر الخنوسي فقط تم تجليد عشرات النسخ من الكتب والقرآن الشريف. صنعت عشرات الأحذية من تلك الجلود. ويقال إن جلود أغلفة نسخ مم و زين هي أيضاً من جلود المرحوم صهري عبد الله الماكويي. أما طبول سرحدان التي ترقص الفتيات والشباب على إيقاعاتها فهي أيضاً من تلك الجلود. ودفوف دراويش الطريقة القادرية التي يذكرون بها الله حتى منتصف الليل، هي أيضاً من تلك الجلود.

لكن ملا أحمد لم يستفد شيئاً من حياته ورحل. لم يترك شيئاً. اسمه وشهرته سيزولان من الدنيا خلال يومين. وما الفائدة حتى لو بقيت شهرته بعد موته؟ ستهترئ عظامه في باطن القبر فما الذي ستفعله الكتب له؟ لقد رحل بلا عقب ولن تحل الأوراق والكتب محل أولاد يرثون اسم المرء. إن الحرق مآلُ تلك الكتب، وفي أفضل الأحوال ستتعفن في حجرة شيخ أو طالب علم وتتلف.

أما أصدقاؤه فقد كانوا من أمثال تيمور الفاسق وشمسو القوال اليزيدي وهذا الأعمى البدليسي الملعون. أما شمسو والأعمى فقصتهما معروفة. لكن تيمور!! إنه ابن مريم الكُرْجية التي خطفها أحد التركمان القره قوينليين من بلدة آزوف على ساحل البحر الأسود وباعها لأحد الآغوات المحموديين. كان عمر تيمور حينها بضع سنوات. وبعد أن استمتع بها ذلك الآغا طويلاً باعها بدوره. وهكذا بيعت واشتريت عشرات المرات. نويت أنا أيضاً شراءها ذات مرة لكنها ما كانت لتترك ولدها تيمور الذي كان اسمه الحقيقي شوتا.

تيمور الفاسق، هذا الصعلوكُ النجسُ تاركُ الصلاة الذي تفوح منه على الدوام رائحة الخمر النتنة ولو كان على بعد ألف ذراع، كان يذهب إلى حجرة المرحوم ويسهر لديه إلى أن ينفد الزيت من السراج! كيف إذن كنت سأزوج ابنتي من ملا أحمد. ها؟

بُهاري

حينما سمعت بوفاة ملا أحمد، كنت متجهاً إلى حانوت صلاح الدين الوراق. كان كتابي (مجنون بايزيد) في يدي وأريد أن ينسخه صلاح الدين لأوزعه وأبيعه. إذ كان الناس يتخاطفون ذلك الكتاب ولم تبق منه ولو نسخة واحدة.

ومع أنني كنت أغذ السير إلا أن سليم النعال أوقفني وقال:

– خيراً يا بهاري أفندي؟ ما بك تسرع هكذا وكأن حماراً داس خصيتيك! ألم تسمع أن الشيخ أحمد قد توفي؟

توقفت مثل حصان يصلحون نعله. في الحقيقة سررت كثيراً وابتسمت في وجه النعال الذي أخبرني حزيناً بوفاة أحمد الخاني ثم توجه ليُركِّب حدوة بغل هناك. لكنني سرعان ما أدركت أن السرور لموت أحد غير مقبول البتة، فتجهمت وتعمدت إظهار الحزن وصرت أتأوه منطلقاً بسرعة إلى بايزيد العليا حيث كان من المفروض أن يتم دفن الخاني. كانت السماء مغطاة بغيوم كالمخمل الأسود وكأنها حزينة هي أيضاً. تبللت من مفرق رأسي إلى أخمص قدمي في الطريق إلى المقبرة. كنت مرتدياً صداراً شيرازياً أبيض وما إن وصلت إلى مكان الدفن حتى صار صداري منقطاً مثل دعسوقة. إي والله!! كان مطر أسود يهطل، وزعم الناس أن ذلك من كرامات الشيخ المتوفي. كانوا يقولون إن حبراً يهطل من السماء. كنت من جهة أضيق ذرعاً

بما يدعون، ومن جهة أخرى أضحك من عقول الناس. هل رأى أحد حبراً يهطل من السماء!! يا رجل لم يهطل الحبر حتى يوم توفي الفردوسي!

لقد كان ذلك اليوم بارداً وكان الجميع قد أشعلوا النار في المواقد وكانت أعمدة الدخان الأسود ترتفع من كل بيت. فسرت الأمر على أنه من أثر ذلك الدخان الذي بلغ عنان السماء ودخل بين الغيوم مما جعل لون المطر أسود. لكن من ذا الذي كان سيصدقني في ذلك الجمع!

* * *

قصتي مع الخاني

كنت أكتب باللغة التركية على مدى أعوام عديدة. لكن لم يعرني أحد اهتماماً لا في بايزيد ولا في محيطها. لم أكن أريد نظم القوافي باللغة الكردية، لاعتقادي أنه إذا لم يكن أحد يهتم بالنظم التركي فمن باب أولى ألا يلتفت أحد إلى الأشعار الكردية. كنت أظن أنني سأصبح شاعراً مثل شكري البدليسي صاحب «سليمنامه» وأحظى بمكانة رفيعة في قصور الصدور العظام وشيوخ الإسلام وحتى في مجالس السلطان المعظم في الآستانة. لكن الدهر قلب لي ظهر المجن.

وعندما شاهدت أن خاني ينظم قصائده باللغة الكردية، استهزأت به في سري وقلت: «انظروا إلى هذا المجنون! من ذا الذي سيشتري قماشه الرث هذا؟ من ذا الذي سيشرب بكأسه النحاسية ماءه العكر؟» لكنني رأيت الناس يلتفون حوله يوماً بعد يوم، فازداد عدد مريديه وطلابه. أدركت أن في الأمر سراً كامناً ما عدا كتابته باللغة الكردية. ولقد كشفت الغطاء عن ذلك السر!

لقد تبرم أهل بايزيد من غدو الجنود الأتراك ورواحهم على أرضهم. تبرموا من دفع الضرائب والعشور والمكوس وأصبحوا يكرهون الدم المراق من أجل طرفي الحرب الترك والعجم. وكان ملا أحمد قد اكتشف وتر المحنة فصار يعزف لهم أغنية المظلومية وسوء الحظ ما جمع حوله الكثيرين.

كنت قد تعرفت عليه منذ فترة طويلة وعرفت أنه رجلٌ صاحب علم غزير ومعرفة جمة. تقربت إليه رويداً رويداً وبدأت أقرأ له قصائدي المنظومة في مدح السلاطين والباشوات. كان يحدثني في البداية عن لغة قصائدي ويقول إن علي أن أضيف هذا وأحذف ذاك. ثم بدأ يتعرض إلى مضامينها ويقول: «تجنب شعر المديح فإنه يبقى– مهما علت سويته – بلا طعم».

ثم قال لي ذات مساء ونحن متوجهين إلى حجرته في المدرسة: «إلى متى ستكتب بلسان الترك يا بهاري! ولمن تكتب يا أخي! أزل الصدأ عن نحاسك فذاك أفضل لك من ذهب الآخرين. فوالله لن

يصل صوتك إلى الآستانة. وحتى لو وصل فلن يسمع له أحد». قلت له ببرود: «إن اللغة التركية لغة جميلة. وتنسجم مع كتابة قصائد سلسة. ألم تقرأ شعر يونس أَمْراهْ وفُضولي؟» رد علي بصوت مرتفع وكأنه احتد قليلاً: «يا أخي لقد قرأت شعر باقي وذاتي أيضاً. لكن ثق بلغتك الكردية وكن وفياً مع أمك. أَوَ لم تكن هدهداتها حينما كنت في المهد بلغتك الكردية؟ ملاعبة والدك لك إذ كنت طفلاً، ألم تكن بالكردية؟ لهوك في الليالي المقمرة وتحت ظلال الأشجار في الربيع والخريف ألم يكن بالكردية؟ أو لم تعشق فتاة؟ ألم تتغزل بها ولو ببضع كلمات كردية؟ حرامٌ! والله حرام أن ننظر إلى هذه اللغة على أنها قاصرٌ. يكفيها يتمها يا رجل».

منذ ذلك المساء، وكأن وحياً هبط علي من السماء، أصغيت إلى قوله ورسخته في قلبي، أدرت ظهري لذهب الترك ويممت وجهي شطر نحاس الأكراد.

والحق إن الكتابة بالكردية كانت صعبةً علي وممتعة في الآن ذاته. بذلت كل جهدي أن أسخر إمكاناتي ومهارتي وكل طاقتي في سبيل صقل لغتي. لم تكن قصائدي الأولى قوية السبك، بل كانت تشبه أرغفة خبز غير ناضجة. ومع ذلك كان الخاني يشجعني على الاستمرار ويقول: «اكتب ولا تحد عن هذا السبيل. سيأتي يوم تندم فيه على قصائدك التركية. بمجرد أن تتذوق طعم اللغة الكردية ستعرف لماذا أصر عليك من أجل الكتابة بها».

* * *

حينما بلغ الخاني بقصته مم و زين إلى النهاية، دعاني إليه وقرأ لي مقاطع منها. كنت فاغراً فمي من الدهشة بينما هو يحدق في عيني. أنا على يقين أنه كان يقرأ الحسد الملتمع في عيني أيضاً، فما كنت لأستطيع إخفاء جمرات الحسد المتقدة في رماد عيني الاثنتين. كنت، كلما أتى على قراءة عدة أبيات، أبلع ريقي وألتزم الصمت. وحينما أنهى القراءة وسألني عن رأيي بما قرأه، كنت قد ملئت غيظاً وكانت أنفاسي تتقاصر لكنني تظاهرت بالإعجاب به وقلت: «إنك لست أقل شأناً من الشاعر الملقب بسلطان الشعراء باقي، لكن....». وقطعت جملتي بضحكة مزيفة.

تلك الليلة كانت نيران الحسد تنهشني من الداخل. كنت أتداعى مثل أطلال أصابها مطر شديد. كنت أذوب مثل ثلج أشرقت عليها الشمس أو قطعة سمن على صفيح مسجور، ورأيت نفسي مثل ذرة صغيرة في ضوء قامته وقوة كلماته.

كان يقرأ فصولاً من قصته الشعرية في ديوان الأمير ولم ينهها بعد. كان يمد في ليالي الشتاء الطويلة، عشقَ مم ولواعجَ حبيبته زين، كبساط أصفهاني في مجلس أمير سرحدان، المرحوم ميرزا. لكن تناهى إلى سمعي أن الأمير كان يغادر المجلس في منتصف السهرة ويترك الخاني

وقصته متوجهاً إلى حجرة نومه. لقد فعل ذلك عشرات المرات مبدياً عدم اهتمامه، حتى ترك الخاني قراءة القصة كسير القلب واعتزل الناس في حجرته ولم يغادرها سبعة أيام بلياليها، فلم يؤم الناس في الصلاة ولم يقرأ الخطبة. لكن الأمير لم يعره بالاً ولم يطيب خاطره ولو بكلمتين. ايه! ما الذي يفعله أمير في مقام الأمير ميرزا بيك البسياني بقصة مثل مم و زين؟

لكن الناس تلقفوا قصته وانتشر خبرها كالنار في هشيم الحرمل. نسخها الملالي وطلبة الفقه وقرؤوها. كانت قصائده أيضاً تنسخ بتلك الكثرة. ازداد حسدي له ولم أكن أستطيع الوصول حتى إلى غبار قوافيه العذبة. لم أكن أستطيع أن أكتب مثله بسلاسةٍ وسلامةِ لغةٍ. كنت أحياناً أتمنى أن أذهب إليه وأخنقه ذات ليلة ليلاءٍ دون أن يشعر أحد. لقد غلبتني شهرته وكنت أمامه كطائر مهيض الجناح مكسور القوائم!

* * *

ذات مرة دعاني الخاني كما العادة إليه، ليقرأ لي صفحات من قصته الشعرية «مجنون سَرْحَدَان». كان ذلك ذات مساء صيفي. كان البدر يسرح شعره الفضي ويرسله خصلة خصلة على جبل آكري وما حوله وكنت أتوجه في ذلك المساء المقمر إلى حجرة الخاني كئيباً.

صحيح أنني كنت متوجهاً إليه، لكنني كنت كمن يبتلع لقمة مغموسة بالحنظل. كانت شهرة مم وزين قد دفعتني إلى حافة الجنون. كدت أنفجر وأوشكت على أن أرش النفط على الشمعة المشتعلة عند رأسه لأحرقه مع كتبه التي في حجرته. كنت أعرف أن أحداً لا يستطيع ردم ينابيع الشعر في قلبه سوى الموت. وكانت قصائده، كلما تقدم به العمر، تزداد طلاوة وعمقاً. وقد أوشك فتيان بايزيد وفتياتها على جعل قصته الشعرية تميمة يعلقونها في رقابهم. وكان الدراويش يتلون قصائده حتى تأخذهم الجذبة ويسكرون بها.

كنت قد نظمت للتو قصيدة غزل وتوجهت في سبيل أن يقيّمها إلى حجرته التي كانت تعبق دائماً بشذى رائحة الدارصيني والحبر. وحينما دلفنا الحجرة أنا وحسدي، رأيت ضوء سراجه خافتاً. كان زيته قد نقص وفتيلته قد اسودت وباتت بحاجة لتبديلها. كنت أعرف أنه سيقول: إنني حينما أكتب لا أحتاج إلى سراج. فقد أخبرني عدة مرات أنه يكتب قصائده في ضوء الحبر وليس في ضوء البدر.

حينما أحس بي واقفاً في الباب، رفع الفتيلة قليلاً فملأ ضوءٌ خافتٌ الحجرةَ وبان وجهه بلحيته البلقاء. ألقيت عليه السلام بأدب جَمٍّ ثم جلست بجانبه حيث كان يحمل ورقاتٍ في يده. وقبل أن أقرأ له قصيدتي الغزلية وقعت عيناي على ما سطره يراعه على الصفحات. انتبه هو أيضاً إلى نظراتي التي كانت تحط كغربان سوداء على ثلج أوراقه، تنقر الكلمات التي نثرها خياله كحبات حنطة.

بضحكة خفيفة سقَت بساتين الهموم في وجهه قال: «سأقرأ لك نتفاً من قصتي الشعرية الجديدة إن اتسع صدرك لذلك».

ألقت صفصافةُ الحزن في وجهه بظلالها على وجهي وروحي أيضاً ونثرت أوراقها، فقلت: «اقرأ فإني أصغي». وبدأ الخاني يقرأ فصولاً من قصته «مجنون سرحدان».

كانت أبيات القصة ومصاريعها، تنزل على أرض خيالي القاحل كرذاذ المطر. وكان الليل يتكثف مثل صمغ أسود رويداً رويداً ويلصق قراطيس خيالي بعضها ببعض. انبثقت في دماغي فكرة جهنمية وسألت نفسي: «لماذا لا أكتب أنا هذه القصة؟»

لست أدري كيف ودعته. بغتة وجدت نفسي في غرفتي منكباً على ورقاتي البيضاء الباردة أكتب بقلم من القصب الأسمر الداكن. تلك الليلة كتبت ما يقرب من مئة صحيفة. كنت أريد أن ألقي بثقلي كله في تلك القصة الشعرية وأنهيها في أقرب يوم. وفي الحقيقة فقد أنهيتها بعد ثلاثة أشهر. وكتبت البيت الأخير منها هكذا:

مئة شكر لله أن بُهاري وجد
ختم القصة دون عون أحد

*   *   *

خلاصة قصة مجنون سرحدان

إن خلاصة قصة مجنون سرحدان التي حوَّرتُها إلى «مجنون بايزيد»، تروي أنه كان هناك فتىً من بايزيد اسمه إبراهيم الزيلاني من آغوات عشيرة زيلان. كان يصطاف مع عشيرته كل سنة في الجبال ويقيم لبضعة أشهر في يريفان. وهناك وقع في غرام ابنة تاجر أرمني، اسمها مريم. ولأن والدها كان تاجراً كبيراً يتاجر بالقرمز حتى بلاد الفرنجة، فقد كانت ابنته مريم تخلط الحناء الذي تضعه على شعرها بالقرمز وعرفت لهذا باسم «مريم ذات الجديلة الحمراء». وقد امتدت قصة حب إبراهيم ومريم ذات الجديلة الحمراء لسنوات طويلة. لكن والد مريم ما كان ليزوج ابنته من إبراهيم. وفي نهاية الأمر أرسلها والدها سراً إلى رهبان دير أشميازين ولم يعد لها أثر بعد ذلك.

لم يبق مكان لم يبحث فيه إبراهيم الزيلاني عن حبيبته مريم. مدينة مدينة، وادياً وادياً، سهلاً سهلاً، ومضارب إثر مضارب بحث عنها دون جدوى. حتى أنه كان يذهب إلى القوافل مقتفياً أثر حبه، إلى أن انقطعت أخباره ذات يوم وظن أهل بايزيد أنه قضى نحبه في البراري. بيد أنه عاد أخيراً في هيئة أحد الدراويش، ليعرف منذئذ باسم مجنون سرحدان. إلا أنه كان يختفي لفترة ويقطع أهله أمل العثور عليه، ليظهر فجأة في المدينة. وعندما كان الناس يسألونه: «أين كنت يا إبراهيم؟» كان يجيب: «كنت بين ثلوج جبل آكري»، وإذ يسألونه:

«وماذا كنت تفعل هناك؟» يرد قائلاً: «كنت أطفئ نيران قلبي» ثم يصيح: «لكنها لا تنطفئ. لا تنطفئ. لا ثلج جبل آكري ولا ثلوج جبل قاف وألف جبل مثله لو امتزجت بمياه نهر آراس بقادرة على إطفاء لهيب عشق مريم»، ثم يعمد إلى ثوبه فيمزقه.

في نهاية المطاف، شاهد أحد الرعاة من عشيرة دلخيريان جثته في الثلج على سفح جبل آكري. كانت يده ما تزال تقبض على خصلة شعر مصبوغة بالقرمز. حمله ذلك الراعي ورفاقه على ظهر حمار وأتوا به المدينة، ولما غسله إمام المسجد الكبير لم يقدر على سحب تلك الخصلة من يده. فاضطر إلى دفنه مع خصلة الشعر القرمزية تلك. وقد زعم بعض أهل بايزيد أن الجن أتوا بتلك الخصلة ووضعوها في يده. بينما قال بعض آخر بل جاءت مريم ذاتها إليه ما دفع أهلها إلى قتلها وقتل إبراهيم معاً، فأخذوا جثة ابنتهم وتركوا جثة إبراهيمنا لذئاب الجبل.

كنت قد سمعت هذه القصة سابقاً من أفواه الكثيرين، لكن لم يخطر ببالي أبداً أن أدون أحداثها. وحينما رأيت أحمد الخاني ينوي كتابتها، عرفت أنه سيجني شهرة كبيرة من ورائها وسيعلو نجمه أكثر وأكثر، فبادرت إلى سحب البساط من تحت قدميه والبدء بكتابة تلك القصة شعراً.

* * *

ذات مرة سألني طالب فقه قائلاً: «إن نظمك للقصة رائعٌ. لكنها قصة سبقت شهرتها بين الناس». كان أمثال طالب الفقه ذاك يشعرونني بالغثيان. لكنني ما كنت لأجيبهم وأريحهم بقولي: «صحيح إنها قصة متداولة سابقاً»، بل كنت أقول: «إنها ابنة خيالي ونتاج قلبي الذي كتبته بالدموع وبنجيع القلب لا بمداد المحابر».

الخاني بذاته، من أين أتى بقصة مم وزين؟ ألا يقول في مطلع كل فصل: قال الراوي هكذا؟ يعني أن ثمة من نقل له الحكاية لينسجها هو بخياله. أليست حالتي نفس تلك الحالة!؟

إنه يعيد القول مراراً «إنه لم يسرق من كرم أحد عنباً» لكنه لم يبدع القصة من العدم. وليس هو من أبدع مم وزين بل كانت القصة مشهورة في بلاد بوطان يتناقلها الرواة والمغنون شفاهاً ونقلها الخاني عن أحد هؤلاء.

لقد نلت شهرة كبيرة بقصة «مجنون بايزيد». صار الناس يشيرون إلي في الأسواق والأفراح والمجالس بأيديهم. حتى أنني حظيت في مجلس الأمير بمنزلة خاصة وكنت الأقرب إليه في المجلس.

الشيء الوحيد الذي كان يضايقني هو أن الخاني ترفع عن التحدث إلي بشأن ذلك الموضوع أو شكايتي لأحد ما. كنت أضيق ذرعاً بذلك. كنت قد سرقته لكنه ما كان ليبحث الأمر غير عابئ بي على الإطلاق. كان قد قرأ ما كتبته لكنه لم يخبر أحداً بأنه كان يزمع كتابة

تلك القصة شعراً. ربما حدَّث بعضهم لكنني لم أسمع بذلك. ها هو قد مات وترك ذلك حسرة في قلبي.

*　　*　　*

سر مطر الحبر

قبل وفاته بمدة، تناهى إلى سمعي أن الخاني على وشك كتابة قصة شعرية جديدة. كان قد عرف طباعي وصار يحترز مني. ولم يكن يقرأ لي قصائده الجديدة إلا بعد أن ينسخها فيتناقلها الناس ويتداولونها فيما بينهم ويترنمون بها.

وذات مساء ذهبت إليه ممنياً النفس بأن تقع عيناي على ما سطره من تلك القصة الشعرية الجديدة. كان وحيداً حزيناً. وحالما وقعت عيناه علي، طوى أوراقه ووضعها تحت بساط من فرو الكبش كان يفترشه. لمحت عيناي محبرتَه الجميلة. منذ زمن بعيد كنت أشتهي الحصول على تلك المحبرة الزجاج المليئة بمداد يقوم هو نفسه بإعداده. كان ماهراً في صنع الحبر الأسود. وقد ظننت أن عذوبة كلمات قصائده نابعة من جودة حبره. وجدت الفرصة مواتية ذلك المساء لأستولي على حبره. وما إن ولّاني ظهره، حتى خطفت الدواة بخفة لص بدوي ووضعتها في جيبي. كان الخاني واقفاً أمام كوة يسحب كتاب كلستان لسعدي

الشيرازي فلم ينتبه لسرقتي، لكنه إذ التفت إلي صبَّ على وجهي حبر سؤال مرعب قائلاً: «قد يكون الحبر الذي كتب به الشيرازيُّ كتابَ كلستان، قليلَ الجودة، لكنه أبدع في النظم. أليس كذلك؟»

ظننت أنه رآني أسرق، حاولت أن أقول شيئاً لكنه لم يدع لي مجالاً للجواب وقال: «أما أنا، فإن الألم حبري».

وجاء فجلس جواري وقال لي: «هات أقرأ لك بعضاً من مواعظ هذا الكتاب!» لكنني، وبذريعة أمر عاجل، طلبت الإذن بالمغادرة وخرجت من عنده دون أن أعرف ما الذي كان سيكتبه.

* * *

كان الحبر يهطل في أحلامي

حينما دفن الخاني وبدأ الشيخ سيف الدين يقرأ دعاء التلقين، كنت واقفاً بعيداً أنظر في كتابي ليظن الناس أنني أقرأ القرآن على روح المرجوم. لكن مع صرخة تيمور الفاسق وقوله إن حبراً يهطل من السماء، انسل إلى قلبي خوف سبعة لصوص وكاد يُقضى علي فَزعاً، خاصة وأن ملا صالح الجزري كان قد جاء إلي وخوفني من المطر ثم غادرني متجهم الوجه.

كنت أخاف أن يكون خاني قد أخبر أحداً قبل موته بقارورة حبره

المسروقة! فقد كنت أرى أحلاماً سوداء معتمة وكأن ذاك الحبر سال على مخيلتي وصبغ أحلامي باللون الأسود. كان ماءٌ أسود يسيل من فمي. حاولت كثيراً بالمضمضة والغسل أن أتخلص منه لكن دون جدوى. ذهبت كل محاولاتي أدراج الرياح. أخيراً تسلقت صخرة شاهقة فوق مدرسة المرادية وضربت تلك المحبرة بحجر. سال الحبر دافقاً. ومع أن رائحة المسك كانت تفوح منه، فقد شعرت بالغثيان ثم تقيأت حبراً أسود. لم أكن أجرؤ أن أقص هذه الحادثة لأحد. ومن كان سيصدقني لو رويتها؟ ولو صدقوني لكان في ذلك فضيحتي. أردت الذهاب إلى الطبيب الأرمني زُهْراب لكنني خفت من انكشاف سري. استسلمت للأمر أخيراً ورضيت بحالتي متحملاً قيء الحبر الأسود الذي كنت ألفظه بين حين وآخر. وإلى الآن مازال طعم الحبر تحت لساني. إنه حبرٌ محنةٌ ابتليت به، طعمه مثل طعم مرارة فرخ دجاج إذ تنفجر فتصيب الكبد. كان حبراً مسحوراً لم أكتب به شيئاً ذا قيمة ولا أستطيع الفكاك من أسره والتطهر من دَرَنه.

مُلّا فريد

حبر الندم لا يجف

كان المطر الأسود الذي يهطل على كفن أحمد الخاني، يتحول إلى بخار فيبقى الكفن جافاً لا يتبلل.

كنا قد أخرجنا نعشه تواً من المسجد حينما لمحت أن البلل لا يصيب كفنه. لكنني لم أخبر أحداً بذلك. كما أنني كنت قد لمحت، قبل أن يصرخ تيمور الفاسق ويقول إن حبراً يهطل، لونَ المطر الداكن. كنت أعرف أن هذا ليس مطراً إذ لم أرَ في حياتي كلها مطراً يشبه ما هطل ذلك اليوم. وحينما همس ميرزا صبري، مستشار الأمير، في أذني قائلاً: «إن الكفن لا يتبلل» كدت أبصق في وجهه لكن حرقة جمرات البكاء في صدري منعتني من ذلك.

قبل موت الخاني بخمسة عشر أو عشرين يوماً وربما أكثر، ذهبنا إلى حجرة الخاني، أنا وميرزا صبري وذاك الملثم الذي حفر قبر الخاني، وادعى ميرزا صبري أنه أحد أقربائه من بلدة أخلاط ولم أر وجهه إلى الآن. ما كنت سأرضى بالذهاب لكن ذلك كان قرار الأمير وكنا نحن مبعوثيه. وقد حاول ميرزا صبري أن يهون علي فزعم أن الأمر لن يطول بنا هناك، بل أنه سيطرح عدة أسئلة على الخاني ثم نعود بعدها. لكن ليتني مت ولم أذهب معهما. لقد أصبحت شريكهما

في هذه الجريمة الفظيعة. لو كنت أعرف ما الذي سيقولانه للخاني نقلاً عن لسان الأمير لما ذهبت بأي حال من الأحوال. لكنني ذهبت وحثوت ذلك التراب على رأسي.

كنا ما نزال في الطريق حينما خاطبني ميرزا صبري قائلاً: «ما حكم الشرع في من يبرئ إبليس الملعون من ذنوبه؟»

قلت دون تفكير: «إنه مثل اليزيديين كافر بلا شك».

انفرجت أسارير ميرزا صبري، فسارع إلى طرح سؤال آخر: «وفيمن يسيء الأدب في حق نبي الأمة؟»

قلت دون تفكير مرة أخرى: «عمن تتحدث يا رجل؟ لا يوجد فينا أحد هكذا. حتى الروافض والقزلباش[8] والمسيحيون واليزيديون لا يفعلون ذلك!»

ابتسم وقال في خبثِ صياد يريد دفع طائر حجل إلى قفص، متسائلاً: «وإذا رأى هذا أن الزنا حلال؟»

كان الملثم صامتاً، لكن عفريتاً مختفياً كان يتحدث في عينيه. انسل خوف مجهول إلى قلبي. قلت للمرة الثالثة دون أن أفكر: «من تتحدث عنه إما زان أو مرتد».

وما إن رأى ميرزا صبري أن قدمي العمياوين تنزلقان إلى شباك خدعته، حتى طرح سؤاله الأخير كمن يرمي حفنة ملح على صفيح

(8) القزلباش: أصل الكلمة تركي وتعني ذو القبعة الحمراء. وقد أطلق العثمانيون الأتراك هذا الاسم على الصفويين الشيعة. المترجم

محمي وقال: «وإن كان هذا الرجل، فوق ما ذكرت لك من مخازيه، يسيء إلى الأمير ويهجوه وينتقده؟»

هنا بدأت أفكر وبدأ ملح سؤاله يطقطق على صفيح ظنوني وشبهاتي المشتعلة كنار في هشيم خيالي. في تلك اللحظة، أدركت أنهما ينويان شراً، وعرفت أن كل أسئلته كانت عن شخص الخاني. ولكن يقيناً ما كنت أعرف أنني سأصبح عوناً لهما في جريمتهما البشعة. لم أكن أخال أن الأمر يتعلق بالقتل. وأغلب الظن أنهما سمماه. لكن الظن لا يصبح يقيناً ما لم يكن ثمة دليل. حتى لو جئت بدليل فمن سيسمعني؟ ذاك الملثم، قريب ميرزا صبري، بات مختفياً عن الأنظار. كل شبهاتي تحوم حوله. تحديقاته تلك الليلة في الخاني كانت أكثر حدة من خناجر حشاشي قلعة ألَموت السابقين. لم أر وجهه، لكن نظراته وابتسامات ميرزا صبري بطرف الفم، كانت تشي بأنهما ينويان قتل الخاني. لكنني شريكهما. نعم أنا شريكهما بصمتي.

*   *   *

بيان عصيان إبليس الملعون واستحقاقه اللعنة

سرعان ما ندمت على أجوبتي. لكن زمن الندم كان قد ولّى مع ضحكة ميرزا صبري على فمه الشيطاني ذي الشفتين الرقيقتين.

أأنا أجانب الصواب لو قلت إن الذنب ذنب المرحوم الشيخ؟ لا والله. فلقد كان الذنب ذنبه. سامحه الله فلا أحد يفعل فعلته! الأمة المحمدية كلها تقول إن إبليس الملعون خرج عن طاعة الله معلناً العصيان. وهكذا فقد استحق نار جهنم واللعنة الأبدية. كيف إذن يتحدث المرحوم في كتابه عن براءة إبليس وطاعته ودوامه على عبادة رب العالمين. أيجوز لامرئ عاقل أن يقول عن إبليس الخائب: «إبليس المسكين البريء!!»

والله وبالله لقد كنت أحب الخاني، وأنا لم أكن قطرةِ في بحر علومه. لكن نص كتاب الله تعالى، القرآن عظيم الشأن، يقول عن إبليس الملعون: «وَأَنَّ عليك لعنتي إلى يوم الدين» ولقد كنا نحن ملالي بايزيد وطلبة العلم فيها قد انتبهنا إلى ما كتبه الخاني عن إبليس، لكن مقامه العلمي العالي وهيبته ومنزلته بين ناس هذه الولايات ما كان ليجيز لنا أن نناظره. قام بعض منا وذهبوا لمجادلته لكنه أقنعهم بآرائه، أي أنه أخرجهم عن جادة الصواب. كان عالماً نحريراً ولم نكن نقدر عليه.

لقد حصلت على إجازتي العلمية منه. وهو الذي درسني الفقهَ، وكان متبحراً في فقه المذاهب الأربعة ولم يكن هناك سؤال لا يستطيع الإجابة عليه. لكن لا أدري كيف خلص إلى براءة إبليس؟

* * *

معراج نبي الأمة قبل هجرته الشريفة ودعوى الخاني

قبل عدة سنوات كنت متجهاً إلى أرضروم. وفي أحد الخانات على الطريق صادفت ملا من مدينة قارص. وما إن عرف أنني من بايزيد حتى جاء إلي وبادرني بالسؤال عن الخاني. حدثته بما أعرفه من صلاحه وتقواه وأردفت: «إنه من علماء عصره». أغمض الملا القارصي عينيه نصف إغماضة، مشط لحيته بأصابع يده اليمنى وسأل: «هل العلم في بايزيد بإساءة الأدب؟» ودون أن يدع لي مجال الجواب، عقب: «لو كان هذا الخاني، الذي هو عالم حسب قولك، يحمل في صدره ذرة من العلم لكان متأدباً مع اسم النبي عليه السلام محترماً مقامه».

شلّني هذا الكلام وبقيت أنظر مدهوشاً إلى الملا في انتظار أن يبين لي سبب اعتراضه على الخاني. ولما رآني مبهوتاً مشلولاً مثل فأر وقف قطٌّ على رأسه، اقترب مني حتى رأيت أثر المسك تحت عمامته المدورة البيضاء. لمعت عيناه المكحولتان في ضوء السراج الباهت، ثم وضع يده بحنان أبوي على كتفي وقال: «أقرأت كتابه؟»

ظننت أنه يقصد قاموس نُوبُهار أو عقيدة الإيمان[9]، فقلت: «نعم قرأت الكتابين».

---

(9) نوبهار وعقيدة الإيمان: كتابان ألفهما أحمد الخاني، الأول قاموس عربي كردي شعري والثاني منظومة شعرية في العقيدة الإسلامية. المترجم

أدرك أنني أسأت الفهم، رفع يده عن كتفي وعاد فمشط شعر لحيته، ثم أخرج عود سِواكٍ من جيب سترته المخططة واستاك به عدة مرات، ثم قال: «أنا أقصد كتابه مم وزين. هل قرأته؟»

لم أكن قد قرأت مم وزين حتى ذلك الوقت. كنت قد استمعت إلى فصول ومقاطع من كتابه مم وزين عن حب مم لأخت أمير جزيرة بوطان، وقرأت حين كنت طالب فقه بعض غزلياته التي كتبها عن ابنة التاجر الحاج زهدي. لكن بعد ذلك الحديث بيني وبين الملا من قارص، في تلك الليلة الدهماء في خان يقع بين بايزيد وأرضروم، انتبهت إلى مقدمة مم وزين.

كان ذاك الملا من قارص يمسك بياقة خيالي ويجرني إليه وحينما رآني لا أحير جواباً، جمع مسبحته الكهرمان ذات المئة حبة في كفه وقال: «ابن بلدك هذا الخاني البايزيدي، يشير – أستغفر الله – على نبي الأمة ويطلب منه أن يعرج إلى السماء من جديد ويجادل الله في أمور كثيرة. أي أنه لا يقبل قصة المعراج المعهودة. يا لهذه الجسارة والوقاحة! من أنت يا هذا حتى تقول لمحمد عليه الصلاة والسلام: «قم سريعاً إلى السماء وتكلم مع الله وسله لم فعلت كذا ولَم لم تفعل كذا!! ألا يوجد فيكم من يلقمه حجراً؟» ورمى مسبحته في حضني محتداً.

في تلك الليلة لم أدر كيف أجيب على كلمات ذلك الملا المحتد الغاضب من أحمد الخاني. كان يقول أشياء غريبة، فالخاني حسب

قوله، كان قد أصبح مرتداً وكافراً مارقاً على الدين واستحق بذلك قطع رقبته بسيف الشريعة!! أنا بنفسي، وحينما كنت أقيس أقوال الخاني بنص القرآن الكريم وصحاح الحديث، توصلت إلى تلك القناعة أيضاً. أيجوز لأحد أن يأمر نبي الأمة ويطالبه برحلة معراج جديدة ليجادل فيها رب العالمين؟ لقد جرى المعراج الشريف وانتهى وأمر الله في تلك الليلة المقدسة رسوله الأكرم بما أمر.

صحيح أن الخاني كان متبحراً في العلوم، لكن الشريعة بينة في ظاهرها، وما من أحد عرف كنه الباطن إلى الآن.

بعد عودتي إلى بايزيد، ذهبت لا ألوي على شيء إلى صلاح الدين الوراق واشتريت نسخة من مم وزين حتى دون أن أساومه على السعر. وحينما قرأت مقدمة الكتاب، عقدت الدهشة لساني. كان الخاني قد نظم أبياتاً كثيرة تتحدث عن عظمة الله سبحانه وتمدح الرسول، لكنه تحدث عن إبليس الملعون بكلمات تخرجه من الدين وتفتح أمامه أبواب جهنم على مصاريعها. أيوجد بين المسلمين– دع عنك علماءهم– رجل يدافع عن إبليس؟ الله الله كيف استطاع أن يلفظ بكلمات الكفر تلك!

أما في حديثه عن المعراج فقد طالب الخاني نبينا بأن يعاتب الله!! وحاشا لله! أنى لمخلوق أن يعاتب الله تعالى!

أمعنت الفكر في الفصل الذي يتحدث فيه الخاني عن زواج «تاجدين وستي». والله لقد كان ما كتبه عنهما، الفاحشةَ بعينها!

ساء خلقا من رجل في مقامه أن يتحدث عن الجماع واتصال الرجل بالمرأة. وفوق هذا يصف تفاصيل الإيلاج و .... والله إن لساني لا يطاوعني في التحدث عما كتبه.

أما حين يتحدث عن الحب ولقاء مم بالأميرة زين، فإنه يجمعهما ويجري بينهما من الحركات ما يشعر المرء بأن مم كاد يجامع زين!! لقد سمح الخاني بالمداعبة بينهما حتى السرة وجعل ذلك مباحاً! أليس بمثل هذه القباحات تفسد أخلاق شبابنا وفتياتنا ويزول حجاب الحياء في الأمة! إنه يقول للناشئة اذهبوا واجتمعوا و......لا حول ولا!!!!!.

منذ ذلك الحين، ابتعدت عن الخاني لكنني لم أفقد احترامي وتقديري له. فقد كان رجلاً لا مثيل له. وندر أن ترى عالماً في سويته بين الأكراد يرأف بحال الناس ويهتم لهم ويدع علمه كله في خدمة الناشئة. لقد بنى مدرسة من ماله الخاص وأحضر إليها الطلاب من كل ركن وزاوية.

* * *

اجتماع في حجرة الخاني

كانت ريح باردة تهب في الخارج. دخلنا ثلاثتنا، أنا وميرزا صبري وقريبه الملثم، حجرة الخاني ونحن ملتحفون بعباءاتنا الفرو.

نهض الخاني ورحب بنا. كانت المرملة ما تزال في يده يريد تجفيف حبر حديث يلمع على قراطيسه. أنا سلمت عليه لكن رفيقي دخلا بوجهين كالحين وجلسا دون أن يأذن لهما الخاني بالجلوس. أحس الخاني بأن زيارتنا ليست زيارة خير، فاربدَّ وجهه المصفر وقال: «خيراً! تبدون وكأنكم جئتم تطالبونني بديونكم».

ثم جلس بهدوء ووضع مرملته جانباً. نفخ عدة مرات في الرمل المنثور على الورقات ثم نقر بإصبعه على ما تبقى من حبات الرمل ونظر إلينا صامتاً. كنت أشعر بخجل شديد. نعم، لقد كنت أعرف أنه تجاوز في مم وزين كثيراً من الحدود وأن ذنبه عظيم، لكن الموضوع قديم! وحتى في الشريعة فإن بعض الذنوب تسقط بالتقادم وربما تاب الرجل! هل شق أحد صدره ونظر في قلبه؟ لماذا يثير هؤلاء الموضوع الآن؟ لولا طلب الأمير عبد الفتاح لما ذهبت معهما إلى ذلك اللقاء. فلقد تمنيت وقتها لو أن الأرض تنشق وتبتلعني. كنت أخجل من رفع عيني والنظر إلى الخاني.

تصنع ميرزا صبري السعال عدة مرات وكأنه يصفي صوته، ثم قال للخاني بجسارة خالية من الحياء: «لقد غضب عليك الأمير بسبب أفاعيلك!»

بهت الخاني. بقي صامتاً برهة ثم عمد إلى إشعال شمعة جديدة بالشمعة التي كانت على وشك الانتهاء وقال: «لماذا؟ مالذي حصل؟ هل ذبحتُ حمام الحرم المكي؟»

ثم ذهب ليضع ورقاته بجانب المرملة، وعاد إلى مجلسه.

انطفأ الشمع في بيتي أيضاً

أقسم بذات الله العظيم، لقد انطفأت الشمعة في بيتي أيضاً ثلاث مرات. كان الناس يقولون إن السراج انطفأ ثلاث مرات عند رأس الخاني ليلة وفاته، وحدث الأمر نفسه في كل بيت من بيوت بايزيد. كذلك فقد انطفأت القناديل والشموع المتقدة في المساجد استقبالاً لشهر رمضان، ثلاث مرات. أوَ كان الله سيمنحه هذه الكرامات لو لم يكن الخاني ذاتاً عظيمة!؟

المرملة التي رأيناها في يد الخاني تلك الليلة، كانت هدية من حاكمنا الراحل الأمير ميرزا بيك البسياني. كانت قد أتته من كاشان في بلاد فارس. ولم يهدها الأمير إلا للخاني. فأمراؤنا الأسخياء وذوو القلوب الكبيرة، لا يحرمون أحداً من برهم وإحسانهم. لكن هناك أناساً عديمو وفاء وناكروا جميل لا يستحقون بأي وجه من الوجوه كرم وسخاء الأمراء، وكان الخاني أحدهم. فمع أن أمراء بايزيد أحسنوا إليه حتى أنه صار كاتب ديوان لدى بعضهم، إلا أنه هجا في كتابه أميرنا السابق الأمير ميرزا بيك وقال في حقه:

إنه بدوي الأصل والنسب
لا يهتم بالعلم والأدب

يا لهذا الظلم والتجني!! متى كان ميرزا بيك بدوياً يا ناس؟ كيف طاوعته قريحته فاختلق هذه الأكذوبة التي لا أصل لها؟ مضى هباءً إذن كل ذلك الإحسان الذي قدمه أمراؤنا له. لقد نال أميرنا الحالي عبد الفتاح ذو القدر العالي، وأميرنا السابق أيضاً، الإمارة بالوراثة أباً عن جد، وهم أوتاد خيمة العدالة وأصل الجود والكرم والإحسان والمروءة، يتحقق بهم وجودنا ولولاهم فإننا عدم. فكيف جرت على

لسان الخاني تلك التجنيات، وكيف تجرأ أن يكتب بدل المديح ذلك الهجاء الذي لا سبب له؟ لقد ألف كتاباً! وماذا يعني أن يؤلف كتاباً؟ هل فتح قلعة فيينا أم ملك الدنيا؟ كان يدعو الأمراء إلى تقدير فنه ويعتبر كتابه منةً على الناس. لكن كيف كان لذلك الكتاب المليء بالفاحشة والهرطقة أن يحظى بالتقدير في عين الأمراء؟

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنه لا يذكر منذ حوالي ستة أشهر لا اسم الأمير ولا اسم السلطان المعظم في خطب الجمعة، ولا ينفك يفسد عقول الناس البسطاء ويؤجج نار عداوة إخوتنا الأتراك على المنابر. إنه غاضب لأنه لم يعد كاتب ديوان الأمير. يا أخي أتظن أنك وحدك الذي تعرف اللغة الفارسية! هناك من هم أمهر منك وأكثر تدبيراً، مثل بُهاري، الذي سيصبح بإذن الله كاتب الديوان. فلتنشغل أنت بعملك واكتب القصص والوقائع وتحدث فيها- والعياذ بالله - عن الفسق والفجور. ما لك ولديوان الأكابر والأمراء!

* * *

كانت النسخ الأولى من مم وزين خالية من تلك الإهانة. لكننا فوجئنا في الآونة الأخيرة ببعض النسخ، يتداولها الناس وتتضمن ذلك البيت الذي يفصح عن نكران الجميل عند الخاني. متى كان أمراء بايزيد بدواً؟ إنهم حضريون منذ سالف الأزمان وحتى عهد

شَهْسُوار البسياني ولا يعرفون ما هي البداوة أصلاً.

حينما سمع الأمير بالإهانة الواردة في كتاب الخاني بحق أخيه ميرزا بيك، لم يأبه بالأمر وغض الطرف عنه ولم يرد أن يثير القضية من جديد. كان الأمير ما يزال يكن الاحترام لشخص الخاني حتى تداول الناس ذلك البيت وصار على كل لسان، وأصبحوا يقولون علناً إن الخاني لا يذكر في خطبته اسم الأمير ولا اسم السلطان. حينها غضب أميرنا الفريد أشد الغضب ولم يذق طعم النوم حتى الصباح. وبقي مطرق الرأس متجهماً صامتاً وكان محقاً في ذلك، فلو كنت في مقامه لعمدت إلى قطع رأس الخاني ودحرجته على جلد ثور. لكن الأمير لعلو همته ورحابة صدره، سألني بعيون مغمضة من القهر: «ما هذا يا ميرزا صبري؟ بم نرد على ناكر الجميل هذا؟ ماذا نفعل به؟»

أجبته قائلاً: «مولاي دعنا نتحقق منه أولاً. فإن اعترف وأقر على أنه كتب ذلك البيت المهين، وبقي مصراً على عدم ذكر اسم جنابكم وجناب السلطان المعظم، فسنفعل ما تأمرنا به».

أرسلنا إليه ذات مرة الشيخ سيف الدين ذا الجبة الزرقاء، فلم ينكر فعلته. لم يكتف بعدم إنكارها بل رفع عقيرته على الشيخ سيف الدين وذكر أميرنا المبجل بكلمات قاسية جارحة. عندها قلت للأمير: «مولاي الأمير. لقد أساء الخاني الأدب معك. وعدم الدعاء للسلطان جريمة بحد ذاتها. أنا أرى الحياة حراماً عليه. وإن لم يعاقب فإنه سيطغى ولا يستبعد أن يقول – حاشاك– إن الأمير لا يليق بعرش

إمارة بايزيد! أنت تعرف يا مولاي الأمير أن له مريدين وأتباعاً كثيرين ويستطيعون إثارة القلاقل في بايزيد وتحريض العامة على سموك ليأتوا بابن المرحوم الأمير محمد إلى سدة الحكم ويثيروا أمواج الفتنة في بحر الإمارة الهادئ».

أطرق أميرنا الهمام مفكراً، ثم رفع رأسه، مسح شاربيه المسدلين على فمه ودون أن يفتح عينيه قال: «يا ميرزا صبري! إنك تعلم أنه كان لدي ضيفان قبل مدة. أحدهما من قارص والآخر من قبل باشا وان، ذكر الضيفان مسألة عدم ذكر اسم السلطان وسألا: «من هو هذا الخاني حتى يمتنع عن الدعاء للخليفة!؟ إنه يغير الشريعة وبدل أن يقول في خطبه: أيها المسلمون، يقول: أيها الأكراد! هذا مروق على الدين وتحريض للعامة على ولي أمر المسلمين». كان الاثنان قد قرآ كتاب الخاني وعرفا عصبيته القبلية بدلاً عن العصبية الدينية. لقد طلبا مني أن أتدارك الأمر وأقطع لسان الخاني. باختصار، عليه أن يخرج من بايزيد أو .....».

لم أدعْ أميرَنا العطوف ينهي كلامه بل قلت له كمن يبشره بالخير: «مولاي الأمير! أمهلني وسأنهي لك الموضوع في بضعة أسابيع».

انفرجت أسارير وجه أميرنا الذي جعله الخاني بأفعاله حزيناً مهموماً، وبدت مثل روضة ورد. ضرب بيده المباركة على ظهري بأبوة وقال: «اذهب. أنت ومعرفتك، فاحتل للأمر».

في الواقع كانت أفاعيل الخاني قد خرجت عن الحد. ما الذي دهاه حتى يقول: «فليتحد الأكراد ليصبح لهم الفرس والترك غلماناً وخدماً». يا لهذا الأمر العجب!! فنحن خدم الترك، وشوكتنا وافتخارنا وعزتنا بهم، وهم الذين نرتع في ظلال عدلهم. إنهم حماة الدين والدولة ولولا عساكر سلاطين آل عثمان، لجرفَنا القزلباش بأقدامهم. لقد هجا الفُرْسَ ولا بأس في ذلك، فهم أعداء مذهبنا، لكن لماذا يهجو الترك؟ ألا تُعيِّن معاشات الملالي ورجال الدين والمشايخ بالفرمان السلطاني؟ ألا يعيّن أمراؤنا بالهمايون الشريف؟ أليست رقابنا نحن رقاباً ذليلة محنية أمام سيف عدل السلطان؟ ألا يأمرنا نص الكتاب العزيز وحديث نبي الأمة بالخضوع لولي الأمر؟ والله لقد بالغ الخاني! فهو لا يدعو في خطب الجمعة لخليفة المسلمين! ما هي الزندقة والكفر إذا لم تكن هذه الأفاعيل؟

لقد وقعت نسخة من كتابه في يد باشا وان، وحاكم تبريز أيضاً على علم بما فيه. كان الاثنان يهددان أميرنا النبيه. كانا قد بعثا إليه رسوليهما وقالا: «إن هذا الشيخ المدعو أحمد الخاني رجل خطير وكتابه أفعى سوداء يتداولها الناس، وحفظاً لأمن الدولة العلية

العثمانية والمملكة الصفوية يجب الفصل في أمره». أما باشا وان فقد هدد حتى بإزالة إمارة بايزيد ما لم يتم إسكات الخاني.

لا أدري من أين جاء الخاني بتلك الأفكار الشيطانية؟ إن خواص الأكراد وعوامهم راضون بحالهم وقانعون بحظهم ونصيبهم، فما الحاجة لهذا القال والقيل الفارغ الذي لا طائل من ورائه!؟

* * *

كان الخاني زاهداً في الدنيا ويريد أن يكون الناس كلهم على شاكلته. ولأجل ذلك تحرش بأمرائنا، فهجا في كتابه الإمارة والأمراء. وقال إن الأمراء جهلة يتخذون بطانتهم من المفسدين الأشرار. حتى أنه وصف الحاكم بالسموم والنيران! أي أنه أساء الأدب في حق أمرائنا أنى سنحت له الفرصة.

كما كان في مجالسه يتحدث عن الجور والظلم، فيقول إن دولة الظلم لا تدوم، وكأن أمراءنا العادلين المنصفين، ظلمة متجبرون وقاطعو رؤوس! كنا نعرف من يقصده الخاني بكلامه، لكننا أرخينا له الحبل وأخذناه بالحلم والأناة. غير أن للحلم أيضاً حدود.

وحينما رأيت أن خاطر أميرنا ذي النسب الرفيع قد تكدر، زاد في قلبي الحنق على الخاني الوقح عديم الأدب. أردت أن أغمد خنجراً في صدره تلك الليلة وأحمل رأسه على طبق فضة وأضعه أمام جناب الأمير

عبد الفتاح بيك. لكنني كنت أعرف أن ذاك الأمير رقيق القلب، رفيع الشعور ولن يقبل ذلك. لذلك أردت البحث عن خطة للقضاء على الخاني. وجئت إلى البيت برجل خطاط وكيميائي مشهور بمهارته في تدبير موت الأعداء والخصوم في السر والخفاء. حكيت له عن الخاني وعدم رضا الأمير العادل عن أفاعيله وكتاباته. كان ذاك الرجل يعرف تركيب جميع أنواع السموم وأراد تركيب السم السليماني لتدبير موت الخاني، لكنه طلب مقابل ذلك عشر فلورانات ذهبية. أعطيته ثلاث عشرة قطعة وقلت: «إن سارت الأمور كما نشتهي، سأكملها عشرين فلوران». ولكي لا يلفت الأنظار صرت أقدمه للناس على أنه أحد أقربائي وكنت أخاطبه «يا ابن العم» وأخفيت وجهه المليء بآثار ضربات الخناجر بلثام وقلت له: «إن سألك أحد من الناس ما هذا اللثام؟ فقل إن سني تؤلمني».

* * *

خطة الكيميائي الملثم

ناكر الجميل، أحمد الخاني، كان داهية. وما كان يطعن في الأمير والأتراك لجهله! لا، لكنه كان حكيماً مفوهاً فاق حتى نفسه. وكانت خطورته تنبع من قوة حجته فبات من الضروري تكميم فمه.

ولما ذهبنا إليه تلك الليلة، كاد يحيد بنا عن جادة الصواب لقوة برهانه وسلامة منطقه! ما كنا لنغلبه نحن الثلاثة، أنا والملثم وملا فريد، مجتمعين.

أثرنا موضوع إبليس عليه اللعنة، فأسكتنا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الفطاحل والمتصوفة. وحين حدثناه عن معراج النبي عليه السلام، فتح في وجهنا أبواب عالم عجيب غريب وأغلق أبواب أفواهنا. وحينما ناقشناه في مسألة الدعاء للخليفة، قال على الفور: «لا الأحاديث ولا آيات القرآن الكريم تدعو إلى ذلك. والدعاء للخليفة ليس من أركان الخطبة. من كان يدعو في زمن الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي للخليفة؟ أما كانوا هم أنفسهم خطباء على المنابر؟»

كلما جادلناه في مسألة، أخرج من جرابه علماً من العلوم وتركنا مشدوهين لا نحير جواباً. أما أنا فعلمي قليل، لذلك أرسل أميرنا، وردي القلب، ملا فريد معي. لكن ملا فريد المتذبذب المتردد ما كان ليأتي وقال: «والله إنني لأستحي من الشيخ الخاني». يا للعجب! لماذا لا يستحي الخاني وهو يطعن الناس يميناً وشمالاً؟ لماذا لا يستحي وهو يعاتب ذات الله سبحانه وتعالى؟ لماذا لا يستحي ويصور اتصال الرجل بالمرأة في كتابه مم وزين؟

وبالمختصر فقد أخرجْنا ملا فريد من داره مثل حية من جحرها بأمر أميرنا المعظم وأخذناه معنا. لكنه لم يظهر أمام الخاني أي معرفة.

سكت وبدا كمن لا يعرف الكلام وكأن رجب الخياط قد خاط فمه بخيوط ثخينة، أو كأن سليم النعال وضع حدوة على فمه! وحتى وإن تكلم فإنه كان يأتي بكلمة من المشرق وأخرى من المغرب مثل السكارى.

وعندما أدركت أن ملا فريد لا يقدر على إيقاف الخاني عند حده، قلت أنا للخاني: «إن سمو الأمير مستاء جداً من أفاعيلك هذه المناقضة للإسلام وسنة نبيه، فإما أن تأتي إلى ديوان الأمير المعظم لتعلن براءتك مما ينسب إليك وتطلب العفو منه أو يصدر الأمير القدير فرماناً وربما نفاك إلى الأناضول. كما عليك أن تتوقف منذ الآن عن التدريس وإلقاء خطب الجمعة. وإن لم يكن بإمكانك ترك الخطب، فعليك بالدعاء للأمير والخليفة فيها».

وحينما كنت أقول له هذا الكلام، كنت مدركاً أن الخاني لن يقبل بالحضور إلى مجلس أميرنا العاقل الهمام ليطلب براءته. لأنه كان قد ترك حضور مجلس الأمير منذ مدة، كأن قدميه محناة. سعيت كثيراً لكي أغيظه وأثير غضبه فأطلع على مكامن قلبه ونياته الخفية، إذ بدون إثارة للرماد لن يشاهد المرءُ الجمرَ الكامن تحته، لكنه كان يجيبني دائماً بلطف ولم يكشف لنا تلك الليلة عن باطنه الأسود.

خرج مرة لقضاء الحاجة، فأسرع الملثم وبدل زيت سراجه بزيت كان يخفيه تحت إبطه وعاد ليجلس كما كان. لم ينتبه ملا فريد للأمر فقد كان يطالع كتاباً ما، أما أنا فأدركت أن السم قد أصبح في حجرة الخاني.

في طريق العودة، قال لنا الكيميائي الملثم: «السم أيضاً زيت جيد!»

لم يفهم ملا فريد جملته لأنه كان غارقاً في التفكير وربما لم يسمع شيئاً. بعد ذلك انحنى عليّ الملثم، وضع فمه على أذني وهمس قائلاً: «بعد أسبوع، وربما بعد خمسة عشر يوماً، وعلى أبعد تقدير بعد شهر سينتهي أمر رجلكم العنيد. وبإذن الله سيقرأ الناس الفاتحة عليه دون أن يدري هو أيضاً ماذا حصل. وإن لم يمت بالزيت فسيموت بالحبر، ولن يمتد به العمر ليرى هلال رمضان».

* * *

انطفاء الشموع

واعجباه، واعجباه!! جميع الناس في بايزيد يقولون إن الشموع انطفأت في كل بيت ثلاث مرات ليلة وفاة الخاني! يا ناس يا هو. لقد كانت ليلة عاصفة ماطرة وكانت الشموع تنطفئ بمجرد أن تفتح الأبواب. ما هي الشموع حتى تستطيع مقاومة ريح نهاية الخريف؟! لقد كنت تلك الليلة في ديوان الأمير وكان يستعد لرحلة الصيد، وأقسم بذات الله تعالى أن الشموع انطفأت عشرات المرات، لدرجة أن الغلمان لم يقدروا على مواصلة إشعال الشمع بالشمع. حتى أن

أميرنا ذا النسب العالي، ضحك وقال: «ما هذه الليلة! تبدو الريح وكأن لها ثأراً عند الشموع».

المغني دوستو الأرموي

كنت على طريق التلة الخضراء حينما أدركني حفيدي شيرْبَكْ وأمسك بلجام فرسي منقطع الأنفاس قائلاً: «لقد توفي الشيخ أحمد الخاني يا جدي!»

كنت على علم بمرضه. لكن لم يخطر على قلبي قط أنه سيموت. لقد كان قويَّ البنية سليمها فما الذي دهاه حتى وقع فريسة ذلك المرض الغادر فجأة؟

لقد زرته مرات عديدة خلال مرضه الشديد ذاك. كنت أود أن أغني له لكنه كان قد عاف سماع الأغاني. كان بين لحظة وأخرى يقوم واضعاً يده على بطنه ويذهب للخلاء. وفي أيامه الأخيرة كان يشكو قلة النوم وانقطعت شهيته لكل شيء. وأحياناً كان يتصبب عرقاً يبلل حتى عمامته فيبدو أثر العرق على جبينه مثل ندى الأسحارعلى أوراق الورد. كان ينزع عمامته مضطراً فيبدو رأسه، الذي ما عرف موسى الحلاقة منذ أيام، كحقل قمح عقب المطر الأول.

لم أكن أعرف أنه سيرحل إلى ديار الرحمة، وإلا كنت سأبقى بجانبه حتى لحظة وفاته لأسمع منه كلماته الأخيرة. لا أدري هل كتب قصة

دِمْدِمْ الشعرية[10] أم لا؟ كان المرحوم، بعد أن استمع مرات عديدة إلى مأساة القلعة والأمير ذي الكف الذهبية، قد وعدني أن يكتب هذه الملحمة الحزينة على نمط قصته الشعرية مم وزين.

* * *

سنة خُنق السلطان إبراهيم على يد قره علي في اسطمبول، جئنا أنا وأبي وأمي الجلالية منيجة وجدتي لنسكن في بايزيد. آنذاك كنت في الثانية أو الثالثة من عمري وما كانت أم الخاني قد ولدته بعد.

كان أبي ميرخان، المغني صاحب الصوت الذهبي، ينشد ملاحم الحروب وقصص الحب في مجالس آغوات أخوالي الجلاليين. ما زلت أتذكر، عندما كنت في التاسعة أو العاشرة من العمر، أبي وهو يعتدل في جلسته، يضع يده على أذنه ويصدح بملحمة دمدم فترتج الأرض والسماء أماسي الربيع والصيف. كان جميع من في المجلس يبقون صامتين وكأنهم يصطادون الحجل، ولو ألقى أحدهم ريشة قطاة على الأرض لسمعت صوتها.

ما كان أحد ليضاهي والدي في الغناء. حتى أن عمر الروزكي الأعمى ما كان يبلغ كعبه. ففي ليلة من ليالي السمر أراد أحد آغوات

(10) دمدم: ملحمة بطولية تتحدث عن حرب قامت بين الشاه عباس الصفوي والأمير ميرخان الكردي في عام 1608م. المترجم

بلدة ديادين أن يمتحن صوتيهما. أما عمر فقد غنى ملحمة ممى آلان وأثار بذلك إعجاب الحاضرين. سُرَّ عمر بمديح الناس له فهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال ثم حكَّ أذنه عدة مرات. كان أبي في مكانه مثل شلال يريد أن يهوي ولم يعد يطيق انتظار إشارة البدء من الآغا. وبمجرد أن حصل على الإذن بالغناء، هدر مثل رعود نيسان وترنم بأغنية دمدم. ارتج المجلس. ولأول مرة رأيت دموع الرجال تلمع تلك الليلة في ضوء المصابيح. كان الجميع في انتظار حكم الآغا. بدا وكأن الأمر لا يهم والدي، فملأ غليونه تبغاً بينما نحن نرمقه هو وعمر الأعمى والآغا. لكن الآغا لم يدعنا ننتظر طويلاً، قام من مجلسه وحمل جمرة من تحت ركوة القهوة ثم وضعها على غليون أبي وقال: «لقد أثرت شجوننا وأحرقت قلوبنا مثلما تحرق هذه الجمرة التبغ. والله لولا الحياء لذرفت الدموع يا رجل».

ثم التفت إلى عمر الأعمى وقال له: «يا عمر إن صوتك عذب جداً والله. لكن المقامات التي يغنيها ميرخان رائعة».

منذ ذلك اليوم، أقلع عمر عن الغناء في حضرة أبي. وصار إذا طلب أحدهم الغناء منه في مجلس، يخفض رأسه ويتساءل متخوفاً: «هل ميرخان هنا».

* * *

كثيرون، إذ يعرفون أنني ادعى دوستو، يسألونني: «لكأن اسمك فارسي!! من أين لك هذا الاسم؟» حتى أن المرحوم الخاني سألني ذات مساء: «يا عم دوستو! أوالداك سمياك بهذا الاسم؟»

* * *

اسمي دوستو. لا أبي ولا أمي منحاني هذا الاسم. بل هي جدتي ذات الكبد الحرَّى التي سمتني هكذا. كان اسم ابنها دوستو، أي أنه كان اسم عمي. وحسب ما روته لي فقد كان عمي شاباً بطلاً مغواراً من شجعان قلعة دمدم. وحسب قولها، كان كالذئب المتوحد. وقبل أن يهجم الشاه عباس بقواته على القلعة ويخربها ويعمل السيف في رقاب قبيلة المُكريين، كان عمي دوستو قد عشق فتاة من القلعة اسمها سينم وأراد أن يخطفها بعد نزاع مع أبناء عمها. ثم امتد النزاع بينه وبينهم إلى أن قتل ثلاثة منهم. كان ابن عم سينم الأكبر يدعى شيركو يريد الزواج منها، ولما حصل ما حصل أقسم أن يقتل دوستو حتى لو وجده متعلقاً بأستار الكعبة أو قائماً يصلي.

كانت جدتي تروي أنها وجدي المريض هربا من القلعة بعد مقتل

أبناء عم سينم الثلاثة واختفاء ابنها خوفاً من الانتقام وتوجها صوب الشمال حتى صادفا ابنهما دوستو. أما جدي، فقد مات من البرد بعد أن زرع طفلاً في رحم جدتي ذات الخمسة والأربعين عاماً.

كانت جدتي تضحك كلما روت هذه الواقعة وتقول: «ياحَمَلي! أترى أيَّ رجل كان جدك! زرع ولده في بطن عجوز مثلي ورحل».

*　*　*

حينما هجم الفرس على القلعة، ودع عمي دوستو أمه وتوجه إلى القلعة منضماً إلى قوات الخان ذي الكف الذهبية ليحارب العجم.

وفي أتون إحدى المعارك التقى شيركو، أكبر أبناء عم سينم وشقيق المقتولين الثلاثة، بعمي دوستو وهو في حالة يرثى لها. كان أحد حملة الرماح من جيش العدو قد حاصر عمي في مكان ضيق يريد قتله. لكن شيركو وبسبب غيرته وتعصبه القبلي نسي الماضي ودافع عن عمي دوستو وسقط دونه قتيلاً. ثم قُتِل عمي أيضاً بطعنة رمح من ذلك الفارس الأعجمي وسقط هو الآخر عن صهوة فرسه مضرجاً بدمائه.

كانت جدتي تروي هذه القصة بصوت ملفع بالمرارة ونشيج بكاء وكأن الفارسين قضيا نحبهما أمامها.

أخبرتني جدتي من ثم أن المدافعين عن القلعة أعدموا عن بكرة أبيهم، فذهبت إلى ساحة المعركة ورأت عمي دوستو وشيركو جثتين متعانقتين. فزعت وخافت أن يكون أحدهما قتل الآخر، لكن عجوزاً من عشيرة برادوست من بقية السيف أخبرها أن الاثنين قضيا بطعنات رمح أحد المهاجمين العجم.

* * *

بعد مقتل الآلاف من المدافعين عن القلعة وهزيمة ميرخان ذي الكف الذهبية، الذي سماه القزلباش الظالمون ميرخان الأشلّ، بدأ الشاه مذبحة عظيمة. فدعا الخانات والأمراء وأعوان المُكريين إليه قريباً من قلعة كاودول وقتلهم في سرادقه عن بكرة أبيهم. في تلك الأيام ولد أبي فسمته جدتي باسم ميرخان. كانت تريد أن تسميه دوستو لكنها خافت من أن تكون عاقبته كعاقبة أخيه فأسمته ميرخان وعرف بين المُكريين بلقب ميرخان ابن العجوز.

كانت جدتي الثكلى قد عادت إلى القلعة، فوسمت قبر ابنها ورسمت على شاهدته وشاهدة قبر شيركو، صورة خنجر. كانت تروي لي باكية وتقول: «يا حَمَلي! بحثت طويلاً عن قبر سينم فلم أر أثره. كنت أريد حفر صورة مشط ومكحلة على شاهدة قبرها، ولكن آه من هؤلاء القزلباش الوحوش! حتى نساؤنا الميتات لم يسلمن

من عهرهم وفسقهم. سينتقم الله لنا. لقد كان الشاه عباس ظالماً يا ولدي. كان أحد ظلمة زمانه، حتى أن أولاده لم ينجوا من ظلمه وجوره. قتل أحد أبنائه وسمل أعين اثنين. كان نغلاً عديم الايمان جعل من أصفهان بيت دعارة كبيراً. وكانت الآلاف من الأرمنيات والجورجيات يمشين كاشفات الرؤوس في الشوارع. لكن بناتنا لم يستسلمن لهؤلاء الأرذال الفجرة أحياء. بل ألقين بأنفسهن من فوق أسوار القلعة إلى الوديان السحيقة، وبعضهن تجرعن السم، أما الأخريات فقتلن أنفسهن بسيوف وخناجر إخوتهن وآبائهن الصرعى. ما الذي أرويه لك بعد يا ولدي!! فليقِ الله ذئاب الجبال من الذي جرى للمكريين».

من بين كل تلك القصص والوقائع التي كانت ترويها لي جدتي في ليالي شتاء بايزيد الباردة، حادثة سحقت قلبي. كنت أترنم بها للمرحوم الخاني كثيراً حينما نبقى وحدنا في حجرته. كنت أسرح معها وأغمض عيني ولا أفتحهما حتى أنتهي منها فأرى لحية الخاني وقد اخضلت بالدموع. حتى أنه ما كان يستطيع التكلم من البكاء، بل يضع وجهه الشاحب بين كفيه ويهتز كورقة شجرة دُلْبٍ في الخريف.

* * *

ما كان أحد يسيء إلى السبايا كالعجم. فالفارس الذي يسبي امرأة، إما يستعبدها في بيته ويجعلها جارية له أو يبيعها إلى القوادين الأصفهانيين الذين كانوا يمشون مع الجند إلى الحروب فيشترون السبايا ويأخذونهن للعمل في مواخير مدينة شاه عباس. وإذا كانت المرأة سنية فإن محنتها أعظم، إذ كان الجنود يتخاطفونها وهم بعد في ميدان القتال ويزنون بها واحداً إثر الآخر.

وقعت كردية حامل أسيرة بعد مذبحة زعماء المُكريين في قلعة كاودول قرب مدينة مراغة. ومع أنها لا تعرف الفارسية فقد أدركت من حركة آسرها أنه سيبيعها هي وابنتها وجنينها للقوادين. فكرت المرأة أن ترجو آسرها وتقبّل يديه ورجليه لئلا يبيعها، لكنها كانت تعرف أن ذلك لن يؤثر فيه. فعمدت إلى خنجر وقتلت به ابنتها ثم ذبحت نفسها. وهذه الحادثة مشهورة بين عشائر المكريين وهم يفتخرون بها ويقولون: «إذا كانت هذه نساؤنا فما بالك بالرجال!»

لم تسمح جدتي أن يتزوج أبي مادام الشاه عباس على قيد الحياة. فقد كانت تخشى الحروب، وكان الشاه يفتح القلاع ويجرف الممالك أمامه. وفي السنة التي مات فيها وزعت جدتي الحلوى بين أبناء عشيرتنا وطلبت لابنها ميرخان يد فتاة جلالية، أصبحت أمي.

كانت جدتي قد نيفت على الثمانين، لكن الحريق في كبدها ما

يزال غضاً فتياً وما كانت قد نسيت ابنها دوستو، وعندما ولدتُ بعد إقامتنا في بايزيد، أطلقت عليّ اسم ابنها القتيل. كانت تقول وهي تعاني سكرات الموت وتلفظ أنفاسها الأخيرة: «خذوني إلى القلعة. خذوني إلى القلعة. وادفنوني بجانب ولدي دوستو».

* * *

قبل أن يرحل الخاني ببضعة أشهر، دعاني إلى حجرته في المسجد وطلب مني أن أعيد عليه ملحمة دمدم وقصة مذبحة زعماء المكريين. رأيته يكتب على أوراقه أشياء ويطلق زفرات عميقة ويقول: «انظر إلى قدرنا! يفعل الفرس بنا هناك ما يفعله الترك بنا هنا! وحينما يتقابل جيشاهما للحرب، نذهب نحن ضحايا تحت سنابك خيلهما. ألست محقاً بدعوتي إلى وجود سلطان أو شاه منا يحررنا من ربقة هؤلاء اللئام؟ إنهم لا يفهمونني يا عم دوستو. إنهم يقولون ما لنا وللسلطنة ويدعون أن الدولة لا تليق بالكرد يا عم دوستو! حمير حمير. إنهم حمير من نسل حمير حاشاك».

كان الخاني يزمع على كتابة ملحمة قلعة دِمْدِم لكن موته المفاجئ قطع عليه عزمه ذاك. لا أدري إن كان قد كتَب شيئاً أم لا! كان ملا إسماعيل بايزيدي كاتم أسراره، فربما عرف هو شيئاً.

رجب الخياط

إلى اسطمبول

كان ذلك ذات صيف. وكانت حبيبتي، التي كنت أطارحها الغرام واجتمعت بها عشرات المرات في عنابر التبن، قد تزوجت. كانوا قد زوجوها وأرسلوها إلى مكان قصي لا تمتد إليه يدي حتى في الأحلام. فاحترق قلبي وتحطم وذاب مثل سمن لفحته شمس الظهيرة في القيظ وسال على صخرة صبري وسكينتي. كان قلبي المذاب قد ملَّ من بايزيد وعافها، فأزمعت على الرحيل إلى مكان ينفض فيه قلبي العشقَ عن نفسه مثل طائر خارج من الماء.

توجهت في حَمَّارة القيظ إلى حجرة طبيب القلوب الكسيرة، الراحل أحمد الخاني. ناولته جُبَّتَه التي قصَّرتُها له قليلاً وقلت: «سيدي! إنني عازم على السفر إلى الآستانة».

حدق في عيني وقال كمن لا يصدق: «الآستانة مرة واحدة!! قل سأذهب إلى وان، أرضروم، إسعرد، قارص، يريفان وخوي. قل إنك ستذهب إلى تبريز. لكن الآستانة!! أتظنها قريبة إلى هذا الحد؟ أتعرف كم من الفراسخ تبعد عنا؟ إنها أبعد حتى من بغداد».

قلت له، أنا الذي عقدت العزم على السفر منذ شهور: «يا مولاي، أعرف والله أنها بعيدة، وأبعد من أصفهان أيضاً وربما تبعد

عنا مسافة شهرين أو ثلاثة. لن أذهب بطريق البحر خوف القراصنة الروس الذين أخشاهم أكثر من موج البحر وعواصفه. بل سأذهب مع القافلة، ويقال إن الطريق طويلة يلزمها مال كثير، لكنها أكثر أماناً من طريق البحر. سأذهب يا مولاي. فما عدت أطيق هنا صبراً. وحضرتك تعرف أنني رجل لا أهل لي سوى هذه الإبر والخيوط. وأنا فقير في سن الزواج ومهنتي لا تكفي مؤونتي. والله تعالى يقول إن أرضي واسعة «فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه».

ذبل وجه الخاني قليلاً، وبان عليه الحزن ثم قال لي: «انظر يا رجب! هذه هي اسطمبول! مدينة عظيمة جداً وتبلع الناس. لقد ضاع فيها من هو أذكى منك وأكثر ثقة بنفسه. فلتنتبه لنفسك هناك يا ابن أخي».

أجبته واثقاً من نفسي معجباً بها: «سيدي والله إنني أعرف أنها عظيمة. أصلاً عظمتها تجذبني إليها. أنا مضطر، فدتك روحي!»

حمل الخاني جبته ووضعها جانباً، أطرق برهة ثم قال: «يا رجب! نحن على هذا البعد لم نسلم من أذى الترك وفتنهم، وها أنت تتوجه إلى بلادهم! ألا تعرف أن المرء كلما ابتعد عنهم، اقترب من الله؟»

لكنه بعد أن قرأ سطور الإصرار في عيني، وضع يده على كتفي وقال: «أنت أدرى! لكن إياك أن تنسى نفسك مهما حصل لك. لا تنس هذا السهل وهذا الجبل واذكرهما دائماً. اعلم أنك ابن هذه البقعة».

كنت قد كسبت من عملي في الخياطة بعض المال، ونفحني الخاني المرحوم عدداً من الآقجات جمعها لأجلي من معارفه، فأعطيت بعض الدراهم أجرة سفري إلى رئيس القافلة التي ستنطلق إلى اسطمبول.

إن سفري إلى اسطمبول بحد ذاته قصة عجيبة! كانت البراغيث تأكلنا إذ نرتاح في الخانات. وما كنا نستطيع النوم حتى مطلع الفجر. ولقد تخلفت مراراً عن قافلتي. كنت أبقى نائماً إلى الضحى وهي ترحل من دوني. كانت السهول والجبال والوديان والأنهار والمدن والقرى التي نمر بها ونقطعها في طريقنا تفوق الحصر. يا الله ما أكبر الدنيا!!

وإلى أن وصلت قافلتنا إلى اسطمبول لم يبق في جيبي درهم واحد وأصبحت ثيابي أسمالاً، وطالت لحيتي واهترأ نعلاي. على تلك الهيئة الرثة وصلت إلى مدينة السلاطين والقصور والأبنية الفخمة والبحر العميق.

كنت أمني النفس قائلاً: «سأصبح هنا خياطاً مشهوراً، وإن لم أصبح خياط السلطان وأعوانه، فإنني سأعمل في حي من الأحياء وأخيط ثياب الأفندية. ستكبر ثروتي وأعود إلى بايزيد لأبني فيها قصراً على سفح جبل آكري. سأتزوج وأصبح صاحب ملك وأراض». بل وكنت أحلم أحلاماً أكبر من هذه أيضاً.

ما كنت على علم بأن اسطمبول ضخمة إلى تلك الدرجة! كنت أقول فلتكن ضعف بايزيد، لكن اكتشفت أن بايزيد لا تشكل حارة

من حاراتها. كل مسجد فيها بسعة بايزيد بأجمعها وكل سفينة تمخر في بحرها أكبر من مساجدنا. كانت مدينة فيها جميع الملل والنحل، يمشي في شوارعها حتى عبيد سود. كنت ترى في شوارعها المزدانة بالأشجار، القلندريةَ والدراويش والآغوات والبكوات ورجال الدين والجنود بخوذاتهم والرماح والتروس في أيديهم.

كانت القصور السلطانية المبنية على ساحل البحر، تبدو في الليل مثل عناقيد من النور. الله وحده يعلم بعدد الجواري البيض ذوات العيون الزرق اللواتي كن في مخدع مليكنا ويدلكنه.

كنت أصل الليل بالنهار أدور في شوارع المدينة باحثاً عن عمل، وتفكيري الساذج يشير علي بالذهاب إلى القيزلرآغاسي وعرض مهاراتي عليه. كنت أظن أني سأصل إلى الأندرون وستكون خياطة أثواب نساء الحرملك كلهن من نصيبي!!

لأجل ذلك كنت أسأل أنّى ذهبت عن القيزلرآغاسي وأين هو وكيف أصل إليه؟ وحينما كانوا يسألونني عن السبب، كنت أجيبهم بأنني سألتقي به وأخيط الثياب للجواري والخادمات في قصر السلطان مصطفى. وكنت أريهم رؤوس أناملي التي تشي بأنها أنامل خياط حقيقي. كنت واثقاً من مهارتي حتى أنني تخيلت بأنني سأصبح خياط السلطان مصطفى نفسه. إلى أن قبض علي بعض الشرطة وسلموني إلى محتسب ألقى بي في سجن طوبخانة دون سؤالي عن ذنبي! قضيت ليالي سوداء عديدة بائساً تعيساً في ذلك السجن

حتى أشفق علي بعض السجناء ورووا حكايتي لرئيس السجن الذي طلب مني خياطة ثوب له للتأكد من مهنتي مقابل إطلاق سراحي. استجمعت كل مهاراتي ومعرفتي وقمت بخياطة ثوب قائد السجن بأجمل ما تكون عليه الثياب طمعاً في إطلاق سراحي اليوم قبل الغد! كانت تلك الثياب جميلة وكأنني صنعتها للسلطان نفسه.

اطلق سراحي. وخرجت من جديد لشوارع اسطمبول وأزقتها لكن دون أن أتجرأ هذه المرة على السؤال عن القيزلرآغاسي[11].

* * *

إيما البوسنية

كلما كبرت المدينة كلما اشتد وقع المصائب.

تعرفت على فتاة بوسنية بعد أن هبطت علي الثروة عقب ستة أشهر من عملي مساعداً لدى خياط شهير في شارع بمحلة قاسم باشا.

كانت الفتاة قد زارتني عدة مرات في متجر الخياطة وجاءتني بثياب أولاد سيدها لأخيطها. ولم أكن أرى منها سوى عينيها الخضراوين كحجري زبرجد. فمع أنها كانت من الجواري، كانت

(11) قيزلرآغاسي: آغا الجواري أو المسؤول عن الحريم في قصور السلاطين العثمانيين. المترجم

تخفي وجهها ببرقع. كانت فتاة جميلة. كانت حورية تعبق برائحة العنبر والجنة. لم أكن قد رأيت في بايزيد من قبل، فتاة جميلة مثلها خضراء العينين. ولم أكن قد شممت رائحة أنثى مثلها من قبل. كانت هي لؤلؤة من النار وكنت أنا فتى قادماً من ثلوج جبل آكري وقلبي يذوب لرؤيتها. أضحت حبيبتي البايزيدية ظلاً باهتاً في خيالي أمام نور جمالها. وفجأة، وجدت نفسي غريق حبها ومُضْنَى غرامها! ما كنت أعرف الخياطة يومَ لا تأتي إلي. فكانت قطباتي تتباعد ودرزاتي تسير معوجة وخيطي ينقطع ويدي لا تقدر على إمساك الإبرة وكأنني ثمل سكران. كانت هي أيضاً قد أظهرت لي حبها، وكانت كلما أتت إلي تجهش بالبكاء وتقول: «أنا لا آتي إليك لأخيط الثياب، لكن لأخيط شقوق هذا القلب المهترئ».

وذات مرة، دخلتْ المتجر مثل ريح. كانت الشمس على وشك الغروب ولم يكن أحد قد بقي في الجادة وكان التجار قد أغلقوا حوانيتهم. كنت محظوظاً إذ كان صاحب المتجر قد سافر إلى أدرنة ليمكث فيها مدة طويلة، تاركاً كل شيء في يدي. أسكرتني رائحة عطرها الزكي الذي ملأ المتجر. لا أدري كيف رميت إبرتي وخيوطي وقمت لاستقبالها!! كان في الجهة الخلفية من المتجر حُجرة صغيرة أستعملها للنوم وأتناول فيها طعامي أيضاً. وحينما اتجهت إيما البوسنية إلى تلك الحجرة، اصطكت ركبتاي ولم تعد الأرض تقدر على حملي. كان جمالها خارقاً فتظنها حورية استغفلت حارس

الجنة وهربت منها.

كان قلبي يدق بعنف ودمي يغلي. رمت برقعها وخمارها جانباً وأرسلت شعرها الذهبي ثم جذبتني إلى صدرها لأغيب عن الوعي ما إن أمعنت النظر في خضرة عينيها. عانقتها بدوري وملأت رئتي من رائحتها ثم انحنيت على رقبتها الطرية وتدحرجنا سوية على الأرض.

ثم تجاذبنا أطراف الحديث قليلاً، فحدثتني عن همومها وقبل أن يحل الظلام قالت لي: «انظر إن كان في الخارج أحد!! يجب أن أعود سريعاً. انظر جيداً». كنت قد أصبحت كالمجانين، وتخيلت أنني في حلم لكن النسمات الباردة القادمة من جهة أوك ميدان لامست وجهي مثل قماش حريري ناعم وشفاف وأيقظتني من ذاك السكر. ودقَّ الصحو مثل مطرقة ثقيلة مساميرَ وعيي في رأسي. انطلقت خارجاً، تلفت يميناً وشمالاً. لم يكن في الجادة سوى عتمة المساء. كانت اسطمبول ترتدي عباءتها السوداء والليل يهبط رويداً رويداً. عدت كاللص إلى الحجرة الصغيرة وقلت بصوت خافت: «الدرب أمان يا حبة قلبي».

كنت أتمنى أن تبقى معي إلى أبد الآبدين في تلك الحجرة، لأخيط بإبرة عشقها وخيوط خيالي حياة جميلة لي ولها. ولكن ماذا أفعل؟ فلقد خرجت مثل برق خاطف ولم تقل لي حتى كلمة وداع. تبعتها دون وعي عدة خطوات وابتعدت عن المتجر قليلاً. تعقبتها بنظراتي كما

يتعقب الفأر قطعة جبن، لكنها كانت قد اختفت في ظلمة الشارع.

في الليل، أشعلت مصباحاً واستدعيت إلى ذاكرتي وجهها المليح وغابات عينيها، طراوة نهديها ودفأهما. كنت كالثمل يغالبني النعاس فأطفأت مصباحي واستسلمت للنوم.

* * *

حينما أشرقت الشمس من جهة مضيق البحر الأسود، قمت من النوم. ظننت في بادئ الأمر أن ما جرى لي البارحة كان حلماً، لكنني إذ وقفت أمام المرآة ووقع نظري على الآثار الزرقاء لعضات إيما البوسنية وقبلاتها على رقبتي، عرفت أن ما وقع لي بالأمس كان حقيقة ولم يكن وهماً.

كان سكر اللقاء بتلك الحورية قد أنساني أن أضع الدراهم التي حصلت عليها في جراب النقود. وحينما تذكرت الأمر وأردت وضع النقود في مكانها، لم أعثر على الجراب. بحثت في كل مكان ولم أجد له أثراً!! كانت الحجرة صغيرة فأين سيختفي ذلك الجراب المليء بالنقود؟ لا أتذكر كم كان مجموع ما فيه من المال. لكني أتذكر منه بضع بندقيات ذهبية وبضع فلورانات وعشرات الآقجات الفضية والقروش. لم أعد أدري ماذا أفعل خوفاً من صاحب المتجر!! برحت انتظر عدة أيام عسى أن تظهر إيما. لكنها لم تظهر. بحثت عنها في تلك

الأزقة والحارات لكن ما كان أحد ليعرفها ولم أجد لها أثراً. أخذت أجري وراء كل امرأة متلفعة بعباءة سوداء أنادي: «إيما....إيما». وكم التفتت إلي النسوة، وهن يصقن علي ويقلن لي: «ألا تخجل من ملاحقة النساء؟» متأخراً اكتشفت أن إيما البوسنية كانت لصة وسلبتني نقودي. متأخراً عرفت أنها كانت تستغل جمالها ونصبته لي فخاً، أنا القطاة العمياء، فوقعت فيه. دنا وقت عودة صاحب المتجر. واحترت كيف سأفسر الوارد القليل؟ لو قلت له إن النقود سرقت مني، فسيرسلني إلى السجن وربما اتهمني بسرقته ودفعني إلى الحسبة في اسطمبول ليقيموا علي الحد ويقطعوا يدي! يا للفضيحة! كيف سأعيش بيد واحدة! حياة خياط بيد واحدة، هي الموت بعينه. اضطررت أخيراً إلى تسليم مفاتيح المتجر لجاري المسيحي وقلت له: «ليكن هذا المفتاح معك ريثما أصلي الظهر في المسجد وأعود».

لكنني لم أعد.

* * *

لماذا سموني دَلِيكُرْد؟

اضطررت للهرب من المتجر الذي كنت أعمل فيه، ولذت بالمساجد. والمساجد في اسطمبول أكثر من أن تحصى. لا أدري أي

حارة كانت تلك ولا أي مسجد كان ذاك الذي اقتحمته وانسللت بين ذلك الجمع الذي كان يعقد حلقة رقص؟! كانوا في حلقة ذكر يطوفون حول أنفسهم، وعرفت بعد ذاك أنهم من الفرقة المولوية من أتباع مولانا جلال الدين الرومي.

ذات الحب الذي حطم مصباحَ قلبي مثل المغزل، جعل منه كرةَ صوف في ذلك المسجد وبدأ يغزله. وأنا تحولت مغزلاً أدور وأدور حول نفسي وأغزل آلام الفراق. نسيت نفسي مع أولئك الدراويش المولوية، فقد كنت أدور أكثر منهم حول نفسي حتى يأخذني الوَجد.

البعد عن بايزيد، خداع الفتاة البوسنية لي، هربي من المتجر وما أنا فيه من الخوف والبؤس، كل ذلك جعلني درويشاً حقيقياً. كنت أجلس ساعات على شاطئ البحر أعرض وجهي لرذاذ الأمواج وأمعن النظر في الزوارق والسفن والآفاق البعيدة وزبد الموج الذي أرى فيه ثلج جبل آكري. كان اسمي قد أصبح لدى أولئك الدراويش، دَليكُرْد، الكردي المجنون، وما عاد أحد يناديني باسم رجب. وددت أن يذهب الاسم رجب إلى الجحيم دون رجعة لئلا يقتفي صاحب المتجر أثري ويهتدي إلي.

* * *

في تلك السنة كان السلطان مصطفى قد ورث الخلافة وأصبح سلطاناً. وأراد أن يذهب بنفسه مثل أجداده لحرب الكفار. كان الأئمة وخطباء المساجد يحرضون الناس على الذهاب إلى الجهاد. وكنت قد حضرت عدة مرات خطب إمام مسجد الحارة التي أقيم فيها، فكان يكثر الحديث عن الجهاد الذي إن كانت الشهادةُ خاتمتَه، فجنة الله وسبعون حورية شفيفات العظام وأنهار الخمر واللبن والعسل في انتظار المرء، أما إذا توج الجهاد بالنصر، فجزاؤه السبايا والغنائم والصيت والمجد.

كنت قد مللت حياتي. كنت هارباً خائفاً أترقب، محطم القلب، لا مال ولا أهل ولا وطن. غريباً تائهاً شريداً. لو قيل لي في تلك الحال: «الق بنفسك في لجة بحر مرمرة» أو قيل: «ارم بنفسك من فوق منارة أياصوفيا»، لفعلت دون تردد.

كيف أصبحت جندياً؟

حدث ذلك في نهاية صيف. كان قد مضى علي ما يقرب من عامين في تلك البلاد. وكانت الأحداث التي وقعت لي قد أنستني بايزيد. كما كنت قد نسيت حتى التحدث بالكردية وتحول لساني إلى التركية. حتى أحلامي، صرت أرى نفسي فيها أتكلم باللسان التركي.

وحين سمعت أن السلطان مصطفى يعد العدة لحرب الكفار، أخبرت إمام المسجد برغبتي في الذهاب إلى الجهاد. سر الإمام كثيراً لكنه سألني: «كيف أنت وركوب الخيل؟» أجبته: «الخيل بين يدي كالغنم». فعاد وسأل: «والرماية بالبندقية، أتتقنها؟» قلت له: «لا والله. لكنني ألاعب بالخنجر جيداً». ابتسم الإمام وقال: «تكفيك النية يا ولدي. ليت كل شبابنا مثلك».

حدثني الإمام ليلة كاملة عن الجهاد وفضله وثوابه. قال لي: «أن تصبح خيالا فذلك خير لك في الدنيا والآخرة. ففي هذه الحياة الدنيا سيمنحك السلطان قطعة أرض. فإن وقعت حرب قمت إلى فرسك، وإن وضعت الحرب أوزارها وعدت منها سالماً فأنت حر في العمل في أرضك. أما إذا لم تصبح خيالاً فسيجعلونك على الأقل من الراجلة لتمشي برفقة جند السلطان وتظهر الكثرة وترهب الأعداء».

سررت كثيراً ولم أعد أطيق الصبر حتى أصبح فارساً. وفي اليوم التالي سلمني إمام المسجد إلى قائد معسكر بالقرب منا. وهناك تدربت لعدة أيام أنا وثلة من رفاقي على فنون القتال الرماية وإصابة الأهداف. وأخيراً قيل لنا بأننا أصبحنا جاهزين للذهاب إلى الجهاد.

انضممنا لجند السلطان. وكنت أعتقد أنني سأصبح واحداً من الجنود الانكشاريين المعروفين بزيهم الجميل والذين يحصلون على رواتب مغرية أكثر من الجميع. لكنني أصبحت خيّالا ورافقت جند

السلطان الآخرين صوب المجر ولهستان[12] .

* * *

كان جيشنا يتقدم فلا يستطيع أي جيش آخر أن يعترض سبيله. ولقد كان الخوف منا يسبقنا إلى القلاع والمدن والقرى. خاصة وأن السلطان بعزة قدره يتقدمنا. وهل لجيش يقوده السلطان أن يُهزم؟

كان الصدر الأعظم ألماس محمد باشا يتقدمنا هو الآخر. كان الجيش يتألف من جنود الولايات جميعاً، فبالإضافة إلى الانكشاريين، هناك الآلاف من سيواس وأرضروم وأدرنة والأناضول وبلاد الأكراد وبلاد العرب والشركس والأرناؤوط والبوشناق، وكلهم جاؤوا بنية جهاد الكفار.

هناك ومن بعيد لمحت عيناي السلطان مصطفى! كان شاباً وسيماً وشجاعاً وكان تاجه على رأسه كعمامة بيضاء انغرزت فيها ست ريشات من ريش الطاووس. حاولت كثيراً أن أقترب منه وأنحني لأقبل التراب الذي يمشي عليه، لكن ما تسنى لي ذلك. لقد خضنا تحت رايته معارك عدة وانتصرنا فيها كلها بإذن الله. لكن ما جرى لنا وللسلطان والصدر الأعظم في نهاية الأمر، كان فظيعاً لا جعله الله من نصيب الكلاب.

---

(12) لهستان: هي بولونيا الحالية. المترجم

* * *

حرب المجر. معركة النهر

كنا نسير ليلاً نهاراً ولا نعثر على أي أثر للعدو! كان العساكر فرحين يقولون إن الطريق سالكة حتى فيينا وإن ما لم يتمكن منه السلطان سليمان القانوني والسلاطين السابقون، سنحققه نحن، سندخل فيينا ونجر وراءنا السبايا الشقر من جدائلهن الذهبية! حتى اقتربنا من ضفة نهر. كانت أوامر قادتنا هي أن نعبر النهر إلى الجهة الأخرى ونواصل السير غرباً. فنصبنا هناك جسراً عظيماً عبره السلطان وحاشيته أولاً إلى الضفة المقابلة. أما الباقون فقد ساروا خلف الراية التي كانت ترفرف على موكب السلطان. ولكن لم يكن ربع الجيش قد عبر حتى داهمنا جنود الأمير أوجين فجأة، كان السلطان وخاصته والانكشاريون قد أنهوا عبورهم، لكننا نحن الجنود الخيالة بقيادة الصدر الأعظم لم نكن قد عبرنا النهر بعد. وتقاطر جند الكفار بقيادة ذلك القائد الخطير وارتفعت من طرفهم صيحات «شيسن. شيسن[13]» وانهمرت طلقات البنادق والمدافع والسهام كزخ المطر وصار الجرحى يئنون بجميع اللغات.

(13) شيسن: من الألمانية schiessen أي أطلقوا النار. المترجم.

سرعان ما وصل الخيالة إلى الطرف الآخر من النهر، لكن الراجلة ذاقوا الويل. أما أنا فقد كنت أحد الخيالة وكنت أسمع صليل السيوف من خلفي، وكان الجنود يتصايحون في منظر يُذْهِل المرضعَ عن ولدها. وفجأة نادى مناد أن الصدر الأعظم قد قضى نحبه في الميدان. فأصبحنا لا نلوي على شيء وصار نهر «تيس» القريب من بلدة «زنتا» أحمر من دماء القتلى والجرحى. جعل الطوبجية الكفار رأسَ الجسر في مرمى مدافعهم وقصفوه فحرقوه فانهار وسقط الآلاف من جنودنا في النهر.

حاول الذين يجيدون السباحة أن يفروا بجلودهم لكن رماة البنادق لم يتركوا لهم فرصة الهرب. كانت فرسي قد سقطت في النهر وغرقت. ولم أكن أعرف السباحة. لكن الله لطف بي وأرسل إلي في تلك المعمعة فرساً نجيبة، ولحلاوة الروح رميت كل ما في يدي وامتطيت صهوة تلك الفرس ذات العرف الطويل وخضت بها النهر. كنت أرى الجسر وهو يحترق، والجنود فوقه يسرعون ويتدافعون للوصول إلى الطرف الآخر. كانوا يسقطون في النهر كالجراد، وحينما احترق الجسر كله أخيراً، أمر قادتنا بالهرب بأي وسيلة إلى الجهة الأخرى. كان الجنود يغرقون على جانبي في النهر، يضربون الماء وينادون أمهاتهم البعيدات، ينادون الأولياء والأنبياء والأئمة. لكن عزرائيل وطلقات أولئك الكفار كانت أقرب من الجميع في ذلك اليوم العصيب.

كانت تلك الفرس هدية من السماء جاءت بدعوات أمي ورضاها عني! كانت مثل حيوان بحري قضى حياته بين الأمواج ومياه الأنهار. فكانت تخوض النهر بهدوء وكأنها تنساب مع الأمواج.

هناك، بين أزيز الرصاص وقرقعة المدافع وصرخات الجنود وحفيف النهر إذ تخوضها فرسي، سمعت صوت المرحوم الخاني: «لا تنس هذا السهل وهذا الجبل. اعلم أنك ابن هذا التراب». كانت السنوات قد مرت على هذه الجملة التي قالها لي الخاني قبل أن أغادر بايزيد. لكن بدا ذلك الصوت وكأن الخاني يتحدث في أذني. كان صوته يرن حياً. إي والله!! فلقد كان رجلاً ذا شأن وكرامات وقد ظهر لي في ذلك اليوم العسير.

على صهوة تلك الفرس، يحيط بي الموت من كل جانب ويرقص بوحشية، تناهت إلى سمعي كلمات الخاني تلك. وفكرت: «تُرى أين أنا؟ وماذا أفعل؟ ولماذا أنا بعيد عن بايزيد؟ ومَن أحارب؟ وإذا قضيت نحبي هنا فمن سيقرأ الفاتحة على روحي ومن سيعقد لي مجلس عزاء؟ من سيضع شاهدة قبري ويحفر عليها اسمي؟ ألن يكون موتي وموت برغوث بين يدي أعمى، سواء؟»

* * *

لكنني لم أكن برغوثاً

حينما رأيت السلطان والقادة الكبار يولون الدبر هرباً من الكفار باتجاه تيميشوارا، عرفت أن الجهاد الذي خرجت لأجله إلى هذه الميادين والبقاع لم يكن جهاداً في سبيل الله. فلقد كان عديدنا يفوق مئة ألف بينما لم يبلغ الأعداء نصف عددنا. تركنا نصف الجيش قتلى وجرحى وراءنا، وتركنا أيضاً صناديق المال والعربات والآلات الحربية الثقيلة والطبول في ميدان المعركة، ولو كانت نساؤهم معهم لتركوهن للسبي على يد الأعداء!

في ذلك اليوم، غلبت رائحةُ بايزيد رائحةَ البارود. وتذكرت كل شيء فيها، منارات مساجدها، قيسارياتها، قلعتها، حاراتها، بساتينها وأنهارها وحدائقها وظلال منازلها في أصائل الصيف، جبل آكري والربيع الشبيه بريش الطاووس، رنين الأجراس المعلقة في رقاب الأكباش، جلبة الأطفال وخشخشة أساور وخلاخيل بناتها، النسوة اللواتي يغزلن الصوف في شمس آذار وكل لحظة وبقعة صغيرة، تذكرت كل ذلك في تلك الساعة.

خلال هربنا، اتخذت قراري بعدم خوض أي معركة بعد الآن. لقد عرفت أنني لو مت فسيكون موتي مثل موت أي برغوث! لكنني لم أكن برغوثاً. فبعد أن كتب الله لنا النجاة وعدنا ثانية إلى اسطمبول، توجهت من جديد إلى المساجد وعدت إلى حلقات ذكر المولويين.

صرت أدور حول نفسي أكثر مما مضى، لكن صورة بايزيد ما كانت لتغيب عن بالي. مع كل دورة كانت رائحة ربيع بايزيد تفوح أمام أنفي بشدة فأغيب عن الوعي.

كان أحد الدراويش العميان من مدينة بورصة قد أصبح صاحبي، وكنا كثيراً ما نذهب إلى حافة الخليج ونرنو إلى الأمواج بخشوع. فيقول لي: «أريد أن أرى البحر بعينيك». وأنا كنت أريد النظر إلى نور الله تعالى بقلبه! كنت أروي له أحياناً ما جرى لنا في معركة النهر، فأراه يضحك ويطبق عينيه العمياوين عدة مرات، ثم يضع كفه على جبينه وحاجبيه ويقول: «الجهاد الأكبر هو جهاد النفس. عد إلى نفسك يا رجب، عد إلى نفسك وجاهد جيوش الحقد وجنود الفتنة، حارب عساكر الحسد. فالغازي هو الذي يغلب نفسه وينتصر عليها. كل واحد يستطيع أن يحمل رمحاً أو قوساً ونشاباً، أو بلطة. كل واحد يستطيع حمل طبرزين ويقطع به رأس كافر. ليست هذه هي البطولة يا رجب. البطولة أن تنتصر في جهادك الداخلي مع النفس».

وكان ينشد لي بعضاً من كتاب المثنوي لمولانا الرومي:

يسهل على الليث تمزيق صفوف الأعداء
لكن الليث الحق يظهر في قتال الأهواء

* * *

كنت أضيع في اسطمبول يوماً بعد يوم. كان الخاني قد أوصاني قائلاً: «إياك أن تضيع نفسك». ولكن في مدينة كبيرة مثل اسطمبول تبلغ نصف الدنيا، تضيع عشائر وقبائل، فما العتب على بائس مثلي!

نويت أخيراً العودة إلى موطني وبحت بمكنون صدري لذلك الدرويش من بورصة، فقال لي: «عد يا رجب. نفسك معك، أنى ذهبت جاهدها».

في حالة مزرية أكثر من التي خرجت فيها من بايزيد، عدت إليها. كانت سنون كثيرة قد مضت على خروجي منها، فلم يعرفني أهلها لكثرة الشيب في رأسي والتجاعيد على وجهي. كما لم أعرف أنا كثيراً من الناس الذين صادفتهم لدى عودتي. كانت الرزايا قد صبغت رأسي بالكافور فأصبحت أبدو عجوزاً طاعناً في السن. وحينما رآني المرحوم الخاني، رقصت الفرحة في وجهه وقام يعانقني. كانت رائحة حبر زكية كالعنبر تعبق منه. أبقاني عنده شهراً كاملاً أروي له كل ليلة في ضوء سراج ما جرى لي في تلك البلاد والحرب التي شاركت فيها وكيف أن السلطان هرب أمام أمير كافر. تنهد الخاني بأسى وقال: «انظر، أيتجاسر أحد أمرائنا على ذلك! إنهم كفار لكن الله ينصرهم إذ يتحدون، ونحن مسلمون لا ينصرنا الله لأننا أشتات متفرقون».

كان الخاني يسألني عن تلك البلاد، عن الفرقة المولوية والمكتبات

والمساجد والقصور، عن الأسواق والأزقة والحوانيت وعن البحر في اسطمبول.

ماذا أقول! متأخراً وقعت عيني على كتابه مم وزين. لو كان ذلك قبل سفري لما ألقيت بنفسي في وطيس تلك المعركة الحامية. لقد علمني الخاني أنه مادامت هناك حرب فلتكن على العثمانيين لا في سبيلهم.

والآن فقد انتقل إلى رحمة الله. جعل الله قبره قطعة من الفردوس ورزقه الجنة. وا أسفي عليه! والله لقد مات هماً. فلقد كان رجلاً دائم الهم، ضعيفاً مثل خيط ونحيلاً مثل إبرة، مصفراً كشمعة تذوب. يقولون إنه مات مسموماً! لا أصدق. لم يكن له أعداء وكان الجميع يحبونه ويجلونه. حتى الأمير كان يبجله ويعرف قدره ويدعوه كثيراً إلى مجلسه.

ويقولون أيضاً إن مطراً أسود هطل يوم وفاته على بايزيد. لم أر ذلك بعيني، وحينما صرخ تيمور الفاسق قائلاً: «حبر يهطل من السماء». نظرت مثل الجميع إلى أعلى. كان المطر قاتماً قليلاً، ولكن هل يمكن أن تمطر السماء حبراً؟

لقد كان الخاني ذاتاً كبيرة. والله يفعل لأجله كل شيء. يجري على يده الكرامات، أهو أقل من مولانا الرومي؟

خالد المُخدَج

حينما ظهر نعش المرحوم الخاني من بعيد، حملت عكازي وسرت لأشارك الرجال في حمله. مددت يسراي لأمسك النعش لكن ميرزا صبري أبعدني وقال: «لا لا يا عم خالد. لقد سلبك الله إحدى ذراعيك وأنت رجل عجوز. نحن الأربعة نكفي لحمل النعش».

انكسر خاطري كثيراً وابتعدت مهموماً صامتاً. لكن ما كان ذلك ليهم ذلك الخنزير! لا خوف الله يسكن قلبه ولا الحياء من عباد الله! لم أسمعه ولو مرة واحدة يتحدث عن المرحوم أحمد الخاني بكلمة خير، بل كان دائماً يسخر منه في المجالس ويقول: «انظروا كيف يفكر هذا المجنون، يكتب بالكردية! من كان في محله سيكتب بالتركية! الله وكيلكم لا يكتب بالكردية سوى المجانين!»

أنا لا أتقن سوى اللغة الكردية. لست متعلماً لكنني أحب أشعار الخاني. ومع أنها عصية على فهمي وصعبة، لكنها أسهل من الأشعار الفارسية والتركية وأكثر طلاوة وأقرب إلي. لا أدري ما هو السر في ذلك، لكن روحي ترتعش حينما أسمعها وتأخذني الجذبة، وطالما بكيت وأنا أصغي إليها بالرغم من سمعي الضعيف.

* * *

لم أكن مخدجاً

لم أكن فيما مضى مخدجاً. كنت أحمل بيدي الاثنتين كيساً مليئاً وأضعه على ظهري وأمشي به مئة ذراع وأكثر. كنت حمالاً مشهوراً في سوق بايزيد، وكان التجار يستدعونني بمجرد أن تحط أحمالَها القوافلُ القادمة من يريفان وخوي وماكو وتبريز ودياربكر. كان ظهري أشد من الصخر وذراعاي أقوى من الفولاذ.

كنت شاباً في مقتبل العمر، لكن قوتي تعادل قوة رجل صنديد. كان أبي يقول: «كنت ترضع ما يرضعه ثلاثة أطفال، حتى اضطرت أمك المسكينة وأخذتك إلى المرضعات البايزيديات. لقد أصبحت أخاً في الرضاعة لنصف الأطفال الذين في عمرك. ولما أصبحت في الخامسة كنت تغلب أقرانك جميعاً ومن هم أكبر منك سناً أيضاً. وفي سن العاشرة كنت تلاعب بالسيف بمهارة».

كانت هذه القوة الربانية وراثية في عائلتنا. وكانت العائلة مشهورة باسم عائلة كوهشكنان من عشيرة مارخوران التي كانت تقطن نواحي مدينة وان. لكن رزقنا كان ضيقاً، وبقدر ما كانت قوتنا خارقة كان رزقنا ضيقاً. كان والدي فلاحاً مات وهو يمسك المحراث في سن السبعين. وأنا صرت حمالاً. لكنني لم أكن مخدجاً من قبل.

كانت النسوة من البصارات والمنجمات قد نظرن في مستقبلي

وقرأن في طفولتي السطور المكتوبة على جبيني وقلن: «ستضعف قوة هذا الولد في شبابه ويفقد شيئاً ما». ومرت السنون والأعوام وأصبحت في حدود العشرين من العمر ونسيت نبوءة تلك المنجمات. حينها كانت يريفان ما تزال في يد الفرس. وكانت مدن هذه البقاع مثل كرات تتقاذفها الصولجانات، ترتفع فيها راية الفرس يوماً وراية الترك يوماً. في النهار كان القزلباش يحكمون وفي الليل يحكم السنة. وكنا نحن المساكين مثل زورق مثقوب تتقاذفه أمواج الترك والفرس.

في تلك السنين جاء السلطان مراد بنفسه ومر ببلادنا صوب يريفان. ازدحمت المساجد والخانقاهات والتكايا بالحشود الكبيرة وتعالت صيحات الدراويش والملالي والصوفية تنادي بالجهاد. كانوا يقولون إن الطريق مفتوحة أمام من يريد الانضمام إلى جيش السلطان وإن تلك الطريق لهي السبيل إلى الجنة. وإن رفرفت راية الظفر، وسترفرف لا محالة، فإن كل نفر من الخيالة والراجلة سيحصل على مال وفير، ما عدا الغنائم الحربية والسبايا والجواري الحسان. كنا شباباً أغرار متحمسين، انضممنا بالمئات إلى جيش السلطان وسرنا خلف بكواتنا وآغواتنا وقادتنا. في ذلك الحين كان الأمير عبدي بن قَرَخان المشهور حاكماً على بايزيد. كان الأمير عبدي خال المرحوم أحمد الخاني لا ينقطع عن الصيد إما في وديان جبل آكري حيث الصقور والشواهين، أو في سفوح جبل سيبان حيث الماعز الجبلي.

وأحياناً كان يصيد الحجل والقطا أسفل جبل تندورك وبلدة وان.

ذات يوم جمعة ذهبت إلى مسجد السنانية، كان الملا إلياس والد أحمد الخاني، رحمة الله على الاثنين، يخطب في الناس. كان صوته يرج المسجد وهو يدعو الناس إلى الجهاد ضد الفرس. كانت كلماته مؤثرة لسعة علمه. ومن ذا الذي كان يستطيع قهره! كان قد شرب الماء في جناح الخفاش وأكل لسان الببغاء.[14] كان ملا واسع المعرفة. لبينا دعوته وكنا نتحرق للوصول إلى ميادين القتال لنشارك في الجهاد.

مرت سنوات طويلة، عرفت بعدها أن زعماء عشائرنا كانوا يبيعوننا كالغنم إلى قادة الجيش. كانوا يقبضون ثمن كل منا من أربعمائة إلى خمسمائة آقجة. ما كنا نعرف أننا عبيد رؤساء العشائر. ما كنا نعرف أننا كالبضائع نباع ونشرى في الأسواق.

* * *

حرب يريفان

كانت حرب يريفان حرباً شعواء، كلما تذكرتها ارتعش بدني وأخذتني الحمى. سبعون سنة مرت ولم يغب فيها عن ذاكرتي صليل السيوف، صراخ الحرب، صيحات المقاتلين وأنين الجرحى وصهيل

(14) تقول الأسطورة إن من شرب الماء في جناح الخفافيش سيغدو ذكياً جداً، ومن أكل لسان الببغاء، سيصبح فصيحاً. المترجم

الخيل. آنذاك كان السلطان مراد شاباً يانعاً يتقدم الجند وهو يمتطي صهوة فرس عربية كحلاء، مسرجة بالذهب والفضة ولجامها من الحرير الصيني. كان بعض الطواشية يظللون عليه بمحفة، بينما آخرون يروحون عليه بمروحة من الريش. ما كنا نصدق أن تقع أبصارنا ولو على ظله! فقد كان موكبه يبعد عنا دائماً حوالي نصف فرسخ. كنا نتلهف للتشرف برؤيته دون أن يتسنى لنا ذلك. كنا كالنمل وهو كحضرة النبي سليمان، لو رق لنا ونظر إلينا لطرنا دون أجنحة.

صحيح أن نداء الجهاد كان قد جذبنا إلى ساحات الوغى، لكننا جميعاً كنا نطمع في الغنائم والسبايا الجورجيات والأرمنيات أكثر من حور الجنة. والذي كان فقيراً كان أسعد الناس! فإما شهادة تأخذ المرء إلى جنة الله تعالى حيث الحور والقصور، وإما نصر يأتي بسبايا وغنائم كثيرة وصيت في الدنيا.

كان بعضنا يحمل السيوف والتروس، وبعضنا يحمل الرماح والمزاريق، وبعضنا يحمل الدبابيس وبعضنا البنادق. كان البعض يتقلد القوس والنشاب، والبعض يحمل الخناجر. أما أنا وثلة من صحبي فكنا من فرقة راجلة تحمل الطبرزينات والسواطير. كانوا يطلقون علينا اسم الساطورجية، وكان كثيرون من الجند يسخرون منا ويطلقون علينا لقب: قصابي الخنازير! كان رفاقي يغضبون من هذه السخرية لكنني كنت أقول في سري: «غداً تنشب المعركة ونرى كيف أن سواطيرنا أكثر مضاء من سيوفكم. سأريكم في الميدان من

هو قصاب الخنازير ومن هو قصاب الصناديد!»

كان الوقت صيفاً، وشمس تموز تبدو مثل دبوس ناري معلق فوق رؤوسنا. كان كل منا يتبرم برائحة عرق صاحبه فيسد منخريه. ولما اقتربنا من بلدة إغدر، دخلنا بين بساتين القثاء والبطيخ وتركناها أثراً بعد عين. كانت إغدر تعتبر منجماً للفواكه والخضار وكان القرويون يأتون منها بأحمال البطيخ والمشمش وسائر الفواكه الأخرى على ظهور الحمير ويبيعونها في بايزيد. الخلاصة أننا كالجراد تركنا تلك البساتين خاوية وواصلنا سيرنا حتى وصلنا إلى نهر الرس. على طرفي النهر كان الجنود المجتمعون يهمهمون كالنحل في القفران. وكان الدخان يتصاعد إلى السماء السابعة بسبب النيران المشتعلة تحت قدور الطعام العظيمة. كان كل رهط منا ينتظر أمام قصعة طعام، بينما بعضنا الآخر يرتمي في مياه النهر ويسبح.

* * *

صديقي الطواشي

عبرنا إلى الجهة الشرقية من النهر وكان جبل آكري بثلوج قمته ينعشنا ويشد من عزيمتنا. كان الجبل يبقى على حاله قريباً ولامعاً مهما ابتعدنا عن النهر واقتربنا من يريفان وكانت قمته الثلجية تلمع في

ضوء الشمس مثل جوهرة عظيمة في تاج سلطان ذي عباءة زرقاء. كان الجبل متلفعاً بعمامة من الغيوم وكانت رؤوسنا تعتم بغيوم من الأحلام والأماني.

قبل الظهر وصلنا إلى مدينة يريفان. اهتزت الأرض والسماء من هدير طبول وأبواق الحرب. مع كل ضربة كانت قلوبنا توشك أن تنخلع من صدورنا. هكذا وصلنا إلى النهر الذي يحيط بالمدينة كنطاق عروس. اصطف جنودنا بالآلاف، خيالة وراجلين، انكشاريين وآلاف المرافقين من جنود السياهي لشكر. وفي المعسكر المقابل كان القزلباش وجيوش الفرس مستعدين للنزال. ومع صدور الأمر من السلطان التقى الجمعان وتلاطمت أمواج الجنود واندفعنا مثل كرات من النار إلى الأمام.

كان لي صديق من ديار بكر من الساطورجية تعرفت عليه قبل أن نصل إلى يريفان. وكان هذا الصديق يتمنى العيش في اسطمبول ويقول: «ليتني أعيش هناك ولو طواشي!» كنت أضحك من قوله وأرد عليه: «يا ابن العم! أن تعيش بلا خصى في اسطمبول فكأنك لا تعيش»، فيرد قائلاً: «لا يا ابن العم لا! وماذا تظن أني فاعل بهذه الخصى في ديار بكر! إنها لا تفيدني هنا ولن تفيدني هناك أيضاً».

وحتى في المعركة كنا متجاورين. كان على ميمنتي ويحميني كما أحميه. لكن الذي جرى لنا لم يسبق وأن جرى لأحد من العالمين. اشتدت مقاومة الفرس كثيراً. فقد كان قائدهم يعلم أنه لو خسر المعركة

فإن الشاه صفي ميرزا سيفقأ عينيه بسفودين محميين ويلقي به في غيابة جب في أصفهان. لذلك كانوا يقاومون ببطولة فيهزون الدبابيس ويهيلون بها على رؤوس الجنود. كانوا يريشون السهام ويطلقونها على النحور لتنفذ من الظهور. كان الذين يرتدون الدروع والمغافر لا يألون على شيء، والويل يلم بأمثالنا من البائسين. كانت السيوف المصرية والجعفرية والهندية واللاهورية تتعانق ويسيل منها سم المنون. دارت في ذلك اليوم رحى الأجل وطحنت كثيراً من الرؤوس.

كان الفرسان الصناديد يتصادمون ويتبارزون في كل جهة. وكانت الرؤوس تهوي عن الأكتاف، والسواعد والأيدي المبتورة تطير والجرحى يئنون والخيل تصهل والفرسان يتصايحون. كان كل يحاول النجاة بنفسه ولكن صديقي الدياربكري لم يكن ليتركني بل يلوح بساطوره ويشق به صدور القزلباش. وأنا بدوري، كنت أنفض ساطوري ذات الشمال وذات اليمين كأنه الصاعقة، أقتلع به شجرة حياة الأعداء من جذورها.

وعلى حين غرة هجم علي محاربان كميان بمغافر ودروع وطبرزينات. كان أحدهما يشبه الآخر ويبدو أنهما تدربا لسنوات على فنون القتال سوية وكأنهما رجل واحد في جسدين. اختاراني من بين كل أولئك الجند وهجما علي! لكنني لم أعطهما فرصة وضربت بساطوري أولهما فأصبته وشققت صدره فظهرت أحشاؤه وخارت قواه وانهار. وحينما سللت ساطوري رأيت قلبه وكبده، فأصابني

الغثيان وكدت أقيء. صرخ رفيقي الدياربكري قائلاً: «يا رجل لا تنظر في جرح هذا القزلباشي النجس. تنبه ها هو الثاني يقبل عليك. أقول لك تنح عن دربه فالكلب قادم». كان الجندي الآخر – لما رآني قتلت رفيقه– يصرخ كما الأرامل الثكالى: «ويحي يا أخي حَمَهْ، ويحي يا أخي حَمَهْ! حرام علي الحياة بعدك». كان يتحدث مثلنا بالكردية مع بعض الفرق، فعرفت أنه ليس فارسياً ولا من القزلباش. هاجمني مثل خنزير من برية موش وكان لزاماً على أحدنا أن يقتل الآخر. كان طول سيفه يبلغ ذراعين وما كنت قادراً على دفعه بساطوري. كان مغواراً يبرق الغضب والحقد على محياه. تقابلنا فتقاتلت نظراتنا قبل أن تتطاحن أسلحتنا وحينما أمعنت النظر في عينيه كدت أسمع صوت الحقد ونداء الثأر صادراً منهما. اصطكت ركبتاي من الفزع لأول وهلة وشعرت كأنني سمرت إلى الأرض.

كان رفاقنا الجنود من الذين سبقونا في الحروب قد نصحونا ونحن في الطريق إلى يريفان بالقول: «إن وجدتم العدو توقف فلا تمهلوه بل هاجموه». تذكرت هذه النصيحة ولم أرد إعطاء فرصة لذلك المحارب، خاصة أن نار الثأر قد استعرت في تنور قلبه للتو وصار قتلي عنده كفرض الصلاة.

وثبت عليه وصرخت: «يا ابن الكلب تعال أجعلك أنت أيضاً طعاماً لساطوري هذا». كان هو الآخر محارباً عنيداً وبطلاً صنديداً فلم يتنح عني بل هجم علي وهو يصرخ: «بل أنت الكلب وأبوك

الكلب. أنا عَوْلا المَريواني ولا آبه بالموت». وتقابلنا، هو بالسيف وأنا بالساطور، إلى أن رفع سيفه وهوى به على هامتي، ولو لم أتنح عنه قليلاً لفلقني نصفين. لكنني مع ذلك لم أتنح بما فيه الكفاية وجاءت ضربته على كتفي. وحين رآني صديقي الدياربكري واقعاً في ورطة، هب لنجدتي لكن السيف كان قد قطع ذراعي من الكتف. لم أشعر بجرحي وهجمت مع صديقي على ذلك المحارب فهبرناه بالسواطير وألقينا جثته على جثة أخيه.

وعندما برد جرحي قليلاً، شعرت بألم فظيع في موضع الجرح، كان الدم يتدفق كنهر، وغبت عن الوعي.

* * *

حينما أفقت من غيبوبتي كان جرحي ما زال ينزف وألمي لا يطاق. كان جنديان يمسكان بي من قدمي بينما يمسك آخران بيدي ورأسي وطبيب من نصيبين يعالجني داخل خيمة. كان الطبيب قد وضع ساطوري على نار حامية حتى استحال كجمرة من الجحيم ثم كوى به جرحي النازف. حالما سمعت نشيش لحمي وشممت رائحة شوائه صرخت صرخة هائلة وغبت ثانية عن الوعي.

* * *

لا أدري كم بقيت غائباً عن الوعي! لكن حين أفقت من غيبوبتي مرة أخرى، كان الطبيب النصيبيني قد ركّب مرهماً من طحالب النهر والسماق وعفن الخبز ودهن به مكان ذراعي المقطوعة. كان النزيف قد انقطع لكن ألم الكيّ اختلط بألم الجرح وما كنت لأهدأ.

أما سلطاننا فكان قد فتح يريفان وكان الجند يهزجون ويرقصون فرحاً بينما انشغل كثيرون بسلب القتلى ثيابهم وأسلحتهم. مرت أيام عديدة تماثل فيها جرحي المغمور بالأدوية والمراهم للشفاء. كان الطبيب النصيبيني يقول: «إن الجراح تفسد في حر الصيف، لذلك علينا بدهن جرحك بعجينة من عفن الخبز والسماق وطحالب النهر مرتين أو ثلاثاً في اليوم».

شعرت بأن جرحي يطيب بتلك العجينة لكن ذراعي، كما قال لي أحد مشايخ ألَشكرد، كانت قد سبقتني إلى الجنة.

بعد أيام عديدة لاحظت غياب صديقي الدياربكري، وحينما سألت عنه أخبرني بخبره بعض الجنود وقالوا إنه وقع تحت حوافر الخيل وانفجرت خصيتاه ومات شهيداً. تذكرت أمنيته قبل أن ندخل الحرب وقوله: «ليتني كنت في اسطمبول ولو طواشي». لقد استجاب الله لدعائه ولكن شهيداً.

من هناك توجه سلطاننا إلى تبريز ففتحها أيضاً. أما أنا فقد بقيت في يريفان حتى شفي جرحي فعدت إلى بايزيد في الخريف دون أن

أحصل على شيء من الغنائم اللهم إلا لقباً لصق بي منذ ذلك الوقت كذكرى من الحرب، وهو لقب خالد المُخدَج. ما كنت بعد الحرب أصلح لشيء. ولم أكن آغا أو سيداً حتى يعمل لي السلطان ذراعاً من ذهب. لكن ألف شكر لله فقد صار لي راتب يكفي معيشتي.

* * *

كنت صديق عائلة أحمد الخاني وهو لما يزل طفلاً يتعلم الألفباء على والده المرحوم ملا إلياس وحفظت بعضاً من سور القرآن الكريم على يد والده.

لا أدري كم كان عمر المرحوم الخاني آنذاك! لكن الوقت كان صيفاً وكنا في رمضان. ذهبت إلى المسجد ذات مساء فوجدت ملا إلياس جالساً في المحراب الذي تضيء في جانبيه شمعتان ثخينتان. كان الناس قد انصرفوا من صلاة التراويح وبقي ملا إلياس وابنه أحمد، رحم الله الاثنين، وحدهما. عجبت من الأمر وقلت لملا إلياس: «مولاي ألا يغالب النعاس هذا الولد؟» ضحك وبانت ضحكته في ضوء الشمعتين مثل الربيع في سفح جبل آكري ثم قال: «لا تنظر إلى ابني أحمد على أنه طفل يا خالد. إنه أكبر من عمره ومتعطش للعلم أكثر من الماء. إنه صغير لكنه أكل لسان الببغاء. يمضي ليله في قراءة القرآن الكريم. وفي عمره هذا أنهى جزء عمَّ وبدأ بجزء تبارك. كما

أنه حفظ عشرة أحاديث للإمام النووي».

ثم التفت إلى ابنه وقال له: «هيا يا ولدي أحمد. اقرأ لعمك عمّ يتساءلون».

*   *   *

لقد شهدت طفولة وشباب الخاني جميعاً. كان من أهل الطاعات والعبادات وله نصيب وافر من العلم والمعرفة. كان طيب العشرة ولا يغضب أحداً. يحترم المسنين من أمثالي ويجلهم كثيراً ويصغي إلى قصصهم وحكاياتهم حول حروب العشائر الكردية والقزلباش وعساكر حضرة الباديشاه. يبقى مصغياً لساعات دون أن يتكلم، بل يدون على أوراقه كلمات ما ثم يذهب إلى حجرته. ذات مرة أحببت أن أروي له قصتي في حرب يريفان. لم يكن قد بدأ بكتابة مم وزين بعد، وكان يشرح لتلاميذه في مسجد المرادية منظومته في عقيدة الايمان. وعندما لمحني، ترك الدرس واستدعاني إليه. فقد كان كلما يراني يترك كل ما في يده ويدعوني إليه قائلاً: «تعال يا عمي خالد لنضيء سهرتنا بشموع حكاياتك».

عندما رويت له حادثتي مع ذينك الأخوين في جيش شاه العجم في حرب يريفان، امتعض وضاقت نفسه كثيراً. رمى منظومته من يده وانتصب قائماً وهو يقول: «ويل لنا من هذا القدر الأسود.

ماذا جرى لنا نحن الكرد؟ إنهم شاهات وسلاطين ونحن جنود وعساكر. هم يوقدون نيران الحرب ونحن نحترق كالحطب». بعد تلك الليلة، كان يقول كلما رآني: «يا عم خالد أرجو ألا تغضب مني، فلقد صرت قاتل إخوتك. لكن لا بأس فليس الذنب ذنبك، إنما ذنب أمرائنا الحمقى».

بعد أن مرت السنوات وانتهى المرحوم من كتابة مم وزين، عرفت كم نحن مغفلون، عرفت أننا صرنا أهدافاً لسهام القضاء التي يرميها الفرس والترك ويغرزونها في صدورنا وقلوبنا.

إن عاهتي لا تسمح لي بنسيان تلك الحادثة، وما يزال صوت ذلك المحارب الشاب الذي لم أكن أعرف حتى اسمه يتردد في أذني، وسيظل يتردد حتى أصبح على حافة القبر ولن أنسى صرخة: ويحي يا أخي، ما حييت.

الصوفي حيدر القَرْصي

جلي القلوب

«بم تصقل القلوب يا صوفي حيدر؟»

سألني المرحوم الشيخ أحمد الخاني قدس سره، عقب صلاة فجر في ضوء قنديل كان يضيء جنبات محرابه. كنت أقرأ عليه كتاب منطق الطير للعطار النيسابوري. كنا قد وصلنا إلى حكاية الشيخ الصنعاني ونتدارسها. وضع الكتاب الذي وصله حديثاً من تبريز بين الشاهدة والإبهام، اللتين كانتا قد غلظتا لطول عهدهما بالكتابة وحمل القلم، وأشعل ذلك السؤال مثل قنديل في محراب قلبي.

انصرف ذهني إلى الخمر الإلهية التي يعتبرها المتصوفة ماء لغسل أدران القلب، وتلوت له هذا البيت للملا الجزري:

كأس من يد الحبيبة تزيل الصدأ عن قلوب الحيارى
هكذا روى حكيم المجوس نقلاً عن السكارى

صمت شيخي هنيهة. أغمض عينيه وتنهد بعمق. عرفت أنه بدأ يشحذ سكين خياله المقدس على مِسَنِّ معرفته. التزمت أيضا بالسكوت وبدأت أمعن النظر في النور الذي غمر وجهه المصفر. فتح عينيه ووضع كتاب منطق الطير من يده، ثم قال بهدوء وكأن

نسيم السحر هو الذي يتحدث:

«يا صوفي حيدر! لن تصقل القلوب بدون نيران العشق. رأيت ماذا حصل للشيخ الصنعاني أليس كذلك؟ لقد هام بعشق فتاة كافرة وربط لأجلها الزنار على خصره ورعى الخنازير وشرب الخمر. وكأن عشق الفتاة أتون مستعر وقلبه سفود صدئ. لقد عرف الله أكثر في ذلك العشق ورأى نوره يتجلى في محيا تلك الكافرة. يقول الملا الجزري إن الخمرة الإلهية تغسل القلوب. صحيح، لكن غسل القلوب وحده لا يكفي. فدون نيران أتون مستعر لن يزول الصدأ. وسيبقى كل من لم يتطهر بنار عشق الحق، صدئ القلب إلى الأبد».

نسيم الصباح العليل واللطيف كان قد بدأ يطوف بأرجاء إيوان المسجد ويهز القنديل فتهتز ظلالنا معه. نحّى الشيخ أحمد، قدس سره العزيز، كتاب منطق الطير جانباً وقال: «انظر. فلولا نيران القنديل لما كانت لنا ظلال. الظلُّ وجودٌ. ووجود الظل نابع من وجود نور السرج والقناديل. وكذلك لا وجود للعاشق بدون نور نار العشق».

* * *

درس في العشق

حينما ظهرت تباشير الفجر وابيضت الدنيا قليلاً، قام الشيخ أحمد قدست أسراره العلية وقال لي: «تعال يا صوفي حيدر! تعال

لألقنك درساً في العشق».

ثم سار أمامي فتبعته. وشعرت بدفء أنفاسه إذ تختلط بأنفاس الفجر الندية ويتسارع إيقاعها. أخيراً دخلنا حجرته التي كان ضوء الفجر قد سطر على جدرانها آيات عشق نورانية. مد يده إلى السراج المنطفئ وسحب فتيلته السوداء قليلاً ثم أشعلها. جلست صامتاً على ركبتي ونظرت إليه. وحينما التهبت الفتيلة بالنار مد يده اليمنى فوضع خنصره المزينة بخاتم فضة ذي فص من حجر الياقوت على لسان النار في رأس الفتيلة المتقدة وأغمض عينيه.

حدقت في إصبعه التي تحترق رويداً رويداً وفاحت الحجرة برائحة الظفر المحترق. بقيت عيناه مغمضتين وبدأ قلبي ينبض بجنون. وعندما شممت رائحة الشواء وأدركت أن لحم الشيخ بدأ يحترق، أخذتني الجذبة فصرخت وارتميت على يده وأطفأت السراج ولثمت خنصره المحترقة وغسلتها بدمعي قائلاً لجنابه: «كفى يا مولاي. كفى فقد فهمت الدرس».

كان الشيخ يبكي وهو يرتجُّ ويقول:

هذه نار تصقل القلب حينما يشتعل السراج.

نعم يا صوفي حيدر، هذا هو العشق الحقيقي: أن تكون في ضرام الحب دون أن تتأوه أو يصدر منك صوت. أن تبقى هادئاً، لا أن تئن وتشكو كالعشاق المجازيين. العاشق الحقيقي فراشة أما المجازي فمثل البلبل. أنين البلابل وشكواها وشدوها مثل يُضرب للعاشقين

الأغرار. أما الفراشة؟ فإنها ترمي بنفسها في النار ولا قوة تمنعها من ذلك. فالشمعة كعبة عشق الفراشة ورقصُها طوافٌ. وتبقى تطوف إلى أن تسلم الروح. لا قرار لها مادامت بعيدة لم تتوحد هي نفسها بنار الحب. وحينما تموت، فإنها تموت بصمت وسكينة. منذ ثلاثين سنة وفراشة قلبي تحترق في تنور العشق وتتطهر من صدأ الدنيا، وأنا صامت يا صوفي حيدر».

مرت هنيهة هدأ بعدها قليلاً وواصل القول: «قم الآن وأشعل السراج. فالسراج حياة من نور».

ليلة انتقل الشيخ إلى رحمة الله، انطفأ السراج ثلاث مرات عند رأسه. رأيت في ذلك فألا سيئاً وتذكرت قول شيخي إن السراج حياة، وعرفت أن سراج حياته يوشك على الانطفاء.

* * *

لقد كان شيخي – جعل الله مقامه في عليين– ذاتاً نورانية. لم يكن يهتم لأمر الدنيا الفانية بقدر ما كان يهتم لأمر الناس. وكان يقول في خطبه: «أيها الناس، قبل أن تغسلوا أثوابكم، اغسلوا قلوبكم يكفيكم ذلك».

وحين كنا، نحن مريدوه، نتحلق حوله في الأسحار، كان يمسح لحيته العابقة برائحة الفردوس، ويخاطبنا وأجفانه مسبلة، قائلاً:

«غسل القلوب لا يتم إلا بالدمع. ومن لا يبكي يغلظ قلبه. إن القلوب التي تتوجه إلى صلاة النقاء، يجب أن تتوضأ بماء المآقي لا بماء السواقي». وكنا نرى في ضوء القناديل الكابي في جانبي المحراب، دموعه المجتمعة في عينيه.

كان قلبه واسعاً جداً ولم يكن يبعد أحداً عن مجلسه. حتى أنه يوجد في بايزيد رجل اسمه تيمور الفاسق، كان يأتي ليحضر مجالسه دون أن يمنعه أحد. ولما كانت جماعة من المشايخ تعترض على ذلك وتقول: «كيف لرجل تارك للصلاة عاقر للخمرة، أن يحضر مجالس الذكر والعبادة؟» كان شيخي قدس سره يرد قائلاً: «لو أراد أحدكم إصلاح نعله أفلا يأخذه إلى الإسكافي؟ ولو نزل بأحدكم مرض ألا يذهب إلى طبيب؟ وهذا هو حال تيمور. وإذا لم يحضر مجلسي ويسمع الوعظ، فمن منكم سيذهب إليه في الحانة ليهديه سواء السبيل؟»

سبحان الله. ما أغزر هذا العلم! أقسم بذات الله تعالى أن الشيخ، هطلت على ضريحه المقدس شآبيب رحمة الله، كان جوهرة في بلاد سرحدان لم نقدرها حق قدرها.

* * *

صباح الدفن، كان مطر رذاذ يهطل حزيناً ويمتزج بالدموع التي تتلألأ في مآقينا. بغتة صرخ تيمور قائلاً: «حبر يهطل من السماء».

نهضت واقفاً ونظرت إلى السماء الغائمة. سبحان الله. كنت تظن قطراتِ المطر نقاطَ عنبر على كتان أبيض! فتح كل منا كفيه يستقبل تلك القطرات ويشمها. لم أخفض بصري وظللت محدقاً في السماء. كانت رائحة المسك تفوح من المطر وعرفت أن ذلك من كرامات الشيخ. مرت لحظة ثم نظرت إلى ثيابي. يشهد الله أن رائحة المسك كانت تفوحُ فأدركت أن السماء كانت تمطر مسكاً لا حبراً.

ذو الجبة الزرقاء

كان ذلك قبل بضعة أعوام. ذات شتاء قارس، قُتل حاكم بايزيد الأمير محمد وكاتبه سليمان. وقتها غضب المرحوم ملا أحمد بن ملا إلياس وقال بوجوب تسنم ميرزا بيك، ابن الأمير محمد، مقاليد السلطة في الإمارة. وكان يقول أنى ذهب إن الوارث الشرعي للأمير محمد هو ابنه.

وكما كانت الأحوال مضطربة في بايزيد فقد كانت كذلك في اسطمبول. كان أحمد خان قد ورث الخلافة عن أخيه السلطان مصطفى وغدا سلطاناً للدولة العلية وافتتح خليفتنا المعظم حكمه بقتل المفتي الأكبر فيض الله أفندي على يد الانكشارية.

في ذلك العام، أتذكر، كان ملا إسماعيل رفيق المرحوم ملا أحمد يسخر مني ويقول: «والله يجب أن تخلف فيض الله أفندي في دار الفتوى. ما الذي ينقصك؟ فالرحى التي على رأسك كبيرة جداً ومسبحتك الكهرمان طويلة جداً وزد على ذلك أن مريديك كثيرون جداً!»

كان هو والمرحوم يحسدانني. كان عدد طلبتهم لا يبلغ ربع عدد مريديّ وأتباعي. فمن ألشكرد حتى أرضروم، ومن موش حتى وان وخنوس وحتى بلاد هكاري وبوهتان انتشر أتباعي، فلماذا إذن لا يحسدانني!! ولأني من مدينة وان فقد كادا يتشظيان غيظا. فالمعروف أن أهل سرحدان يناصبون أهل وان العداء منذ أجيال عدة. لكن يوجد

في أهل سرحدان عقلاء يعرفون قيمتي وكثيرون منهم أتباعي. أليس جناب الأمير من سرحدان؟ والله إنه يهبني كل عام كسوة جديدة.

لم أكن أحب ميرزا بيك بل رأيت عمه، أميرنا الحالي عبد الفتاح، أجدر منه بالإمارة. وبالفعل فقد صدر فرمان همايوني نصبه أميراً على بايزيد، مما زاد من الضغينة في قلب المرحوم وقلب ملا إسماعيل.

كان المرحوم ملا أحمد قد رثا الأمير محمد حين مقتله بقصيدة دعا فيها الله تعالى أن يحرس وريثه. صحيح أنه ذكر فيه الأمير عبد الفتاح أيضاً بالخير، إلا أنه لم يخف ميله إلى ميرزا بيك وسماه الدرة اليتيمة.

ولقد جعلت هذه المرثية، التي منح فيها الخاني الأميرَ محمد لقب بادشاه سرحدان ومدح فيها ابنه ميرزا بيك كثيراً، العلاقة بين الخاني وبين الأمير عبد الفتاح فاترة. ونأى الخاني أيضاً بنفسه عن الأمير فلم يعد يحضر مجلسه إلا نادراً، حتى أن الأمير قال لي عدة مرات: «إنني لا أريد أن يغيب عالم بمنزلة الخاني عن مجلسي» وكلفني أن أدعو الخاني إلى الديوان الأميري، لكنه كان يعتذر كل مرة بحجة جديدة.

والآن وقد رحل الخاني من دار الفناء إلى دار البقاء، أدركت الرحمة قلب أميرنا وتكفل بكل مصاريف الدفن والغسل والتكفين وإطعام المشيعين وسائر المعزين القادمين من مدن أخرى. ولقد وهبني أنا لوحدي اثنتي عشرة آقجة ثمن قراءة التلقين.

* * *

أنا شيخ سرحدان

لم أقرأ أي كتاب ولم أرث الطريقة عن أي شيخ ولم يكن حتى آبائي وأجدادي شيوخ طرق. بل إن مشيختي موهبة ربانية، لذلك كان المرحوم وأصدقاؤه من الشيوخ يعادونني. كانوا يحسدونني لأن المرضى يلقون الشفاء على يدي والمجانين يعقلون والحمى تذهب عن المحمومين يبرأون. أتفل في العين الرمداء فتصح حالاً. والمريدون الذي يشربون الماء الذي يفضل عن وضوئي، لا تصيبهم الأدواء العصية. حبلت عشرات النسوة بشفاعة تعاويذي وتمائمي ومسحي على بطونهن. درت البقر والعنز والغنم والجواميس التي جفت ضروعها الحليب إذ دعوت لهن. والدجاجات التي ما عادت تضع البيض، أصبحت ببركة دعائي بَيُوضاً تضع في اليوم بيضتين! تمائمي جعلت من العنين فحلاً يذهب لفراش زوجته في الليلة الواحدة عدة مرات. أما الزوجان غير المتحابين فيصبحان سمناً على عسل بحجاب أكتبه لهما. أقسم بالله، لو أني كنت في زمن مجنون بايزيد لأنقذته من جنونه وهيامه. لقد كان الآلاف من المريدين يتوافدون كل سنة إلى تكيتي من بلاد هكاري وبوهتان وحتى بهدينان، ومعهم الرايات الخضر يقرعون الطبول ثم يتوبون على يدي. كانت صيحات «الله هو» تصدر من المريدين الذين تأخذهم الجذبة فتصل إلى عرش الله

تعالى. أما في مسجد المرحوم فلم يكن عدد التلاميذ يصل في الغالب إلى ثلاثين أو أربعين تلميذاً وهم يهمهمون محاولين حفظ دروسهم.

كانت كراماتي قد أضحت مضرب المثل، أما المرحوم الخاني فلم يكن – مع أن الناس كانوا يعتبرونه شيخ طريقة– ليستطيع إظهار ولو كرامة واحدة! زعم أهل بايزيد أن مطراً تفوح منه رائحة الحبر هطل يوم دفنه!! ألم أكن هناك وأقرأ دعاء التلقين؟ لم ألاحظ أي مطر أسود. أحياناً تمطر السماء مطراً ملوثاً، وقد يكون ذلك ما هطل يومذاك.

لقد كان شاعراً ولم يكن شيخاً. والشعراء يصادقون المجانين والمصابين بالسوداء. وفي القرآن عظيم الشأن آية تتحدث عن الشعراء وتقول إن من يتبعهم هم من الذين حادوا عن الطريق وباتوا يهيمون في كل واد وإنهم يقولون ما لا يفعلون. هذا ما يقوله الله تعالى عن الشعراء، فما الذي سنقوله نحن عنهم؟

ولقد كان رحمه الله، يكره الأتراك بما يفوق الوصف. الأتراك أيضاً من إخوتنا المسلمين. إن سلاطيننا وخاقاناتنا، عظماؤنا وخلفاؤنا من الأتراك فكيف يقوم رجل مثل الخاني ويعاديهم!؟ لو كان الأمر له، لَمَدَّ أهل سرحدان والكرد الآخرون يدهم إلى السيف وثاروا في وجه الترك والفرس! أيفكر أحد هكذا إن كانت له ذرة عقل؟ من نحن حتى نثور على دولة آل عثمان؟

وبدل أن يدعو الخاني إلى الجهاد ويحرض الشباب لكي ينخرطوا في صفوف جيش البادشاه المنصور، كان يدعوهم إلى التمرد! كان

جنودنا يقاتلون الكفار في لهستان والمجر والبغدان[15] ولا أدري أين أيضاً، بينما الخاني يدعو إلى رفع السيف في وجه الدولة العلية! أليس هذا هو الكفر الأسود بعينه؟ ألم يقرأ في كتبه أن شق عصا الطاعة على ولي الأمر كفرٌ؟

يقال أنه في كتابه الذي لم أقرأه ولا أود أن أقرأه يتحدث عن براءة إبليس الملعون! كذلك فهو يعج بالأفكار التي تعارض ديننا الحنيف الصحيح.

والله وبالله لولا أن الأمير عبد الفتاح أمرني لما صليت عليه ولا قرأت عليه دعاء التلقين. لكن ماذا أفعل، فطاعة الأمراء من طاعة الله تعالى.

*　　*　　*

الخاني لا يسمح لي بمداواته

حالما سمعت بمرض الخاني، لبست جبتي الزرقاء التي أهداها لي باشا وان قبل عشر سنوات، وذهبت لأعوده. كان في وضع بائس فلم تكن معدته تقبل الطعام ولا ينفك يتقيأ. وكان الجفاف بادياً على وجهه والنوم يمتنع عليه ليلاً. أردت أن أقرأ بضع آيات على طاسة ماء

(15) البغدان: جزء من رومانيا الحالية. المترجم

وأسقيه منه لكنه رفض وقال: «لا، لا. لا حاجة لي بذلك».

تعجبت من أمره! عالم مثله يرفض جعل آيات كتاب الله دواء لعلته! لكنني غضضت الطرف عن ذلك وذهبت لعيادته مرات عديدة. في المرة الأخيرة كان صوفي حيدر وملا إسماعيل والوراق الذي أكره ظله قد أتوا بالعطار المسيحي ووجدت العطار منكباً يركب دواء للخاني. غضبت كثيراً وكدت أرميهم بمسواكي، لكنني لم أنزل إلى مستواهم فقلت بلطف: «يا ناس! كيف تجرؤون على استعمال الأعشاب والأدوية عوض آيات الله؟»

كان ذلك العطار المسيحي – يوجد حتى عطارون يهود في كل مدينة يخلعون على أنفسهم صفة الأطباء– يقول إن هناك من سقى الخاني سماً! كان واثقاً من هذا وكأنه جالينوس أو بقراط ذاته. الله الله! يا لهذا الأمر العجب! من سيسقي الخاني سماً؟ أغلب الظن أنه بقي طويلاً تحت مطر الخريف وتعرض للبرد فأصابته حمى شديدة. لقد لمست جبينه فوجدته مثل تنور مسجور، وكانت أنفاسه حرَّى وكأنها تهب من جهة نار سال عليها الدهن.

كنت أنوي قراءة المعوذتين وبعض الآيات عليه وكان سيبرأ، لكنه وصحبه كانوا يؤمنون بحيل ذلك العطار الأرمني وشعوذاته ولم يثقوا بعلمي الرباني. لقد كففت عن عيادته بعد أن رأيت ذلك العطار المسيحي في حجرته. إنهم يلجأون لكافر من أجل التطبب! ويحهم! لا يستحون من المخلوق ولا يخافون من الخالق!

*   *   *

أي حبر يا رجل!

أقسم بقبر والدي أن ما قيل ليس صحيحاً. مطر الحبر! يا للعجب!! ألم أكن أنا أيضاً هناك؟ تيمور، الفاسق الملحد وشريد الأزقة، نهق مثل حمار وقال إن السماء تمطر حبراً!! نظر الجميع إلى السماء وأخذوا يشمون قطرات المطر التي تسقط على أكفهم. حتى أن الخطاط ياوز من ألشكرد صدق الأمر وبدأ يشم لثامه وينظر إلى السماء خائفاً.

لم يدعني تيمور أكمل دعاء التلقين كما يجب. لكنني أقسم برأس الشيخ قطب أخلاط[16] أن ذلك لم يكن حبراً. كان أسود! نعم، فربما امتزجت حبات المطر بدخان المواقد. الخريف في بايزيد بارد، ويوم الدفن كانت كل المواقد تنفث الدخان في السماء.

---

(16) قطب أخلاط: أو القطب الأخلاطي الشيخ شمس الدين، شاعر ومتصوف كردي من القرن السادس عشر. المترجم

الطبيب المسيحي

جاءني قبل مدة بائع الكتب صلاح الدين وقال: «أسرع يا خواجه زُهْراب فالشيخ أحمد الخاني يتألم كثيراً».

دالية الخوف والرجاء، المعرشة على وجه صلاح الدين النحيل الحنون، جعلتني أسرع إلى جراب الجلد الذي أضع فيه الأدوية وألحقه بعد قليل إلى بيت الشيخ.

ما إن وقعت عيناي على الخاني حتى سمعت وقع خطوات موت وشيك في عينيه. كانت عيناه تشيان بالتسمم، فقد كانت أطرافهما محمرة ووسطهما مائلاً إلى الصفرة. كانت عيناه ذابلتين مثل سراج لم يبق فيه زيت.

لم أعرف حينذاك أن السم انتشر في بدنه! فظننت أنني سأقدر على علاجه بالأعشاب التي أغليها له وأسقيه منها كالنعناع وعصير العنب الأحمر المتبقي حتى أواخر الخريف في الكروم، أو بالثوم الذي كنت أهرسه وأخلطه بالعسل وحبة البركة.

كنت أزوره مرة كل بضعة أيام في حجرته العابقة برائحة الحبر والدارصيني والمسك وأفرغ عند رأسه جراب الدواء. كنت أريد تركيب ترياق لم يركبه طبيب قبلي، لكنني كنت أدرك أن داءه وبيل وأن من سقوه السم سعوا إلى قتله المحقق، لكن البطيء.

وذات ليلة ماطرة جاء صوفي حيدر وأخذني لزيارته من جديد.

مزجت ثلاثة مثاقيل من البابونج في قليل من العسل والحليب وصببت المزيج في قصعة مليئة بالماء وضعتها على النار. وعندما شرب الشيخ ذلك الترياق بدأ يتقيأ فبدا الخوف على الجالسين ونظروا في عيني بقلق. لكنني سررت وقلت لهم فرحاً: «هذه علامات الشفاء. فالسم الذي في جوف الشيخ لن يخرج إلا بالقيء. والعسل إن خالط ماء البابونج صار ترياقاً...».

كنت أريد التحدث للحاضرين عن الأعشاب وفوائدها وإذ بالشيخ سيف الدين ذي الجبة الزرقاء يدخل الحجرة.

*   *   *

لا شاغل للشيخ سيف الدين ذي الجبة الزرقاء في بايزيد سوى مناصبتي العداء. إنه يمنع الناس من القدوم إلي للمعالجة مدعياً أنه لا يجوز للمسلم أن يتعالج على يد الكفار!

وأحياناً يتناهى إلى سمعي أنه يقول: «إن هذا الطبيب المسيحي لا يفهم شيئاً. وبدل أن يضع الكحل في العين، يعميها. حذار من زيارته حذار».

كان يطلب عن كل حجاب يكتبه للناس عشر آقجات. وبشعوذاته صار يعالج حتى البقرة جافة الضرع والدجاجة المنقطعة عن البيض والفرس الحرون وحتى الصقر الذي لا يصيد! والناس لأميتهم

وجهلهم بدجله، يذهبون إليه زرافات ووحداناً. ولديه دواء لكل علة. فالعقم وبكاء الأطفال ليلا والعنة والسيلان وحتى سقوط الحمير تحت ثقل الأحمال يجد لدى هذا الشيخ علاجاً ما.

إن أكبر ثروته هي جهل الناس. ولكن ما لي ولمعاداته! وبالرغم من أن العديد من المصابين بالملانخوليا والمجانين ماتوا على يديه فلم أقل لأحد، ولو مرة واحدة، لا تذهب إلى الشيخ سيف الدين! لتفعل الناس ما يحلو لها.

لم أكن لأتدخل في عمله، لكنه مع ذلك يقول للمرضى: «إياكم والذهاب إلى هذا العطار المسيحي. إن ذلك مروق عن الدين!»

وفي تلك الليلة التي كنت أعالج فيها الخاني، أراد أن يقصيني عنه فقال للحاضرين: «ويحكم. كيف تجعلون أعشاب البرية أدوية بدل آيات الله تعالى؟» امتعض الخاني من كلامه، وقال بصوت يلفه ألم خفي: «لا تقل هذا يا شيخ سيف الدين. فالله أنزل الداء ومعه الدواء. وقد أمرنا ديننا ونبينا بالتداوي. ألا يقول نص حديث الرسول: تداووا؟»

قام الشيخ سيف الدين فجأة وارتدى جبته الزرقاء، ثم خرج خائباً من الحجرة ولم أره فيها ثانية.

* * *

دَجَلُ ذي الجبة الزرقاء

قبل أن يلف تلك العمامة البيضاء على رأسه ويرتدي الجبة الزرقاء ويطيل لحيته المحناة بقدر نصف ذراع، كانت الناس تستخف به وتلقبه سَيْفو. تعلم عندي تركيب بعض الأدوية. فقد كانت له رغبة في تعلم الطب لكن يعوزه الصبر. بعد فترة من الزمن سمعت الناس يتحدثون عن شيخ ذي كرامات. ولدى الاستفسار عنه، تبين أنه صاحبنا سيفو بذاته!!

على قدر جهل الناس هبط عليه المال. أنا لا أحسده. لا والله. لكني أقول حرام أن يخدع هذا الساحر المحتال الناسَ دون أن يردعه أحد! إنه يعرض حياتهم للخطر. ولقد مات بالفعل بعضهم نتيجة جهله. جيء إليه ذات مرة بشاب مصاب بالملانخوليا. لا أدري إن كان من قارص أو من بعض قراها. ربط هذا الشيخ مريضه على باب تكيته طوال أسبوع في صبارة القَرِّ والبرد وراح يجلده ثلاث مرات في اليوم، حتى أسلم الشابُ الروحَ في اليوم السابع.

وفي إحدى المرات جاءوه بطفل في السادسة أو السابعة من العمر. كان الطفل المسكين أبكم منذ الولادة. نُصِحَ أبوه في القرية أن يأخذه إلى الشيخ ليعالجه من الخَرَس. قام شيخنا، الذي لا يقول عن أي مرض: «لا أعرف علاجه»، وأحمى سفوداً على النار ثم كوى به لسان الطفل! لكن الله لطف به إذ أرسلوه سريعاً إلي، فعجنت له لبيخة

من الحبق والعسل وبذر الكتان ودهنت به لسانه المكوي. ولولا ذلك، يعلم الله وحده ما الذي كان سيصيب ذلك الولد المسكين.

* * *

صناعتي في الطب

كان آبائي وأجدادي أيضاً يعملون في مهنة الطب. أما أنا فقد صارت لي سنوات وأنا أبحث في تراكيب الأدوية ومعرفة الأعشاب والنباتات المختلفة. لقد سافرت إلى أصفهان وتبريز، وتجولت في بلاد الأناضول. سحت في بلاد فارس والعثمانيين وزرت مدن تلك البلاد مدينة مدينة حتى بلغت بأسفاري دمشق وبغداد. قرأت كتب الطب على أمهر الأطباء وعالجت المرضى. وتخرج على يدي الكثيرون من مدن أخلاط ويريفان وأرجيش وألشكرد وقارص وحتى وان وديار بكر ثم مارسوا الطب فيها.

كان بعض تلامذتي عديمي الصبر فلا يلبثون إلا قليلاً حتى يظنوا أنهم ملكوا ناصية المهنة وصار علم جالينوس وبقراط وابن سينا في جرابهم! أما بعضهم فكانوا يثابرون على العلم حتى أجيزهم في الطب وممارسته. وكنت أشفع كل من يتخرج لدي ويستعد للذهاب إلى بلاده بهذه النصيحة: «لا تعالج مريضاً بدواء لم تجربه قبلاً أو لم تقرأ

في كتب الحكماء عن خواصه. فكما يصير السم ترياقاً، كذلك يصبح الدواء سماً زعافاً. فها هو الزئبق الفرار يدخل في تركيب الأدوية، لكن إن قام طبيب جاهل بمقادير الزئبق في التراكيب وعمل عجينة أو مرهماً، ربما أودى بمريضه إلى الهلاك».

في سياحتي عبر المدن التي تحدثت عنها آنفاً، حصلت على كتاب للحكيم الأعمى داوود الأنطاكي الذي قتل قبل مئة عام في بلاد الحجاز مسموماً. كتابٌ يكاد يكون بيمارستان لما فيه من وصف لأنواع النباتات والأعشاب المستخدمة في تركيب الأدوية والقول في أسمائها وخواصها وأماكن وجودها وطرق تركيب الأدوية منها. وحاصل الكلام أنك ترى كل ما تبحث عنه في ذلك الكتاب.

من علم داوود الأنطاكي وحكمته، علقت بذاكرتي عبارة أعجبتني كثيراً وهي التي تقول: «ليداوي الطبيب كل مريض بأعشاب موطنه!»

ولقد تبعت هذا القول في علاج الخاني. فعملت له من أعشاب بايزيد، مثل البابونج والحبق والخردل والبقلة الحمقاء والخبيزة والحنظل والحميضة، ومن أزاهير البرية مثل البنفسج والحندقوق والأقحوان والياسمين والسوسن وحتى عسل الكهوف، عملت منها كلها ترياقاً ليمتص السم المتراكم في بدنه. وجعلته يحتجم بضع مرات وفصدت الدم الفاسد بالموسى.

كنت أغلي السماق وأمزجه بالعسل وأسقيه من المزيج لقطع القيء

والإسهال عنه. فقد تحدث الأطباء عن فوائد السماق في هذه الحالة كثيراً ويقول ابن سينا المشهور في كتابه القانون: «السماق يسكِّن الغثيان ويمنع النزيف ويقطع العرق وهو دابغ للمعدة مقو لها». وكذلك يصف الطبيب ابن البيطار وداوود الأنطاكي السماقَ لعلاج الغثيان والإسهال. لكن وا أسفاه إذ لم ينفع المرحوم أحمد الخاني ما عملته من مغلي السماق. كان يسكن غثيانه وإسهاله قليلاً لكن السم الساري في دمه لم يكن ليخرج.

لا أعرف من هو، لكن الذي دس السم للخاني إما طبيب أو رجل يعرف خواص الزئبق الفرار وتركيب السم السليماني، فليس من الممكن بأي وجه من الوجوه أن يعيش رجل تغلغل هذا السم في دمه. إن الذي سعى إلى قتله بالسم، أراد أن يكون هذا القتل بطيئاً. هناك سر خفي في الأمر لكنني لا أعرف كنهه!

حين زرته للمرة الأخيرة، رأيته شاحباً وقد اصفرت حواف عينيه اصفراراً شديداً. حينذاك سمعت قرع طبول الموت يتعالى منهما! أما عن الحمى فحدث ولا حرج. كانت تتركه حمى فتأتيه أخرى. والحمى في اصطلاحنا، نحن الأطباء، بريدُ الموت. لذلك قلت للشيخين اللذين رافقاني إلى الباب حين انصرفت من زيارته: «دعوا الشيخ يقول وصيته. إنه في الرمق الأخير».

ولما فتحت الباب لأخرج، أطفأَت الريحُ التي كانت تهب خارجاً، السراجَ على رأس الخاني.

ملا صالح الجزري

الخاني في جزيرة بوطان

كنت أعرف المرحوم الخاني منذ أن كنا طلبة فقه في جزيرة بوطان. كان قد جاء عبر بلاد هكاري إلى الجزيرة حيث درسنا سوية في المسجد الأحمر. كنا نذهب أحياناً كثيرة ونجلس على سور قلعة الجزيرة لنتأمل في نهر دجلة. كانت المياه، التي تلف خصر الجزيرة بهيام، تظهر في وهج الشمس مثل بساط منسوج من خيوط الزبرجد والفيروز.

كان الخاني قد جاء إلى الجزيرة بغية تعلم النحو والصرف وعلوم البيان والبلاغة العربية. وكان صيت أستاذنا ملا رسول الفارقيني قد جاوز كل الحدود وكان مشهوراً باسم الملا ذو اللسان الباتر. كان داهية لا يشق له غبار واعتبره الناس سيبويه الثاني في علوم اللغة العربية وأشهر النحاة في جميع أرجاء بلاد الأكراد. كان طلبة العلم يأتون من جهات كردستان الأربع إلى المدرسة الحمراء لتعلم اللغة العربية وتفسير القرآن على يد ذلك العالم. وكنا نحن الطلبة الأكراد نسميه الزمخشري الكردي، فلقد كان كتاباً يمشي على قدمين.

كنا أنا والمرحوم نحفظ دروسنا في ظلال أشجار المشمش والتين واللوز المنتصبة في باحة المسجد، ونذهب أحياناً بمعية الطلبة الآخرين

إلى الحديقة الأميرية ونتفرج من جهة على غزلان الأمير وطواويسه ومن جهة أخرى نلهو ونلعب. صباح الآحاد، وحينما كانت نواقيس الكنائس تدق، كان وجهه يشرق بالفرحة فيقول: «اسمع يا صالح! إن الله ينادي عباده بطرق كثيرة».

الحق أقول، لقد كنت أكره صوت الناقوس وكنت أردد دائماً: «ما دامت هذه البلاد بلاد الإسلام فلا ينبغي أن ترتفع فيها أصوات النواقيس!» إلى أن جاءني المرحوم ببعض كتب التصوف وقرأها لي فأدركت أن معبد لالَشْ وأديرة النصارى وكنائس اليهود كلها بيوت الله! حتى معابد النار وهياكل الأصنام محسوبة من بيوت الله.

كان حاد الذهن متوقده لدرجة أن أستاذنا قال عنه ذات يوم: «لو استمر الطالب أحمد من سرحدان على هذا المنوال فسيصبح عالماً نحريراً». وفي الحقيقة فقد كان يشرح لنا ما يستعصي على أفهامنا مما يلقننا إياه الملالي ويبسط لنا المسائل حتى نفهمها.

كانت السنة التي أقام فيها في الجزيرة، سنة طيبة بهيجة لي، فلقد كان إنساناً لطيفاً هادئاً حتى لكأنه ملاك من ملائكة الرحمن هبط إلى الأرض. ما كان يغضب أحداً ولا يؤذي حتى النمل. وبفضله زال عن قلبي كره اليزيديين وبغضهم حتى أنني صادقت بعضاً من يزيديي جبل سنجار وآخيتهم.

* * *

كنا نذهب أيام الجمعة لزيارة ضريح الشاعر المتصوف ملا أحمد الجزري ونقرأ على روحه آيات من الذكر الحكيم ثم نبقى خاشعين عند شاهدة قبره. مرات كثيرة كان المرحوم يغادر الضريح بعيون مغرورقة بالدمع ويتجه حزيناً إلى الحُجرة، ينحني على أوراقه وينظم قصيدة. كان يحب لهجة أهل بوطان ويمزجها بلهجة أهل سرحدان ويتكلم بمزيج من اللهجتين. كان حديثه حلواً كالعسل وقلبه واسعاً كسهل فسيح ونفسه متواضعة. وكان يعشق طبيعة جزيرة بوطان ولا يترك زاوية فيها إلا وزارها. المساجد والمدارس والكروم والبساتين والطواحين والحمامات والقيساريات والحوانيت وطرفا النهر، كل ذلك كان قد أصبح أحب الأماكن إلى قلبه يتنزه فيها.

كان يستيقظ باكراً قبل أن تشرق الشمس من وراء جبل الجودي وتشق بقرونها الذهبية بطن السماء، فيصلي الفجر ثم يعود لنومه. وذات يوم قال لي بعد انتهاء الصلاة: «يا صالح! تعال لنتفرج على شروق الشمس».

صعدنا ذلك الصباح إلى سطح المدرسة ونظرنا إلى الشرق. كانت النجوم تلمع مرتعشة كبقايا الجمر في موقد، بينما الشفق الأحمر ينزاح مثل ستارة أرجوانية من أمام الفارس الذهبي الذي يتسلق جبل الجودي بصمت.

اختلط حفيف أوراق الأشجار بهفهفة النسيم العليل وشدو الطيور

وصياح الديكة وأشرقت الشمس بغتة فأضاءت أولاً أعلى البرج الذي اسمه البرج الأبلق الذي يسميه بعضهم برج شَرَفْ، ثم عرَّجت على ثلاثمئة وإحدى وستين منارة رشيقة فأضاءتها وقبلت القباب ثم هبطت في القوس المائي لدجلة واختلطت كالتبر في مياهه.

كان الخاني صامتاً. ثم ظهر ضوء شفيف في عينيه وقال لي: «الحب أيضاً كذلك يا صالح! إنه لا يقبل الحجب ولا يمكن إخفاؤه».

* * *

في ليالي الجمعة كنا نسهر حتى الفجر ونحن نستمع إلى صوت فَقَه خليل السيرتي من حصن كيفا. كان له صوت ساحر ينشد به قصائد الجزري على مقامات البوطيين. وأحياناً كان يغني قصة ممى آلان المشهورة بين أهل الجزيرة. وذات ليلة أنشد قصيدة الملا الجزري، التي مطلعها:

الحمد لله إذ وهبتني اليوم ذات الوجه الدري خمر جمالها خفية
وصبت الكأس الملكية من جاذبيتها خمراً في فنجان الصدف

هاجم كل من جنكيزخان وتيمورلنك واصطف الهنود والزنوج
صفاً وراء صف

لم يرفع يده اليمنى عن أذنه، حتى أنه لم يمسح العرق المتصبب من جبينه ولم يفتح عينيه حتى أنهى القصيدة. سألني الخاني، وكان قد بقي صامتاً يصغي بانتباه حتى نهاية الإنشاد: «ألم يكن الأمير شرف الذي يتحدث عنه الملا أحمد الجزري، أمير الجزيرة؟»

* * *

الأمير شرف

نعم. كان شرف أمير الجزيرة. إنه ابن عبدال خان ابن ناصر بيك البهتي. وكان له أخ اسمه الأمير أزدين هو أصغر إخوته. شق هذا الأخ عصا الطاعة على أخيه وطلب الإمارة لنفسه بدسيسة من بعض الأمراء ويقال أن ذلك كان مؤامرة من كبير أمراء دياربكر. وانضم إليه في دعوته الآلاف من الرعاع والصعاليك والفقراء وساروا تحت لواء عصيانه. وكان الأمير أزدين يواصل الغارات الليلية على أطراف الجزيرة فيسلب وينهب، حتى لم يعد بإمكان أحد من الجزيرة المبيت خارج قلعتها أو النأي عن عمرانها.

ولما وجد الأمير شرف أن مصيبته نبعت من تحت أنفه وأوشك

أخوه على إطاحته من عرش الإمارة، كتب رسالة وبعثها مع رسول إليه قائلاً فيها: «يا أخي! أليست هذه الأيالة ملكنا نحن الاثنين! ما الفرق إذن أن تكون أنت الأمير أو أنا؟ دمنا واحد يا أخي. ولقد حملتنا بطن واحدة ورضعنا من صدر واحد. وعبدال خان والدنا نحن الاثنين. تعال إذن إلى قصر أخيك لتجلس أنت في عرش الإمارة. أما أنا، وأقسم لك بتربة جدنا خالد بن الوليد ، فسأصبح ساقي القهوة في مجلسك! تعال وليكن صدر الديوان لك وعتبته لي. تعال لتكون أنت الأمير وأكون أنا الخادم».

ولبى أخوه دعوته وجاء إليه. كان الأمير شرف جالساً على مسند الإمارة مرتدياً شعارها. في يده قوس ونشاب وبجانبه صقره الذي ينظر بعينين مفتوحتين فيما حوله بينما الأمير يلعب برباط قائمته. كان القصر يعبق برائحة البخور والمجامر وكأنه روضة ربيعية. لحظة دخل الأمير أزدين هش له أخوه الأمير شرف، ثم نهض وغمز لعدد من رجاله كانوا مختبئين وراء الستائر. أدرك الأمير أزدين أنه وقع في المصيدة، سل خنجره ذا المقبض العاجي وهجم على أخيه. خرج ستة رجال من وراء الستائر ورسموا حوله دائرة موت. أما الأمير شرف، فقد راش سهماً وشد عليه وترَ القوس المصنوع من شعر ذنب الفرس وأطلقه على أخيه فانغرز السهم في حنجرته. أراد الأمير أزدين الجريح أن يقول شيئاً لكن السهم كان قد أودى بصوته. انهال عليه أولئك

الرجال الذين خرجوا من وراء الستائر طعناً بالخناجر فتركوه جثة هامدة في لحظة عين.

بقي الأمير شرف في مكانه لا يتحرك. مسح على رأس صقره وألقى بين مخالبه حمامة ذبيحة، ثم قال لأولئك الرجال: «خذوا جثته وادفنوها. ودعوا ذلك السهم مغروزاً في حنجرته ليصبح عبرة للآخرين».

* * *

الشاعر والأمير

«أكانت هذه هي سهام الأمير شرف؟» سألني الخاني وهو يكاد يجهش بالبكاء حين سردت عليه أحداث إمارة الجزيرة.

بعد ذلك تحادثنا طويلاً حول الملا الجزري، وكان الخاني يقول: «كيف لشاعر عظيم وعارف كبير في مرتبة المرحوم الجزري أن يصبح مادح من يقتل أخاه! كيف له أن يقول لممدوحه: كل من خرج عن طاعتك وتمرد/ فليكن قتيل سيفك وسهمك! هذا ليس دأب أهل العرفان، ولا الصوفية والعارفين بالله. ولا حتى دأب شاعر عاشق».

ومع أنني كنت أحاول كثيراً اختلاق الأعذار للجزري فأقول مثلاً: «كان الأمير شرف مضطراً لقتل أخيه من أجل استقرار الدولة ومصلحة

الإمارة وحقناً لدماء الأبرياء». إلا أن الخاني ما كان يقبل مثل تلك الذرائع ويقول: «أنا لا أعترض على الأمير يا أخي! لكنني أرى الجزري مذنباً إذ صار يمدحه ويطالب بالموت لمعارضيه! إن العارف والعالم لا يصبح من أعوان الظالمين. وإن جالسهم فلكي يعظهم وينصحهم لا أن يصبح عبداً على أبوابهم وغلاماً في قصورهم أو سائس خيلهم».

لم أكن إلى ذلك الحين قد سمعت أو رأيت أحداً يعترض على الجزري وينتقده. بل كان الجميع يحلفون بضريحه ويطنبون في مدح مهارته وعلمه. كان العشاق يجعلون قصائده حطباً لمواقد قلوبهم، وكانت تلك القصائد تصبح في المجالس شموعاً تضيء ليالي طلبة الفقه والملالي. لذلك ساءني ما يقوله الخاني عن الجزري وأردت الدفاع عنه أكثر فهو مفخرة الجزيرة وسائر بلاد بوطان وهو سراج ليل كردستان كما يقول هو بنفسه عن نفسه، فقلت: «يا أحمد! إنه على كل حال شاعر كبير من شعرائنا ومفخرة أهل هذه البلاد».

رد الخاني بمرارة: «نعم يا صالح، إنه كبير وقصائده في مرتبة قصائد حافظ الشيرازي والجامي. ولم يستطع أحد من الأكراد أن يرفع راية الشعر عالياً مثله. حتى المرحوم قطب أخلاط لم يستطع نظم القوافي على منواله. أنا لا أنكر هذا ولا أشك في شاعريته. لكنني أقول كيف لشاعر كبير، مشربُه العرفان والتصوف والمحبة الإلهية، أن يغض الطرف عن جرائم أمير! لا ليس هذا وحسب بل ويكيل له المديح في شعره!»

* * *

وذات صباح قمت فلم أجد أثراً للخاني في الحجرة! كان فراشه ما يزال دافئاً وعرفت أنه غادره قبل قليل. فذهبت أقتفي أثره وتوجهت أولاً إلى ضريح الملا الجزري فلم أره هناك. ثم ذهبت إلى قبر العاشقين مم وزين فوجدته جالساً عند شاهدة رأسيهما ساهياً ساهم الطرف. وما إن أحس بوجودي حتى التفت إلي وقال بصوت خفيض يلفه ألم كامن وهو يشير إلى القبر: «أتعرف يا صالح! هذان شهيدا عشق رباني. هذان قتيلا أمير على شاكلة صاحبك الأمير شرف. وا أسفي عليهما».

ثم ابتسم حتى بدا وجهه مثل وردة نضرة وقال: «إذا لم تجدني في الحجرة فستلقاني هنا. أنا ساخط على الملا الجزري ومخاصمه ولن أزوره فترة».

ومنذ ذلك اليوم أصبح هو وفقه خليل السيرتي صديقين، فكان يطلب منه كل ليلة أن يغني قصة ممى آلان ويصغي إليها صامتاً حزيناً.

ذات يوم قال لي: «إن عدت إلى بلاد سرحدان فسأنظم قصة مم وزين شعراً. إنهما قتيلا حب جلاد وضحيتا أمير ظالم. سأحييهما من جديد وأبث لواعج قلبي من خلالهما».

وحين أنهى عامه في الجزيرة، تهيأ للعودة إلى بايزيد. جمع ديوان الجزري ومنظومة حكاية الشيخ الصنعاني للشاعر فقه طيران، بالإضافة إلى كتبه ودفاتره وثيابه وجاء ليودعني ويغادر. قلت له مبتسماً: «ألن تجنح مع الجزري للصلح! تعال لكي تودعه».

قال كمن أخذ على حين غرة: «أوه! الجزري! إنه سراج ليل كردستان وزيت قناديل قلوب العاشقين ولن أخاصمه. كان لي عليه عتاب. فليته لم يكتب تلك المدائح. سوى ذلك لا اعتراض لي عليه. إنه أستاذ فن الشعر وحامل لوائه الأعلى. إنه يضاهي بشعره حافظ الشيرازي، فمن أنا حتى أخاصمه».

وذهبنا سوية إلى حضرة الضريح.

من هناك قفلنا راجعين إلى مسجد المدرسة فصلى على نية التوفيق في السفر بضع ركعات، ثم ذهب فودع ملا رسول الفارقيني وانضم إلى القافلة التي انطلقت عبر موش إلى بلاد سرحدان.

* * *

أنا أيضاً في بلاد سرحدان

منذ خمسة عشر عاماً وأنا أقيم في بايزيد. وحينما وصلت من الجزيرة إلى هذه البلدة، كان الأمير عبدي مايزال على قيد الحياة، كان

المرحوم الخاني كاتب ديوان الأمير ومنشئ رسائله ومناشيره ولم يكن قد أنهى كتابة مم وزين بعد. وقد ابتهج كثيراً حين رآني قد هاجرت مع أولادي إلى هذه الديار. أتذكر أنه حين انتهى من صلاة الظهر في المسجد، بدأ التسبيح ثم حانت منه التفاتة إلى الوراء. وإذ رآني نهض وجاء يعانقني. لقد عرفني مع أن سنين طويلة كانت تفصل بيننا وبين آخر لقاء لنا في الجزيرة. سألني الخاني فرحاً: «ملا صالح! أنت في بلاد سرحدان؟»

أخبرته أن الجزيرة لم تعد جزيرة الأيام السالفة، فليس للعلم فيها قيمة تذكر وقد التجأت إلى صيت علماء بايزيد وشهرتهم. ضحك الخاني، ضغط على يدي بمودة بالغة وقال: «سوق العلم والأدب كاسدة في كل مكان. لكن حسناً فعلت إذ أتيت. لقد جئت في الوقت المناسب».

كنت شاهد كتابة مم وزين. كان يقرأ لي كل صباح ما كتبه في الليلة الماضية ويسألني عن أسماء بقاع الجزيرة وطبيعتها ومياهها ويقول: «لم أعد أتذكر جيداً كيف كانت الجزيرة! أريد وصف كل الأمكنة لكنني لا أتذكرها».

وذات مساء خرجت من البيت وتوجهت إلى حجرته. فرأيته في ضوء السراج الخافت ينثر الرمل على أوراقه التي كان قد كتب عليها آنفاً لكي يجفف حبرها. تحدثنا قليلاً عن سنته التي قضاها في الجزيرة طالب علم وسألته: «أتتذكر أنك خاصمت الملا الجزري!! ها أنت

اليوم كاتب ديوان الأمير ميرزا بيك».

لم يكن يتوقع سؤالاً كهذا لكنه مع ذلك ابتسم وأزاح أوراقه جانباً، وضع الغطاء على مرملته وقال: «يا ملا صالح! لقد كنت كاتب أبيه الأمير محمد أيضاً. لكن عملي في الديوان ليس عوناً لهم، فإن ظلموا لن أسكت على ظلمهم. أنا مستشارهم ولست عبداً على أبوابهم. لم أكتب حتى الآن ولو قصيدة في مدح أحدهم. وأنا أفعل كل ما في وسعي لخير الناس. ولو قتل أحدهم ،لا سمح الله، أخاه كما فعل الأمير شرف، فلن أسكت مطلقاً. إن من واجب العلماء أن يقفوا في وجه الأمراء ويقولوا الحق حتى ولو قطعت رؤوسهم».

كان قد عقد على الأمير ميرزا بيك آمالاً كبيرة ويقول: «لو أصغى إلي الأمير لجعلت من بايزيد دار علم كبيرة يأتي إليها الطلبة من أطراف كردستان الأربعة ليدرسوا فيها. لو أطاعني لجعلت بايزيد تنافس تبريز وأصفهان واسطمبول».

كان يريد أن يني في بايزيد سوقاً للوراقين لينسخوا الكتب ويبعثوها إلى ولايات الأكراد، وكان يقول: «إن ثواب بناء سوق للوراقين ليس بأقل من ثواب بناء مسجد». لكن الأمير ميرزا بيك لم يلتفت إليه. فلا هو قطع علاقاته بالترك ولا هو نفذ للخاني مراميه في بناء سوق الوراقين.

ولقد أظهر الخاني في مستهل كتابه مم وزين امتعاضه الشديد من الأمير وعتبه عليه، بل وانتقده بشدة. وحينما صدر الخط الهمايوني

الشريف من الآستانة بعزل ميرزا بيك وتعيين إبراهيم بيك البسياني خلفاً له في حكم بايزيد، ثارت ثائرة الخاني وصار يقول في مجالسه: «كم مرة قلت للأمير لا تثق بالترك! كم مرة قلت له سر على خطى جدك أمير سرحدان الأمير محمد وتحالف مع أمراء الكرد في بدليس والجزيرة وإسعرد وحصن كيفا! لم يصغ إلي وها قد رأيتم ماذا فعلوا به!»

بعد ذلك اعتزل الخاني عمله في الديوان إذ لم يكن على وئام مع الأمير إبراهيم. واكتفى بتدريس طلبة الفقه وإمامة الناس في الصلاة. كان محبطاً فنأى بنفسه كلياً عن مجالس الأمراء. كانت نار الخلاف قد استعرت في عائلة أمراء بايزيد، وكل واحد من العائلة يتجه إلى باشا ولاية وان للحصول على فرمان التعيين لنفسه. وقبل عدة سنوات، وحينما اقتحم بعض أفراد العائلة الأميرية قصر الأمير محمد بن الأمير عبدي وقتلوه في شهر رمضان مع كاتبه سليمان، هاج الخاني وغضب أشد الغضب. وفي خطبة عيد الفطر قام يخطب في الناس قائلاً: «لقد وصلت النار إلى سرير الإمارة أيضاً. وإنكم أيها الأمراء لا تعتبرون، ويصبح أحدكم قاتل أخيه. لا يهمكم راحة الخلق بل يضع أحدكم المدية على رقبة أخيه بعون من الترك. أنذركم فقد آلت شمس دولتكم إلى الزوال وستغرب عما قليل».

كانت تلك الخطبة قد أثارت الناس كثيراً. وذهب بعضهم لينقلوا كل ما قاله الخاني إلى الأمير عبد الفتاح. وأراد الأمير إرضاء الخاني

وإصلاح ما بينهما. لكن هيهات، لم يرض الخاني وبقي مصراً على مقاطعة الأمير وعدم الذهاب إلى الديوان.

كان الخاني، مثل رعايا بايزيد، يريد أن يتسلم الأمير ميرزا ابن الأمير محمد القتيل مسند الإمارة، لكن الترك أرادوها للأمير عبد الفتاح وأصدروا بذلك فرماناً سلطانياً. كان الأمير قد دفع لباشا وان عشرة آلاف فلوران واشترى الإمارة، لكنه لم يستطع شراء رضا الخاني بمال الدنيا كلها. وقد أصبح الخاني يقول في مجالسه علانية: «إن الأمير عبد الفتاح ليس أهلاً للإمارة. فمن شروط الإمارة الوراثة والقابلية ورضا الناس. وهو ليس الوارث الحقيقي ولا قابلية له. أما رضا الناس فلم يكسبه أبداً».

* * *

في الآونة الأخيرة، وقبل وفاته بحوالي شهر، سمعت أن الخاني سيكتب رسالة للأمير. فذهبت إليه وقلت: «ما الحاجة لكتابة رسائل! اذهب بنفسك إلى الأمير. والله إنه يحترمك. فقم لتشيد هذا الجسر المنهار بينك وبينه».

غضب وقال: «إنني أمد جسرا بيني وبين ربي ولن أذهب إلى ديوان الأمير. فالأمير الذي ينصبه الترك ليس أميراً بل عبد. إنه عبد باشا وان. إنه خادم. خاااادم. أعرف أن نهايتي تكمن في رسالتي

هذه. لكن كتابتها وإرسالها واجب. إن لم أبعثها للأمير أذنب. وإن لم أنصحه أذنب. إنه الحاكم، نعم! لكنني أنا عالم. أنا صوت الناس وإن لم يسمع الأمير هذا الصوت فسيصبح فرعون جديداً. إن العلماء الذين يعرفون ربهم لا يخافون الأمراء يا ملا صالح».

بعد ذلك وقع مريضاً. كان مرضه غريباً ولم نعرف ما هو. لكن الطبيب الأرمني كان يقول: «إنه من أثر السم السليماني. سم تسرب إلى جسمه على مدى أيام ببطء». لكن أحداً منا لم يصدق أقوال الطبيب الأرمني. فمن سيسقيه سماً؟ وعلام؟ لم يكن له أعداء. وإن كان هو والأمير على خصام، فهذا لا يبرر قتله بالسم ولا يعقل ذلك. إن رجلاً في منزلة الخاني يجب ألا يعاديه أحد.

* * *

الليلة الأخيرة في حياة الخاني

كان المطر شديداً وكأن السماء ستنطبق على الأرض، والسيول تهدر وهي تتدفق في الأودية والشوارع وكأن طوفان نوح عليه السلام قد عاد من جديد. كنا أنا والملا إسماعيل وبعض من وجهاء المدينة عند رأس الخاني حينما جاءته نوبة من القيء. ولما هدأت قام فغسل فمه واستاك ثم غالبه النعاس فنام هنيهة ثم قام فجأة وهو يقول:

«أحضروا شَنْكي. فلتأت شنكي سريعاً. سأسر لها بشيء».

كنا، أنا والملا إسماعيل، نعرف أنه يتحدث عن شنكي ابنة الحاج زهدي التاجر. لكن الآخرين تعجبوا وقالوا: «سبحان الله! إن الشيخ يهذي».

إلى تلك الساعة لم يكن المرحوم قد نسي شنكي. كنا نظن أنها أضحت صفحة ضائعة في دفتر خياله. فلم يكن يفشي لأحد سر حبه القديم منذ ثلاثين أو أربعين سنة. وما كنت أعرف أنه يدجِّن تلك النار في قلبه، يعتني بها ويحضنها ويخفيها عن أعين الرقباء والوشاة! ما كنت أعرف أنه كالفراشة، عاشق يحترق في نار شمعة الحب في صمت وخشوع! وكم فتحنا كتب أسرارنا في الليالي وقلبناها صفحة إثر صفحة، لكنه لم يكن يحدثني عن شنكي. وكأنها أصبحت رماد نارٍ منطفئة تركها خياله البدوي وراءه بين أثافٍ ثلاث! لكن ريح العشق هبت مع أنفاسه الأخيرة، فألهبت تلك النار من جديد، أزاحت الحجاب المسدل على الجحيم المستعر في قلبه فرأينا الشيخ في مقام الفناء المطلق.

كنت ما أزال ساهياً غارقاً في تلك الفكر والخيالات، حين فتح صلاح الدين الوراق الباب ودخل. بدخوله دخلت نسمة هواء باردة أيضاً وأطفأت السراج عند رأس الخاني. كنا نعرف أن الحمى بريد الموت، كنا نعرف أنه لم يبق له إلا القليل ليرحل عن الدنيا، لذلك وجدنا في انطفاء السراج فألاً سيئاً وشؤماً.

قام الملا إسماعيل ليشعل السراج لكن الخاني منعه بإشارة من يده وانحبست أنفاسه فذبل وجهه وظننا أنه أصبح في النزع الأخير. لكنه عاد يتنفس، ورفع رأسه قليلاً ثم وضع يده على صدره وقال: «السراج الحقيقي هنا. لا الريح ولا الإعصار ولا العواصف بقادرة على إطفائه».

ثم أغمض عينيه واستسلم للنعاس. أما نحن فقد غرقنا في الصمت واستمعنا إلى صوت وابل المطر الذي يهطل خارجاً. وبغتة استيقظ الخاني وجلس، جال بعينيه وصرخ: «أين شنكي؟»

* * *

مع تلك الصرخة، دخل الطبيب الأرمني مع جراب الأدوية إلى الحجرة. قام بعض الجالسين وأفسحوا له طريقاً حتى فراش الخاني الذي أراد أن يستوي جالساً احتراماً إلا أن الطبيب أمسك بيده وقال له: «أستغفر الله يا شيخ! تفضل تمدد. سأجس الليلة نبض قلبك».

كان صوت المطر يختلط بصفير رياح حزينة في الخارج وكأن الليل ينوح حزناً على الخاني. كنا نحن أيضاً حزانى وكأننا نحضر مأتم الخاني ولم نأت لمواساته!!

أمسك الطبيب بيد الخاني اليسرى ووضع إبهامه على عرق وانتظر قليلاً. تجهم وجهه. أفرغ صرراً من جرابه وأخرج منها بعضاً من

السماق وزهور البابونج المجففة وقال: «هاتوا ماءً مغلياً فسأركب ترياقاً لجناب الشيخ».

وما إن حضر الماء المغلي، حتى وضع فيه السماق وزهور البابونج وأتبعهما بملعقة من العسل كان في قارورة. بعد برهة قصيرة أخرج الثفل وناول الخاني ذلك الماء. شرب الخاني على مهل حتى بدأ العرق يتصبب على جبينه وقال: «سأنام إن أذنتم».

ونام.

جئت بالقارورة التي كان فيها بول الخاني، وناولتها الطبيب الذي قلبها عدة مرات رأساً على عقب ودقق فيها النظر على ضوء شمعة من الشموع التي كانت تضيء جنبات الحجرة. ودون أن يقول شيئاً وضعها في كيس ثم جمع صرر أدويته ووضعها في الجراب وقال لي أنا والملا إسماعيل ونحن نرافقه إلى الباب: «الشيخ مريض للغاية. كنت قد قلت سابقاً إنه سقي سماً. سماً زعافاً. أعتقد أنه سقي زئبقاً وما يسميه الناس السم السليماني. لقد أفسد هذا السم دمه والبرء منه صعب. حالته صعبة جداً لكن يبقى الشفاء من عند الله». ثم همس لنا، في خضم صفير الريح والمطر، قائلاً: «وإن كنتم تريدون الحقيقة، فإنه في النزع الأخير».

في تلك الليلة، انطفأت السرج والشموع في كل بيت في بايزيد، مثل السراج على رأس الخاني، ثلاث مرات.

صلاح الدين الوراق

رأيت الحبر يهطل

إن لم يعرف أحد رائحة الحبر الطازج فأنا أعرفها، لأنني أعيش منذ أن كنت صبياً في العاشرة من العمر بين الحبر والورق والصمغ والخيوط التي تخاط بها الأوراق، والجلود التي تغلف بها الكتب. إن الملالي وطلبة الفقه وعشاق الأدب في بايزيد ينجذبون إلى رائحة الحبر التي تعبق من حانوتي، فقد كنا أنا والصناع لدي ننسخ في الشهر الواحد من ثلاثين إلى أربعين نسخة من الكتب النادرة النفيسة. من كتب البلاغة والبيان، إلى كتب الفقه والحديث والسيرة النبوية، إلى الملاحم الفارسية والحكايات المشهورة، نسخنا أنا وصناعي مئات النسخ وهي موجودة على رفوف حانوتي القريب من محل سليم النعال.

لكنني لا أدري كيف لم أكن أول من يشعر برائحة الحبر يوم دفن الخاني!

على حين غرة صرخ تيمور الكرجي، الذي يسميه أهل بايزيد بتيمور الفاسق لشربه الخمر: «حبر يهطل من السماء». فرفعنا جميعاً أنظارنا عفواً إلى السماء. كانت قطرات سوداء كحبات المسك والعنبر تلوح في الهواء وما إن تسقط على أيدينا ونشمها، حتى تعبق برائحة الحبر.

أما جثمان الخاني، الذي حملناه أنا وملا إسماعيل وملا فريد المامزيدي وميرزا صبري البيرخالي على أكتافنا، فقد كان خفيفاً جداً وكأننا نحمل جثمان طفل في السادسة لا رجل في الستين!

تجهم وجه ميرزا صبري من حصول تلك الكرامات وربما كان ذلك خوفاً من الموت ورهبة منه. لا أدري! لكن وجهه كان مصفراً كأنه طلي بالزعفران. وعندما مد يده من تحت النعش ولمس كفن المرحوم فرآه جافاً، مال برأسه في رعب ناحية ملا فريد وراح يهمس في أذنه.

كان كفن الشيخ الثلجي ما يزال أبيض ناصعاً وجافاً وكأن لا مطر أسود يهطل، بل كأننا نسير تحت أشعة شمس أيار.

سبحان الله! فقد كان اليوم الذي ولد فيه الخاني لأمه كلنيكار ابنة قره خان بيك البسياني، ماطراً أيضاً. هكذا كان يروي والدي رحمه الله ويقول مضيفاً: «حينما قمطوه ذلك اليوم بكتان أبيض وحملوه إلى حجرة والده ليؤذن في أذنيه ويطلق عليه اسماً، بقي القماط جافاً لم يتبلل! تعجب جميع من في البيت من الأهل والأقرباء ونقلوا لوالده ما رأوه. فقال ملا إلياس، الذي كان قد وضع وليده في حجره، وهو ينظر من خلال النافذة: «المطر في القرآن الكريم قد يكون علامة على الخير كما قد يكون علامة على الشر أيضاً. فإما أن يغدو ابني ذا شأن أو تناله مصيبة عظيمة».

ثم سماه أحمد.

* * *

بين رائحة الحبر ورائحة الروث

كان والدي، المعروف في بلاد سرحدان قاطبة باسم صوفي مهدي الوراق، يحب الكتب منذ نشأته. وورث مهنة الوراقة عن جدي الذي كان قد ذهب صوب تبريز مع جيش عثمان باشا حاكم شيروان في عهد السلطان مراد لمحاربة العجم. وكان يحكم بلاد فارس حينذاك، الشاه الأعمى محمد خدابنده بن الشاه طهماسب ووالد الشاه عباس.

غزا عثمان باشا، في جيش جرار بلغ عديده عشرات الألوف من الفرسان والراجلة، بلاد العجم وفتح داغستان وبلاد الشركس وحتى تبريز وباقي بلاد الآذريين. وفي تبريز، تزوج والدي امرأة آذرية وتعلم الوراقة عند والدها.

بعد عشرين عاماً جاء الشاه عباس واسترد تبريز وضمها إلى مملكته. وتقدم جنوده كموج البحر حتى وصلوا مدينة وان. وقتها أدار جدي ظهره لتبريز وقفل راجعاً. كانت زوجته العاقر قد ماتت ولم يبق له شيء في تبريز، المدينة التي كانت صولجانات شاهات الفرس وسلاطين العثمانيين تتقاذفها ذات اليمين وذات الشمال. في سوق بايزيد أنشأ

جدي حانوت الوراقة هذا الذي أعمل فيه الآن وراقاً.

أما أبي فقد كانت الأوراق حياته. وكم مرة تشاجر مع أمي مساء! كانت أمي تقول له: «سامحك الله! ألم تجد عملاً إلا الوراقة! انظر إلى سليم النعال وقد أصبح في غنى قارون من وراء تنعيل الخيول. لم حظنا أسود هكذا».

كان والدي حليماً جداً ويرد عليها بابتسامة قائلاً: «يا حرمة! نحن نعمل في الورق الأبيض لذلك حظنا أسود. ولو كان عملنا في الحدوات الحديدية الصلبة السوداء لكان حظنا أبيض».

انتقلت عدوى الشغف بالورق إلي أيضاً وصارت في دمي. كنت في البداية أساعد أبي في البيت فأثقب الورقات البيضاء ليخيطها. لقد كان ماهراً في فن التجليد وكسب بذلك صداقة جميع الطلبة والملالي في سرحدان. وفي خط النسخ لم يكن أحد ليجاريه في الحسن والجودة. وكان يصنع أقلاماً من القصب فيبري رؤوسها بمهارة بحيث لو وقعت تلك الأقلام حتى في يد أمي لكتب بها أجمل الخطوط! وبعد أن كبرت قليلاً صار يأخذني معه إلى الحانوت لأحضر مجالس الملالي والمشايخ وطلبة الفقه من أصدقائه.

عام توفي إلى رحمة الله، كان ابني مهدي، الذي لن أدعه يصبح وراقاً، قد ولد حديثاً. الخال عمر، عمر البدليسي الضرير الذي كان صديقاً لوالدي، سماه بهذا الاسم وقال: «إن شاء الله يحمل اسم جده ويسير على خطاه في مهنته».

بعد موت والدي ورثت حانوت الوراقة منه وعملت فيه.

* * *

كانت سوق العلم والكتب رائجة في عهد جدي وإلى سنوات قريبة قبل وفاة والدي أيضاً. وكان طلبة الفقه يأتون إلى بايزيد من كل حدب. ومن بايزيد يتوجهون إلى كل صوب ويبحثون عن العلم والعلماء. وهناك طلبة فقه من بايزيد غادروها منذ زمن بعيد ولم يعودوا إلى الآن. صار لبعضهم عشرة أعوام يقاسون أهوال الغربة وينهلون الماء من بئر المعرفة بدلاء أذهانهم. لكن ما الفائدة! يعلم الله أنهم حين يعودون لن يأتي أحد ليتلقى العلم على أيديهم وسيذهب كل سعيهم وراء المعرفة وجهدهم في تحصيل العلم هباء منثوراً. الآن يتكالب الجميع على المال. الكل أصبحوا عاشقين لبهاء الدراهم وحسنها. وكما قال المرحوم في أثره النفيس مم وزين، فإن الطمع جعل كيس الدنانير محبوب الجميع.

لم يعد أحد يهتم لأمر أخيه فكيف سيعير الكتاب اهتمامه؟ والله! أحيانا يمر أسبوع كامل دون أن يطرق بابي أحد لتجليد كتاب أو نسخه. ولولا هؤلاء النفر القليل من طلبة الفقه لدى المرحوم لأغلقت باب هذه الحانوت منذ زمن بعيد. وقسماً بالله ، وقد رحل الخاني الآن، أعرف أن مصباح المعرفة قد انطفأ وأن الظلمة ستخنقنا. ألا

يقال إن العلم لا يزول إلا بزوال العلماء!!

حتى زوجتي أصبحت تقول حين أعود إلى البيت مساء: «كم بلغ دخلك اليوم؟ كم آقجة ربحت؟» الويل لها. أأبيع البصل أم أضع الحدوات للحمير؟ أنا أبيع كتبا وليس عدساً وحمصاً، ليس قمحاً وشعيراً حتى يصطف الناس لأبيعهم إياها بالمد والأوقية.

لا أدري ماذا حل في الناس! سابقاً كانت الحال جيدة. ففي عهد أبي مثلاً كنت أجلد الكتب بالعشرات وأبيعها. وعلى الأقل كنا نبيع كل يوم ورقاً وقصباً من قصب زنجان الذي تتخذ منه أجود الأقلام، وكنا نبيع دواة حبر أو مرملة. كنا نحصل على رزق يومنا في أضعف الايمان. أما الآن! ليتني كنت أنا أيضاً نعالاً مثل جاري سليم وكانت رأسي ليلاً نهاراً عند مؤخرات البغال والحمير والأحصنة. كنت سأعتاد بعد بضعة أيام على رائحة الروث. ومن يدري؟ فلعل تلك الرائحة كانت ستصبح عندي أزكى من رائحة الحبر.

* * *

لا أحسد سليم النعال، لكن لا أدري لم الرزق هكذا! تمر أمامي كل يوم عشرات الحمير والأحصنة متجهة إلى محله. يوشك الناس أن يضعوا حدوات لعنزاتهم أيضاً. ما هذا! لقد بنى سليم القصور من وراء مهنته. وربما كان شريكاً للحاج زهدي! وإلا فلماذا يذهب إليه

الحاج زهدي ثلاث مرات في اليوم بصحبة غلمانه كأنه يذهب لأداء فريضة الصلاة! لو كان الأمر متعلقاً بتنعيل فرس لكانت زيارة واحدة أو زيارتان تكفيان كل شهر.

أحياناً يأتي ملا فريد لزيارتي في الحانوت. ينظر ساعة في الكتب ويقرأها. أكاد أقول إنه اكتسب نصف علمه من مطالعته كتب هذا الحانوت! لكنه لبخله الشديد لم يشتر حتى الآن ولو كتاباً واحداً. ذات مرة جاء مسرعاً وقال: «أيوجد لديك يا صلاح الدين كتاب شرح التفتازاني؟»

ضحكت وقلت: «نعم يا سيدي يوجد لدي شرح التفتازاني، وإن أردت يا ملا فريد فسأوافيك أيضاً بحاشية القاضي الكستلي عليه».

حمل كتاب التفتازاني في يده، قلب صفحاته قليلاً ثم جلس. بقي جالساً قدر ساعة من الزمن بينما كنت مشغولاً بتجليد كتاب. ثم رأيته ينهض فيضع الكتاب في محله وقال: «لقد استوعب الإمام التفتازاني العقيدة جيداً، أجاد في شرح كتاب النَسَفي». ثم غادر الحانوت.

ومرة كان قادماً لتوه من أرضروم، رأيته دخل الحانوت كالبرق وسأل: «ألديك نسخة من كتاب مم وزين؟» كنت قد كتبت حديثاً نسخة جديدة وكانت رائحة الحبر الطازج ما تزال تفوح منه. وحين ناولته النسخة، قال متجهماً ودون أن يسأل حتى عن ثمن النسخة: «لا نقود عندي الآن. سأوافيك بالثمن بعد أيام. أتقبل؟» وبعد أيام جاء وأعاد إلي الكتاب وهو يقول: «يا صلاح الدين! توقف عن

نسخه. إن فيه أشياء تناقض الإسلام!»

أما الشيخ سيف الدين! هذا الدجال ابن الدجال. يزعم أنه شيخ! لم أجده يوماً يحمل في يده كتاباً! ألمحه يذهب بين الفينة والأخرى إلى سليم النعال ويأخذ من عنده حدوات الحمير القديمة. أقسم بالله أنه يمارس السحر بتلك الحدوات. دأبه أن يفرق بين الرجل وزوجته أو يصلح بينهما بواسطة السحر وإلا فما الذي يصنعه بكل تلك الحدوات!؟ من المؤكد أنه لا يضعها لقدميه.

* * *

قبل عدة أيام جاءني الخال عمر. لم أجده حزيناً كئيباً إلى تلك الدرجة من قبل. كان مهموماً صامتاً، يضرب بعكازته رفوف الحانوت ويقول: «يا ولدي! ارحل واعمل في الوراقة إما في اسطمبول أو في تبريز. وسيكون أفضل إن رحلت إلى بغداد أو حلب. ففي بلادنا هذه سواء حدوة حمار أجرب وكتاب علم. لقد مضى الزمن السعيد يا ولدي. ارحل يا صلاح الدين، ارحل. فلن تطعمك هذه المهنة الطيبة خبزاً في هذه المدينة الماكرة. ستموت من الجوع أنت وأولادك. فإن لم تفعل، تعال نذهب سوية إلى بدليس. ومهما يكن من أمر فإن سوق الوراقة فيها ليست كاسدة كما هي هنا».

* * *

الملثم وكتاب شيرين وخسرو

لا أحد يدري من أين قدم ذلك الرجل ولا على من حل ضيفاً! ظهر قبل وفاة الخاني بمدة قصيرة في بايزيد وكان في معية ميرزا صبري البيرخالي. كان ميرزا صبري يقدمه للناس على أنه أحد أقربائه. وذات مرة رأيته وقد حضر إلى الحانوت. عجبت له وقلت في سري: «يقيناً لقد ضل طريقه!» وسألته: «أأستطيع خدمتك؟»

صوته الذي تناهى إلى سمعي من وراء اللثام، ملأ قلبي رعباً. لم تكن لهجته مثل لهجة أهل سرحدان ولو كان من أقرباء ميرزا صبري لتحدث مثله! حينما دخل الحانوت أخرج من تحت إبطه كتاباً بجلد جميل مكتوباً بخط الثلث. كان الكتاب قصة شيرين وخسرو للشاعر نظامي كنجوي. حينما وقع بصري عليه سررت كثيراً، فقد كان ناسخه قد كتبه بخط أنيق وظريف. وكنت أبحث عنه منذ مدة، فقد كان المرحوم الخاني يبحث بلهفة عن نسخة منه لأن نسخته ما عادت تُقرأ بسبب سوء الخط ولون حبره الحائل. وكنت قد أوصيت القوافل التي تذهب إلى تبريز بإحضار نسخة منه دون جدوى.

وهكذا، فقد كدت أطير فرحاً لما وقعت عيناي على تلك النسخة في يد الملثم. أمسكت بيده وسألت: «كم ثمن هذه النسخة؟» تحدث

إلي بالصوت ذاته الذي ملأني رعباً وقال: «دع النسخة عندك. فإن اشتراها أحد قبضت منك ثمنها وأعطيتك حصتك». وحينما هم بالخروج من الحانوت، قلت له: «اعذرني يا أخي! تبدو كاللصوص وقطاع الطرق بهذا اللثام. هلا أريتني وجهك؟»

حينما أماط اللثام، فغرت فمي من الدهشة وانعقد لساني كأنه دُقَّ بوتد في فمي. كان كأنه رجل بلا وجه!

*   *   *

بعد يومين جاءني المرحوم الخاني. كان ذلك قبل أن يقع مريضاً بيوم أو يومين. نظر إلى الكتب المصفوفة على الرفوف قليلاً. تعالى نهيق حمار يتم نعله. تنهد وقال: «يا صلاح الدين، إن بلدة تباع فيها حدوات الحمير أكثرَ من الكتب، لهي بلدة غضب الله عليها وينبغي أن توضع الحدوات على أقدام ناسها لا قوائم حميرها».

حزنت كثيراً إذ قال ذلك. كنت قد قرأت قبلاً، شكواه في مم وزين، لكنني لم أره مهموماً هكذا أبداً. ولكي أبدد همه قليلاً، حملت نسخة شيرين وخسرو التي تركها عندي الملثم، وناولته إياها. انفرجت أسارير وجهه وظهرت عليه فرحة طفولية، فشمر عن ساعديه ثم جلس على خشبة في الحانوت وراح يمعن النظر في الغلاف.

لم يتوقف الحمار عن النهيق وكأن سليماً النعال يدق المسامير في عظامه. لكن المرحوم لم يعد يلقي بالاً لذلك، بل انحنى على الكتاب وبقي صامتاً فترة من الوقت. ثم هب قائماً وقال: «عن هذا الكتاب كنت أبحث يا صلاح الدين. عندما أعود من المسجد سآخذه معي». ومع أذان العصر خرج الخاني من الحانوت. لكنه لم يعد. لقد نسي أن يأتي لأخذ الكتاب وسقط فريسة ذلك المرض الغادر الذي لم يقم منه.

قبل أن يرحل الخاني، جاء الملثم وسأل عن كتابه. ولما أخبرته بأنه ما يزال عندي، فرح فرحاً لا يوصف. ثم أخذ النسخة بين يديه وهو يردد «الحمد لله، الحمد لله» إلى أن خرج من الحانوت.

* * *

معاناة الخاني

المرض المجهول والداء الوبيل الذي ألم بالخاني، جعلنا نحن محبيه وأصدقاءه ومريديه نخاف. كنا حوله لا نعرف ما هي علته! قال في البداية إنه تعرض لنزلة برد. وبعد أيام تبين أن الأمر أشد من أن يكون مجرد نزلة برد.

كان يقول دائماً خلال مرضه: «إنني أشعر بطعم بعض المعادن في

فمي. لكأن تحت لساني قطعة حديد أو فضة أو نحاس».

اضطررنا حينذاك لإحضار الطبيب الأرمني زُهْراب الذي قال، بعد أن فحص بول المرحوم وسأله بضعة أسئلة: «أظن أن الأمر تسمم وليس نزلة برد». نظر كل منا في عيني الآخر باستغراب. فمن ذا الذي سيسقي الخاني سماً ولماذا؟ إنه ليس على عداوة مع أحد. صحيح أن صلته بالأمير لم تكن في الآونة الأخيرة على ما يرام وأن الأمير أرسل إليه ميرزا صبري وملا فريد وحدثت ملاسنة بينهما وبين الخاني، ولكن أيعقل أن يفكر الأمير في قتل رجل بمنزلة الخاني! يقيناً أنه ليس مجنوناً إلى هذه الدرجة.

رد الخاني بنفسه على الطبيب قائلاً: «سامحك الله. لا تقل هذا أيها الطبيب. من سيسقيني سماً؟»

فرد عليه الطبيب الذي كان منشغلاً بإعداد مغلي اليانسون لإيقاف المغص والغثيان، بلطف وحنان: «صحيح يا سيدي أن الطبيب يخطئ في تشخيص الأمراض أحياناً، لكن تشخيص التسمم سهل. ألا تقول حضرتك أنك تشعر بالغثيان وبمذاق معدن في فمك! الأمر جلي يا شيخ».

ثم فتح جرابه وأخرج بعض الصرر الصغيرة ووضعها عند رأس الخاني وقال بلطفه السابق: «أرجو أن يمضي الأمر على خير. هذه بعض الأدوية تتناولها صباحاً حين تستيقظ وليلاً قبل أن تنام. وإن شاء الله سيزول الوجع عنك».

لكن الوجع صار يشتد عليه يوماً بعد يوم. وصرنا نسهر عنده كل ليلة حتى وقت متأخر. كان المرض يخف أحياناً فيصبح الخاني كمصباح أضيء ويقوم فيطلب كتاباً ويتصفحه أو يمازحنا فيقول إنه لن يموت قبل أن يكمل قصة قلعة دِمْدِم. لكن سرعان ما كان وجهه يشحب ويذبل، فيقول: «مهما يكن الموت فهو ضيف. ومن واجبنا إكرام الضيف وعلينا ألا نشكو منه أو ننأى بوجهنا عنه. لقد لجأ إلى بابنا، أفنرده خائباً! أما الضيف الذي يدعوه المرء بنفسه إليه...».

وعندما كان يرى أن وجوهنا تذبل في حرارة كلماته تلك، كان يطلق زفرات حرى ويقول: «لقد قلت ما عندي. وبقي على الكرد وأمرائهم أن يفهموني. إنني لا أرجو الله عمراً آخر لكنني لو عدت ثانية لأعيش في هذه الدنيا فسأعيد ما كنت أقوله إلى أن يزول الشقاق والتمرد بين الكرد وتزول مظلوميتهم ومحروميتهم ومحكوميتهم».

انقطعت أنفاسه، فأغلق عينيه. ثم شرب جرعة ماء من طاسة النحاس التي بجانبه وأضاف: «لا الأمير ولا السواد الأعظم من أهل بايزيد وأطرافها أصغوا لنصحي. ولو كان الأمر بيدي لصارت بايزيد الآن......». لكن جبينه ورقبته تصببا بعرق مثل ندى أسحار الخريف، وما كان لهاثه ليسمح له بمواصلة الكلام، فصمت وغالبته معدته فتقيأ.

* * *

ليلة أسلم فيها الخاني الروح لبارئها، كنت في البيت. كنت أعد كتاباً لتجليده بينما ابني الصغير مهدي يطوف حولي. كان يأتي بين لحظة وأخرى ويسألني: «ماذا تفعل يا أبي؟»

أشفقت عليه ولم أرد أن أتحدث له عن الكتب ومهنة الوراقة التي بدأت أقرف منها. فمازحته وقلت: «هذه حدوة حمار أجرب يا ولدي». سمعت طرقاً على الباب. كان الطارق صوفي حيدر القرصي. وكان صوته يرتعش مثل لهب على رأس شمعة. قال وهو يغالب البكاء: «شيخنا الخاني يعاني سكرات الموت».

وضعت الكتاب جانباً وقلت له: «اذهب أنت وسنلحق بك أنا والطبيب زهراب».

* * *

مات الخاني في ليلة عاصفة

في الخارج، كان مطر مجنون يهطل. كانت بايزيد الصامتة تلك الليلة تبدو من صوت المطر كمن يجهش بالبكاء. وإلى أن وصلت إلى بيت الطبيب الأرمني، لم تبق في ثيابي بقعة جافة. لم أطل الوقوف عند بابه كثيراً بل أخبرته بالموضوع بصوت مرتعش كورقة تضربها الريح

وأسرعت إلى حجرة الخاني. حين فتحت الباب لأدخل، سبقتني في الدخول الريحُ الباردة التي كانت تصفر وكأن الجبال تنوح حولنا وانطفأ السراج على رأس الخاني. قام الملا إسماعيل ليشعل السراج ثانية فمنعه الخاني وأشار إلى الجهة اليسرى من صدره قائلاً إن سراجاً منيراً يضيء فيه. لكن ملا صالح الجزري قام وصب قليلاً من الدهن وأشعل السراج من جديد.

بعد دخولي بقليل لحقني الطبيب الأرمني أيضاً. كان ملتحفاً بعباءة من فرو السمور متأبطاً جراب أدويته. لكن الوقت كان قد فات ولم تعد الأدوية تنفع.

لم تتوقف ريح بايزيد عن الهبوب تلك الليلة! انطفأ السراج عدة مرات، إلى أن قام صوفي حيدر ووضع السراج في مشكاة في الجدار قرب رأس الخاني وقال بصوت خفيض: «هذه ليست بشائر خير. لقد انطفأ السراج ثلاث مرات عند رأس الشيخ أحمد هذه الليلة».

قال ملا إسماعيل، الذي انقبض وجهه هماً، بصوت خافت تلفه الحسرات: «لا تقل هكذا يا صوفي حيدر. فلا راد لقضاء الله».

كانت أنفاس الخاني تتباطأ رويداً رويداً. كان يفتح عينيه ويحدق فينا واحداً واحداً، يريد التفوه بشيء ما. كانت رغبة الكلام واضحة في عينيه ولا يستطيع. لم تكن الريح الهائجة خارجاً لتتوقف عن الصفير وفي قلوبنا كانت ريح الخوف تهب. فجأة استوى الخاني جالساً. ودون أن ينظر إلى أحد، قال بصوت ضعيف وكلمات

متقطعة: «هل...قرأ...الـ....أمير....رسالتي؟»

ثم مال رأسه.

ومع كلمة لا إله إلا الله، اجتمعنا كلنا عند رأسه. كان قد أسلم الروح.

سليم النعال

ذلك الصباح جاء صانعي قائلاً وهو يلهث: «يا عم سلو ... يقولون إن أحمد الخاني مات. هاهم يحفرون قبره».

ألا فليرحمه الله رحمة واسعة، لقد كان رجلاً طيباً. أكان يموت يوم الجمعة لو لم يكن رجلاً طيباً! وزيادة في الخير فقد أجلوا دفنه إلى الأول من رمضان. لكنني لسوء حظي لم أحضر مراسم دفنه. كنت أضع حدوات لأحد البغال. كانت حوافر البغل المسكين قد أضحت مثل خشبة مهترئة. بلغ بي الجهد حداً لا يطاق وأنا أسحب مسامير الحدوة القديمة وأبري الحافر لأعده على مقاس الحدوة الجديدة.

وضعت المبرد من يدي، ففككت صدرية الجلد وخلعتها وهيأت نفسي لأذهب وأحضر صلاة الجنازة، لكنني قلت لنفسي: « فلأضع الحدوة الأخيرة ثم أذهب». وقلت للصبي صانعي: «يا ولد! لدي الآن عمل. تعال ولنضع حدوات هذا البغل ثم نذهب لنحضر صلاة الجنازة على الخاني».

لكنني لم أذهب. سبحان الله فقد جاءتني ذلك اليوم حمير وأحصنة كثيرة من القرى وكان علي أن أركب حدواتها. وفوق ذلك كان المطر يهطل والطين يملأ الأزقة والدروب. ولقد نسيت نفسي. والله لقد نسيت نفسي. ألا سحقاً لذلك البغل. أي والله.

العمل هكذا. لا بد أن ينهيه المرء خاصة إذا كان عملاً مثل عملي.

لا يمكن أن يدعه المرء في منتصفه. هل يمكن مثلاً أن أضع حدوة حافر واحد وأترك الحوافر الثلاثة بدون حدوات؟ لا والله لا يمكن.

* * *

أنا وهذه المهنة

كنت في حوالي العاشرة من عمري حينما أتى بي والدي إلى هذا المحل وقال لي: «بني سلو! لقد تعلمت بما فيه كفايتك. وها أنت، ما شاء الله، تفرق بين العين والغين، وبين السين والشين».

كان ثمة بغل يضعون له حدوات، أخرج رأسه من المخلاة بعنف وهزه يميناً وشمالاً ما جعل الأجراس المعلقة عليه تصدر صلصلة كبيرة. تملكني الخوف فتراجعت للخلف. ضحك أبي وقال: «أنا أيضاً كنت مثلك. لا تخف يا بني. سأعلمك هذه المهنة وستدعو لي بقية حياتك».

أخبرني والدي أن طريق العلم طريق طويلة مديدة لا تنتهي ولا تطعم المرء خبزاً. وشرح لي أن ثلاثة أرباع العلماء متسولون والربع الباقي فقراء، وقال لي إنه لا يريدني لا فقيراً ولا متسولاً.

أطعت والدي وتركت طريق العلم. أدرت ظهري للأوراق والأقلام والحروف ووليت وجهي شطر المسامير التي تشبه حروف

الألف المستقيمة، والحدوات التي تشبه حروف الدال والنون. وفي الحقيقة فأنا إلى اليوم أدعو لوالدي النعال وأدين له. لست نادماً لأنني أصبحت نعالاً وسأجعل أولادي من بعدي نعالين. يوم توفي والدي وانتقل إلى ديار رحمة الله، طلب مني الجلوس عند رأسه. جثوت على ركبتي حزيناً ونظرت في عينيه. قال لي أشياء كثيرة لكن حكمة واحدة علقت بذاكرتي وما تزال إلى اليوم مثل جرس معلق في رأسي يرن على الدوام. فقبل أن يسلم الروح، قال بصوت متقطع يشبه الأنين: «يا ولدي لا تنس ما سأقوله لك. النعال الماهر هو الذي يصنع الحدوات على مقاس الحوافر وليس الذي يبري الحوافر لتكون على مقاس الحدوات». ومع حكمته الذهبية هذه أسلم الروح.

لكن آه، أين هي الأيام السالفة! كنت أضع حدوات عشرات الحمير والبغال والأحصنة حسبما أوصاني أبي. كانت القوافل التي تأتي إلى بايزيد من يريفان وقارص وحتى اسطمبول وتبريز تدر على سوق النعالين مالاً وفيراً جداً. وفي عهود أسبق، بحسب ما كان يرويه المرحوم أبي، كانت مهنتنا هي الأفضل في هذه البلاد. فعندما كانت جيوش السلطان تأتي وتعسكر في بايزيد وما حولها، كان النعالون يعتبرون ذلك عرسهم وكانت آلاف الآقجات ترن في جيوبهم. وفي السنة التي قاد السلطان مراد عليه رحمة الله جيشه وغزا يريفان، أصلح أبي، كما روى لي، حدوات ثلاثمائة وثلاث عشرة دابة ما بين بغل وجواد أصيل. لكن يا للأسف لم تعد الجيوش

تأتي كما في السابق. وقد طال العهد بالسلاطين وهم لا يمرون من بلادنا ولا يغيرون على القزلباش. أي حظ أسود هذا يا رجل! حتى القزلباش لا يأتون! آه لو جاء فريق منهما مرة واحدة فقط ونصبوا خيامهم بالقرب من بايزيد، إذن لوضعت حدوات للخيل بما يكفيني خمسين سنة. لكن لا بد أن يأتي ذلك اليوم. إما أن يأتي السلطان وإما أن يأتي الشاه. وليكن القادم من يكون، فسيكون صاحب خيل وحشم وجنود وسيكون لنا في ذلك رزق وفير.

ومع ذلك الحمد لله على كل حال. إنني لا أنفك أدعو لوالدي المرحوم الذي أرشدني إلى هذا الدرب المضيء.

* * *

في المدينة نعالون كثر، لكن لا أحد له من الصيت والشهرة مثل ما لي. إن كل من يعز دابته يأتي إلي لأصلح حدواتها. ثمة نعالون يضعون حدوات ولكن أي حدوات!! بعد يومين تنخلع المسامير وتطير الحدوات حالما هرولت الدابة على الطريق. أما أنا فأصنع حدوات قوية متينة وبثمن أرخص من الآخرين. حتى أميرنا نفسه يدعوني كل يوم جمعة لكي أعاين جواده الكميت الشهير «شاهين». الله الوكيل، لا يوجد له مثيل لا في اصطبلات ملوك العجم ولا في اصطبلات سلاطيننا. وحينما أضع أحد حوافره على ركبتي أشعر

بأن الدنيا بأسرها أصبحت ملكي. لقد ألفني هذا الجواد حتى أنه إذا رآني يهز رأسه ويتقدم إلي وكأنني فارسه.

وليس فقط من بايزيد، بل من سائر البلاد يأتي الفرسان لإصلاح حدوات خيولهم. ذات مرة جاءني صديق بتاجر من خنوس. ركّبت لفرسه حدوات جيدة بمهارة فائقة. سر التاجر كثيراً ونفحني آقجات عدة زيادة عن أجرتي وقال: «والله يا خال سليم إنك تجعل المرء يشتهي أن تضع له مثل هذه الحدوات!»

دع عنك الحاج زهدي التاجر والشيخ سيف الدين وسائر أعوان ووجهاء البلد، الأمير بذاته يرسل لي خيوله مع سائسه. حتى لو كنت غائباً عن بايزيد فإنه ينتظرني إلى أن أعود. إنه يستطيع ترك خيوله هكذا دون حدوات جديدة لكنه لا يسلمها لنعال سواي.

الحمد لله مائة مرة إذ جعل رزقي في تنعيل حوافر الدواب. وليس مثل المسكين صلاح الدين الذي لا عمل له سوى كش الذباب الذي يطير من عندي إلى حانوته. والله إنني أضحك إذ أتصوره هكذا. ذات مرة، كنت ذاهباً إلى صلاة الظهر فمررت أمام حانوته ورأيته منكباً على كتاب يضم صفحاته بالصمغ. سلمت عليه وقلت له: «ها يا ابن الأخ! ذباباتي تأتيك أليس كذلك؟»

رفع رأسه وبدون أن يرد علي السلام قال بوجه متجهم: «المدينة التي لا يقرأ أهلها الكتب، يصبح فيها الذباب أئمة».

يا لهذا الكلام الطائش المعتوه. أليس الناس محقين ألا يذهبوا إليه؟

لا أدري لم يحقد علي؟ والله كله من الحسد.

إن الناس، وقبل أن يحبوني لمهارتي في المهنة، يحبون حسن عشرتي وحديثي الحلو وقصصي. فأنا، إلى أن أنتهي من إصلاح حدوات دابة أحدهم، أضرب له الأمثال وأروي حكايات عديدة. الناس يحبون حكاياتي وحتى الذي لا تشكو دابته من شيء يأتي إلي ليسمع مني.

أما أميرنا فإنه يدعوني إليه مساء كل جمعة حين تدار القهوة في ديوانه ويجلسني على يمينه ويقول: «هات يا سلو! ضع كحل حكاياتك في عيون ليلتنا هذه».

* * *

ثلاث حكايات من حكايات النعالين

القروي والنعال

يحكى أن قروياً قدم على مدينة ليصلح حدوات حماره. حمل النعال حدوة ليدقها في حافر الحمار. فقال القروي: «هات أرى الحدوة». أخذ الحدوة الحديدية في يده وطواها ثم قال متبجحاً: «استعمل حدوة أخرى فهذه لا تصلح لحماري».

أتى النعال بحدوة أخرى، فطواها القروي وكأنها عجينة وقال: «هذه أيضاً لا تصلح لحماري العزيز».

غضب النعال وجاء بحدوة متينة وناولها صاحب الحمار. حاول القروي ثني الحدوة لكنه لم يفلح، فقال مضطراً: « هذه هي. هذه تناسب حماري».

قام النعال الذي وصلت روحه إلى حلقومه، فبرى حوافر الحمار بمبرد ودق أربع حدوات متينة فيها. أخرج القروي من تحت حزامه صرة النقود وأعطى منها آقجة فضية للنعال. فرك النعال صورة العملة ومحاها ثم قال: «عملتك هذه مزيفة».

قام القروي وأخرج آقجة أخرى وأعطاها النعال مبهوتاً. فعل النعال ما فعله في الآقجة الأولى. وهكذا فعل بعدة آقجات إلى أن شعر بأنه انتقم لنفسه فقال: «إن قيل لك أن بإمكانك الضحك على النعالين فانس ذلك. نحن نعالون يا رجل ونستطيع تركيب حدوات للسرطان أيضاً».

النعال والبردعة

يحكى أن نعالاً ماهراً من بايزيد في زمن الأمير شهسوار البسياني، جمع مالاً وفيراً. ولكن أحداً لم يكن يعرف أين يخفي نقوده. فقد دأب على إخفائها في بردعة عتيقة دون أن يراه أحد حتى اجتمعت نقود كثيرة على مدار عدة سنوات في جوف تلك البردعة.

وفي أحد الأيام لم يكن النعال في محله بل كان ابنه هناك، وإذا

بدوي يدخل. ولما وقع بصره على البردعة مرمية هناك سأل: «أتبيع هذه البردعة؟»

فرح ابن النعال ببيع تلك البردعة التي لا لزوم لها أخيراً واتفق مع البدوي على الثمن وناوله إياها. ألقاها البدوي على ظهر حماره وخرج.

ولما عاد النعال أخيراً انتبه إلى أن البردعة ليست في مكانها. فسأل ولده محتداً: «أين البردعة يا ولد؟»

ظن الولد أنه عمل خيراً ببيعه تلك البردعة العتيقة فقال لأبيه جذلاً: «أوااه يا أبي! لقد نسيت أن أخبرك بأنني بعتها وتخلصنا منها».

غضب النعال وصرخ في وجه ابنه: «أيها الحمار ابن الحمير. فليحرقك الله أيها البغل عديم الحدوة. أفلا ينبغي لي أن أضع لك الحدوات بدل الحمير!؟ لقد ضيعت جنى عمري كله».

ثم أخذ يولول ويندب حظه ويضرب رأسه، وهاجم ابنه حتى أوشك أن يقتله بسكين الحوافر. لكن لا فائدة. فما فات فات. وبالرغم من أنه بحث عن البردعة طويلاً إلا أنه لم يظفر بشيء. لقد ضاع تعب سنوات سدى. وراحت تلك الآقجات التي كان يطمرها آقجة وراء آقجة جراء غباء ابنه في لحظة واحدة هباء منثوراً.

استسلم النعال المسكين أخيراً وعاد إلى عمله. وبعد سنوات عديدة مرت، دخل فارسٌ المحلَّ وقال له بعد التحية والسلام: «قبل بضعة أعوام اشتريت لحماري هذه البردعة منكم. لقد صرت الآن فارساً ولا

حاجة لي بها. أفيمكنني أن أردها؟»

كاد النعال يطير فرحا وهب معانقاً ذلك الفارس مقبلاً إياه وقائلاً له: «كيف لا يا رجل؟ تعال لأعطيك ولدي بدلاً من البردعة».

غضب الفارس وقال: «لا يا أخي لا. ما لي ولابنك! عندي عشرة من البنين يكفونني. إن كان عندك سرج حصان، فأعطنيه بدل البردعة».

لم يصدق النعال ما سمعته أذناه. فقام وجاء بسرج حصانه وأعطاه للفارس وهو يقول: «المال الحلال لا يضيع. المال الحلال لا يضيع».

تلك الليلة لم يذق النعال طعم النوم. وضع البردعة في حِجره وصار يعد نقوده ويردد كصوفي يردد أوراده: «المال الحلال لا يضيع».

ومنذ ذلك اليوم، صارت البردعة مخدة يضع عليها رأسه حينما ينام.

النعال والصدر الأعظم

يحكى أنه كان في اسطمبول صدر أعظم مشغوف بلعبة الشطرنج. كان ماهراً جداً ولا تمر ليلة دون أن يلعب مع السلطان في قصره الكبير. وذات مرة غزا السلطان بلاد المجر وترك الصدر الأعظم في اسطمبول لتدبير شؤون المملكة بدلاً منه.

وكما جرت العادة فقد نهض الصدر الأعظم في المساء ليلعب

الشطرنج ولكن لم يكن هنالك من يلاعبه. فأرسل أحد العبيد وراء سائسه وسأله بداية: «كيف أنت والأحصنة؟ أتعرف بها؟»

رد السائس المسكين وأثر النوم لا يزال في عينيه: «نعم يا جناب الصدر الأعظم! فأنا سائسُ خيلكم ونعالُها».

فسر له الصدر الأعظم قصده: «لا أقصد الأحصنة الحقيقية يا ولد. بل أقصد أحصنة الشطرنج. ألا تعرف لعب الشطرنج؟»

فأجاب السائس الذي كان يعرف اللعبة قليلاً: «بلى يا أفندينا أعرف».

وجلس أمام الصدر الأعظم ليلاعبه. وكما اعتاد الصدر الأعظم أن يلعب، قال للنعال: «تفضل يا سلطاننا العزيز. اللعب لكم».

لم يصدق النعال ما يسمعه وفغر فمه من الدهشة. ثم حدث نفسه قائلاً: «لقد جن الوزير الأكبر. وإلا فإنه يستهزئ بي».

ما عاد النعال يعرف أي قطعة يحركها ولا أي خطة يلعبها. دفع بأحد البيادق خانةً وانتظر وجلاً مترقباً. دفع الوزير الأعظم أيضاً ببيدق مقابل بيدق خصمه وانتظر. كان السائس الذي تشتت ذهنه، قد صار مثل غزالة وقعت في الشراك. فما حلم في حياته قط حتى بأن يضع حذاء الصدر الأعظم أمام قدميه! وها هو جالس على سرير محشو بريش الكراكي والإوز وفوق هذا يخاطبه الصدر الأعظم بنداء: يا سلطاننا العزيز!! كانت عين النعال مسمرة في الرقعة البلقاء المزينة بالفيلة والأفراس والبيادق المصنوعة من الدر والياقوت. لم يجرؤ على

رفع عينيه وينظر إلى الصدر الأعظم. بقي هنيهة غير قادر على الكلام وتمنى أن يحاصر الصدر الأعظم شاهه سريعاً ويقول كش ملك ليعلن بعدها كش مات! لكنه فوجئ بالصدر الأعظم يقول بتذلل وانكسار: «يا حضرة السلطان! إذا لم يعجب جنابكم اللعب فسأرفع الرقعة؟»

هنا تجرأ السائس الخائف قليلاً وقال: «يا مولاي أنا غلامك وعبدك وسائس خيلك. لست سلطاناً يا مولاي. أنا تراب يمشي عليه السلطان وجنابك».

أخيراً ضحك الصدر الأعظم وقال: «أنا أعرف هذا. لكنني لما كنت تعودت على اللعب دائماً مع مولانا السلطان، فعلي أن أتعلم مخاطبته وحده في هذه اللعبة وبإجلال واحترام. فعدم التأدب في حضرة السلاطين يكلف المرء روحه يا هذا».

بنكين الحاجب

الأمير وخبر وفاة الخاني

صباحَ توفي الخاني وصل الخبر إلى الديوان.

وقف رجل تفوح من ثيابه رائحة المطر بالباب وقال: «لقد مات الخاني».

لا أدري أدموع كانت أم قطرات مطر تلك التي سالت على خديه! لكنني أتذكر أني ذهبت إلى الديوان لأخبر الأمير حزيناً نفس الحزن الذي رافق ذلك الرجل حين نقل إلي النبأ الأسود.

كان ذاك يوم السبت أول رمضان. وكان الأمير ما يزال نائماً. تحدثت مع غلامه قليلاً فأتينا على ذكر مرض الخاني الوبيل والغامض. ثم أخبرته أن علي إعلام الأمير بوفاته لكي يذهب ويحضر دفنه. لكن الغلام قال إن هذا أول رمضان وإن الأمير لن يستيقظ باكراً. فأعدت عليه القول إن الخاني قد توفي وعلي إخبار جناب الأمير بذلك. لكن الغلام لم يقبل وقال: «لا يجوز يا بنكين. أنت حاجب الأمير ويجب أن تعرف أكثر مني. لقد أوصاني جنابه البارحة بعدم إيقاظه مهما حدث. لقد كان سهران حتى وقت السحور. تناول سحوره ثم صلى الفجر وذهب إلى النوم وأوصى بألا نوقظه صباحاً حتى ولو كان أمير أمراء ولاية وان بالباب!»

لكن لم يكن ببابه أمير أمراء ولاية وان، إنما خبر موت رجل عظيم هو جناب الخاني، ولو كان الأمر لي لأخبرت كل صقع وبقعة من سرحدان وحتى وان وهكاري وحدود بلاد بوطان إلى برية ماردين وليس الأمير فقط.

كان الأمير على علم بمرض الخاني، لكنه لم يذهب لعيادته أبداً. وكان يكتفي بأن يسألني كل فترة ساخراً: «هيه يا بنكينو. كيف أصبح الملا أحمد؟ ماذا قال الأطباء؟» لكنني حين كنت أجيبه وأقول إنه بات أفضل أو أقول إن حاله ساءت اليوم مثلاً، ماكان يستمع إلي وكأنه ليس من سأل قبل قليل عن صحة الخاني!!

وذلك الصباح، حين استيقظ وجاء قادماً من جناح الحريم في قصره ووقعت عيناه علي، سأل: «ما بك يا بنكين؟ ما لوجهك ذابلاً هكذا؟ تبدو مثل حجل يحوم فوقه صقر! ما وراءك؟»

اضطررت لإخباره ذلك النبأ الأليم. كان الوقت باكراً لكن خبراً مثل ذاك لا ينبغي أن يبقى مؤجلاً طويلاً، فقلت له بانكسار واضعاً يداً على الأخرى: «اعذرني مولاي الأمير. مع أن الخبر الذي أحمله سيئ لكنني مضطر لقوله: البقية في حياتك، لقد توفي الخاني!»

وأمعنت النظر في عينيه. يشهد الله أنهما لمعتا. لمعتا لمعاناً كأن زهور الفرح تفتحت فيهما. الفرح الذي طار كالحمام من عينيه نصف المغمضتين، حط على أغصان حزني. لاحقاً، وكأنه أدرك أن قليلاً من الحزن يجب إظهاره لدى سماع خبر كهذا، أضفى الحزن

على ملامح وجهه وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون. اذهب يا بنكين ومر الشيخ سيف الدين يقرأ دعاء التلقين عليه. أما صلاة الجنازة فليؤم الناس فيها الملا إسماعيل. أعرف كم يتحاسد هؤلاء الملالي».

لم يكن كلام الأمير قد انتهى بعد. فأنا أعرف أسلوبه. إنه يتحدث بكلام متقطع ولا ينظر في عيني المرء. أما عيناه فتكادان تكونان مغمضتين حين يتكلم. لذلك انتظرت نهاية حديثه ويداي على حالهما احتراماً. كان المطر يشتد رويداً رويداً بينما الغيوم تتقلب مثل طيور إوز مقتولة.

«آه لقد نسيت! قل لهم فليدفنوه في باحة مسجده»، قال هذا وأدار لي ظهره عائداً إلى جناح الحريم.

نظر غلامه إلي شزراً ثم تبع الأمير وبقيت أنا وحدي أفكر تحت [illegible]خ المطر!

(لم يكن أميرنا يكره الخاني إلى ذلك الحد. لكن ميرزا صبري الذي كان يبحث له عن موطئ قدم في بلاط الأمير بالنميمة، أوغر صدر أميرنا وملأ قارورة قلبه بسم الحقد على الخاني. وقد صار للأمير شهران وهو لا يعقد مجلس أنس وسمر بدون ميرزا صبري الذي صار مستشاره يأخذ برأيه في كل الأمور. وفي بعض الليالي حين كنت أذهب إلى الديوان، كنت ألتقط أطراف منديل حديثهما. كان ميرزا صبري الحقود دائم الحديث عن الخاني وكتابه وخطبه في المسجد. حتى أنني سمعته ذات مرة يقول: «مولاي الأمير! إن أشد ما أخشاه

أن يؤلب الخاني الرعاع ضدكم. فهو يتحدث في كثير من مجالسه عن الفرمان الهمايوني القاضي بتعيينكم أميراً على مسند إمارة آبائكم وأجدادكم في بايزيد. وإنه يزعم يا مولاي أن ذلك الفرمان قد تم شراؤه بالذهب».

كنت أود، حين أسمع مثل هذه الأحاديث في المجلس، أن أوصل الكلام للخاني، لكنني كنت أخشى أن تكون فتنة وفساد، فلزمت الصمت وأنا أعلم أن العاقبة ليست خيراً.

وأنا غارق في هذه الأفكار، رأيت قطرات المطر وهي تسيل بطيئة مثل مسافر مرهق وتترك آثاراً على جدران قصر الإمارة كزقزقة عصفور جريح بين مخالب صقر غاضب. ثم لمحت الأمير خارجاً من حجرته في لباس الصيد حاملاً صقره على زنده الملفوف بقماش أبيض، ومتمنطقاً بعدة الصيد متنكباً قوسه ونشابه وكنانة السهام، يتبعه كلبه السلوقي. دهشت لهذا المنظر وقلت في نفسي: «جثمان الخاني ما يزال غير مدفون والأمير يذهب للصيد؟»

وعندما التقت عيناه بي، ناداني قائلاً: «يا بنكينو. ها هي رسالة المرحوم التي جئتني بها ذات مرة. لم أجد وقتاً لقراءتها. والآن وقد انتقل إلى دار الرحمة، لا يجدي أن أقرأها. خذها وسلمها للملا إسماعيل».

ثم خرج.

رسالة الخاني إلى الأمير

قبل وفاة الخاني بيوم واحد، أرسلني الأمير إلى سليم النعال لأحضره بغية معاينة خيوله. كان الأمير يستعد لرحلة قنصه وكنا نستعد لاستقبال رمضان. ما كان أحد يظهر في الشوارع وتبدو المدينة خالية من السكان وكأنها شجرة توت نثرت ثمارها. أخبرت سليم النعال برغبة الأمير ثم عرجت على مسجد المرحوم. كان وحده في الحجرة وتركه الجميع لأداء صلاة الظهر. عندما لمحني الخاني فرح كثيراً. كان يلوح ضعيفاً جداً وواهناً. قال لي بصوت يخنقه الأنين: «لقد أرسلك الله يا بنكين». ثم أخرج من تحت رأسه بضعة أوراق ملفوفة، مدها إلي وقال: «أوصل هذه الأوراق إلى الأمير. أسرع لئلا يعرف أحد أنني كتبت رسالة له». قبلت يديه، ثم وضعت الرسالة تحت إبطي وما إن سمعت جلبة أصحابه وهم يدخلون الحجرة، حتى خرجت.

شمسو القَوّال

أي صباح كان ذاك؟

ذلك الصباح ما كنت أرغب في الخروج من الدار. كنت قد أعددت قهوتي وملأت غليوني تبغاً. كنت أرى من خلال النافذة خيوط المطر وأسمع صوت قطراته وهي تسقط على حافة النافذة.

ومع الرشفة الأولى من القهوة، والنفس الأول من الغليون قدمت زوجتي من الخارج وهي تقول مرتعبة:

–شمسو! قم واسمع! صوت مؤذن يعلو ويقول لا أدري من مات!

–هوه يا امرأة! أهذا غريب! كل يوم يموت أحدهم. إنها مدينة كبيرة.

هكذا أجبت زوجتي وأكملت شرب قهوتي وتدخيني. لكن صوت المؤذن كان يقترب أكثر فأكثر وهو يختلط بصفير الريح خارجاً. أما خيوط المطر فكانت تعتم لكن الهطل يخف. لم تكن قهوتي قد بلغت منتصفها بعد، حتى سمعت صوتاً جهورياً يعلن النبأ الأسود:

«انتقل إلى رحمة الله تعالى الشيخ أحمد الخاني. وسيؤخذ نعشه إلى المسجد أعلى المدينة. لا تحرموا أنفسكم من بركة صلاة الجنازة،

يا أهل الإسلاااااام».

ومع أني كنت على علم بمرض الخاني وأنه في أيامه الأخيرة، فقد سمرني هذا النبأ إلى الأرض.

سحبت أنفاساً خفيفة عجلى من الغليون الخشب وتركت قهوتي التي كنت شربت نصفها في مكانها ونهضت لأخرج، فاعترضتني زوجتي قائلة:

-إلى أين يا شمسو؟

-سأذهب لتشييع الجنازة.

-هوه! أفي أذنيك وقر أم هما مثقوبتان؟ ألم تسمع الرجل يدعو فقط أمة الإسلام؟

تشاجرت معها، وكدت أضربها لكمة بين عينيها لكن يدي لم تطاوعني فقلت لها: «يا حرمة هذا أحمد الخاني وليس رجلاً آخر! ما لي ولنداء ذلك المؤذن!» ثم لبست عباءتي المبطنة بفراء الخروف وخرجت.

* * *

ما فعلوه بي خلال التشييع

تحت ذلك المطر الخريفي مشيت وفي خيالي يهطل مطر ناصع

البياض. مطر تتساقط قطراته من سماء روح الخاني وقلبه الكبير المتألم.

كان ذلك يوم السبت. أول يوم من أيام صوم المسلمين. كان الناس يتدفقون جماعات صوب مسجد المدينة لحضور صلاة الجنازة. وأنا أيضاً توجهت إلى المسجد، وقريباً من بابه التقيت بصلاح الدين بائع الكتب الذي ما إن رآني حتى قال والدموع تلمع في عينيه:

–والله إنك وفيٌّ يا كريف[17].

–هذا هو الخاني. الخاني وليس رجلاً آخر.

هكذا أجبته بما كنت قد أجبت به زوجتي قبل قليل. ففي أيام كتلك لا يسع المرء سوى اجترار كلمات مكرورة كثيراً. وفي مناسبة الموت، خاصة موت رجل مثل الخاني، ماذا يسع المرء أن يقول!

لم أدخل إلى المسجد لكنني رأيت الملا إسماعيل يؤم الناس في صلاة الجنازة. ولما أنهاها التفت إلى الشيخ سيف الدين وقال: «أنت ستقرأ دعاء التلقين. هكذا أمر الأمير». التمعت عينا ذلك الشيخ الدجال، ومسح على لحيته المحناة وقال كمن لم يصدق: «هيا يا جماعة!» وتقدم الناس.

ولما التقت عيناه الثعلبيتان بي خارجاً، فغر فمه من الدهشة لكنه سرعان ما قال: «شمسو القوال! مرافقتك لنا إلى القبر لا تجوز».

(17) كريف: كلمة يتخاطب بها المسلمون الأكراد مع المسيحيين أو اليزيديين للتحبب. المترجم

مد الملا إسماعيل يده إلى عمامته كي تعتدل على رأسه وقال: «يا شيخ سيف الدين! ليس هذا مقام يجوز ولا يجوز ..».

قبض الشيخ سيف الدين على لحيته المحناة بيده اليمنى وقاطعه: «لا يجوووز، لا يجوز. سله إن شئت أيريد أن يسمع اسم ...».

ابتعدت وكانا ما يزالان يتناقشان. ابتعدت ومشيت تحت مطر ذكرني بسواد قلب الشيخ سيف الدين وسوء طويته. حزنت كثيراً وأشفقت على نفسي. لم ينكسر قلبي في حياتي كلها كما انكسر في ذلك اليوم. صحيح أن بعضهم كان يسخر بنا وبديننا وبالملك طاووس أحيانا مطلقين عليه نعوتاً سيئة وأسماء قبيحة، لكنني كنت أعرف أنهم يفعلون ذلك جهلاً منهم. لكن ذلك الثعلب منعني من تشييع جنازة الخاني إلى لحده.

لم يكن الخاني هكذا. حاشا أنه كان هكذا. فلقد كنت أذهب إلى حجرته كثيراً في الليل وكنت أصغي إليه وهو يصغي إلي. أحياناً كانت زوجتي تسألني: «أتثق بهذا الشيخ المسلم؟ ألا تخشى أن يتحدث أمامك يوماً بسوء عن ملك طاووس! أو يتفوه بما لا يناسب ديننا؟»

لكن الخاني لم يتفوه أبداً بما يهيننا أو يهين عقيدتنا. على الضد من ذلك فقد كان يحترمني دائماً ويقول:

-بقدر ما هنالك من طرق ودروب، فإن كلها تؤدي إلى الله تعالى.

-والكافر!

-كلمات مثل: كافر، يزيدي، مسلم، نصراني، يهودي، هي في ظاهرها متخالفة ولكنها في أصلها متحدة. إن جميعها نقاط مرصوفة متتابعة في دائرة وجود الذات الإلهية. ولقد أنزل الله بحكمته كثيراً من الأديان والمذاهب إلى البشر كي يتعارفوا. تماماً مثل تنوع الزهور وجميع الكائنات في الأرض والسماء. والله بذاته صاحب تسعة وتسعين اسماً. إن سبب الفرقة بين البشر هم البشر أنفسهم. انظر! هذا سراج رأسه نار. نار تنشر الضياء وتملك القدرة على الإحراق أيضاً. وهي في يدك! أنت وإرادتك استعملها كما تشاء. وهذا هو مثال عزازيل الذي كان يسمى طاووس الملائكة لاشتهاره بين ملائكة الله بالطاعة والعبادة الكثيرة. ما كان بإمكانه أن يتصرف بدون إرادة الله ولو بمثقال ذرة».

كان صدري ينشرح كثيراً لأحاديثه هذه. لم أكن أفهم هذه الأمور، ولم أكن أعرف كيف يتحدث المسلمون في كتبهم عن الملك طاووس! الذي كنت أعرفه هو أن المسلمين يعادونه منذ الأزل ويعرفونه في قرآنهم عدواً لله عصى أمره وسيكون هو ومن اتبعه حطباً لنار جهنم!

* * *

كان النعش الذي يحمله أربعة رجال على أكتافهم يتقدمهم الملا إسماعيل وبائع الكتب صلاح الدين، يسير بتثاقل بين الجموع مثل

سفينة باتجاه الأعلى. ألقيت نظرات حزينة على الخاني الملفوف بكفن ناصع البياض وانحدرت دموعي دون إرادة مني كما تسقط أوراق الخريف. لم أرافقه، لكن قلبي نفسه صلى على ذاته النورانية.

الملا إسماعيل البايزيدي

سر الرسالة

وسط ذلك الزحام، وسط ذلك الحزن الذي كان يهطل أكثر من المطر على قلوبنا، اقترب مني بنكين المامزيدي، حاجب الأمير، وسلمني رسالة كان الخاني كتبها للأمير. أراد بنكين ألا يراه أحد، فمد إلي الرسالة بيد مرتعشة ووجه يعلوه الكرب ثم مضى.

لم يكن الخاني ليخفي عني أسراره أبداً. أما تلك الرسالة! كان قد كتبها أيام مرضه بيد أنه لم يأت على ذكرها ولو مرة واحدة. كنت ألمح آثار الحبر على أنامله، لكني لم أتخيل قط أنه يكتب، إنما ظننت أن السواد الذي لطخ أنامله هو من أثر السم.

إلا أنه وقبل أن يسلم الروح سألنا: «هل قرأ الأمير رسالتي؟»

في المدة الأخيرة أخبرني تيمور الكرجي والملا صالح أنهما كانا على علم بالرسالة! ترى لماذا أخفى الخاني عني ذلك؟

وحينما توفي وهو يقول: «هل قرأ الأمير رسالتي» اندهش بعض الحاضرين. أعرف أنهم استنكروا ذلك وقالوا في سرهم: «لماذا لم ينطق الخاني بالشهادة وتحدث عن رسالة نجهلها؟ كان حرياً بشيخ في مقامه ألا يلهج لسانه إلا بذكر الله!»

لم يكن ذلك ما يهمني لأنني ظننت أن الخاني يهذي بسبب حمى

الموت ويتفوه بسبب معاناته من طلوع الروح بكلمات خيالية. كنت أيضاً أقول ربما كتب الخاني رسالة إلى الأمير، ولولا أن بنكين الحاجب سلمني تلك الرسالة يوم الدفن، لبقيت معرفة ماذا كتب فيها، حسرة في القلب إلى الأبد.

* * *

أنا والخاني

كان يكبرني بحوالي خمس سنوات. وحينما عاد من بلاد الجزيرة ونال الإجازة العلمية، كنت ما أزال طالباً. وعلى يديه تعلمت النحو العربي ومتن الإيساغوجي لابن عمر الأبهري بشرح شمس الدين الفناري. أما أنا فقد ساعدته في تعلم الفارسية.

كنت شاهداً على حياته التي قضاها في بايزيد كلها، منذ بداية منصبه إماماً وخطيباً ومدرساً وبنائه مدرسة لطلبة الفقه، ثم عمله كاتباً في دواوين الأمراء السابقين، وقصة حبه الأليمة أيضاً. كنت شاهداً على كتابته قصة مم وزين، وتخاصمه مع الأمير عبد الفتاح الذي ذهب في يوم دفنه إلى رحلة قنص!!

ومنذ ما قبل عشرين عاماً توجه الخاني إلى أمراء بايزيد بطلب بناء قيسارية للوراقين في وسط المدينة. كان يريد أن يجعل بايزيد قبلة

الطلاب الأكراد، ويدفع راتباً لكل خطاط كي ينسخ الكتب. لكن أحداً من الأمراء لم يعره اهتماماً.

ذات مرة قال لي والمرارة تخنق حلقه: «يا ملا إسماعيل! انظر! توجد في بايزيد حوانيت كثيرة للنعالين والإسكافية وخانات واصطبلات. أهو مروق على الدين لو بنيت فيها قيسارية للوراقين؟ أمراؤنا هؤلاء عميان. نعم عميان. إنهم ظالمون كفاية وجاهلون أيضاً».

كنا أنا وهو كالظفر واللحم والسراج وزيته. ما كان أحدنا ليخطو خطوة دون الآخر وكانت آراؤنا متفقة في كل شيء. وحينما أنهى قاموسه الشعري «نوبهار» المخصص للأطفال، قال لي: «يا ملا إسماعيل أرني همتك! ألّف أنت أيضاً قاموسا بالفارسية». عندها قمت ونظمت قاموس «كلزار» وصرنا ندرس القاموسين المنظومين شعراً لطلبة المدرسة التي بناها هو.

الخاني العاشق

كانت ابنة الحاج زهدي فتاة حلوة بيضاء وجميلة. فاتنة وعاقلة. وما إن رآها الخاني لأول وهلة حتى هام بحبها. وفي المساء، حينما بقينا أنا وهو لوحدنا في الحجرة، قال: «عجباً!! إنني عاشق». كنت أعرف أنه وقع في الحب، فقد كان يبقى ساهياً لساعات ثم ينشد

قصائد الجزري بصوت عال، و يقول: «إن ديوان الجزري بمثابة قرآن للعاشقين».

لم يكن يهدأ له بال. ولما تزوجت ابنة الحاج زهدي، أصبح قلب الخاني مثل هشيم الحرمل إذ تشتعل فيه النار، وتحطمت آماله كلها.

كان يطفئ جوى قلبه بمداد القصائد التي يكتبها، وبالدمع الذي يذرفه على صفحات مم وزين. أتذكر أنه كان، كلما كتب بضعة أبيات من مم وزين، يقرأها بصوت مخنوق ثم يلزم الصمت طويلاً.

وذات ليلة ربيعية قلت له سائلاً: «لماذا لا تكمل نصف دينك وتتزوج؟» اهتز كشجرة تعصف بها رياح الخريف وقال: «كانت شَنْكي ديني كله. لن أبدل عشقي السامي بزواج وضيع». وبقي إلى حين وفاته وفياً لعهده ذاك فلم يتزوج.

مم وزين

حين طالع ملالي سرحدان كتابه مم وزين ثاروا وغضبوا. ادعوا أن الكتاب مليء بالكفر والفسق والفجور! حتى أن بعضهم كان يقول – معاذ الله – إن الخاني يحرض الشباب على الفاحشة ويضل الناس عن سبيل الشريعة! كان الشيخ سيف الدين ذو الجبة الزرقاء، الذي لا نصيب له في شيء من العلم، أكثر من يناوئ الخاني ويعرض به في المجالس. حتى أنه كان قد شكا أمر الخاني إلى الأمير عدة مرات، بل

ووصل إلى والي وان ليخبره أن أحمد الخاني يؤلب العامة على الدولة العلية!

هذا صحيح، فالخاني لم يكن يؤلب العامة فقط، بل الأمير وزعماء الكرد الآخرين أيضاً. فقد كان يقول: ما دام السلطان لا يحكم بما أنزل الله فليس لنا أن نطيعه. كان الخاني يريد أن يكون للأكراد أيضاً سلطانهم الكردي.

ذات مرة ثار أحد الملالي من ملاذكرد في صحن المسجد واحتد وقال بغضب: «يا هذا! عساكر سلطاننا يحاربون الكفار وأنت تدعو الأكراد لحرب عسكر السلطان! أهذا هو حق الله! أو يأمرنا القرآن والحديث بهذا؟»

ثار الخاني أيضاً وقال محتداً: «أنا أيضا أعرف أن جنود السلطان يحاربون الفرنجة! ليست تلك الحرب جهاداً يا ملا! إنها حرب في سبيل الغنائم والسبايا. إنها لفرصة مناسبة كي يثور الأكراد».

* * *

ما كان الخاني ليخرج من حجرته في الصيف الفائت. كان يصل الليل بالنهار وهو يكتب. وكثيراً ما كنت أزوره في الحجرة فأرى دوستو الأورموي عنده. كان دوستو يقول والخاني يدون. كان الخاني

قد بدأ بنظم قصة قلعة دمدم ويأمل أن ينتهي من نظمه بحلول عيد الأضحى المبارك.

كانت مئة عام قد مرت على واقعة قلعة دمدم، لكنه كان يكتبها وكأن الدخان ما يزال يرتفع من أبراجها وأسوارها. وحينما سألته ذات ليلة قائلاً: «لم تستعجل الكتابة هكذا؟ ما الذي أمامك؟»

حمل دواة حبره ونظر إلي صامتاً لبرهة ثم قال: «لو كان ما في بايزيد من شجر أقلاما، وكانت بايزيد مداداً لما كفاني ذلك لشرح ما يعتلج في صدري من هموم وآلام. ما هي حياة المرء يا ملا إسماعيل؟ سنوات عدة تمضي كالبرق الخاطف».

وبدأ يروي لي حكاية السلحفاة والفراشة.

حكاية السلحفاة والفراشة

يحكى أن سلحفاة عجوزاً كانت تسير في يوم من أيام الربيع. الله أعلم منذ كم سنة؟ ما كان أحد يعرف ذلك. كانت الدنيا قد تحولت إلى قطعة من الفردوس. الطيور تحوم جذلى. السواقي والجداول تنساب بانسجام. الأزاهير تصنع نقوش البساط الأخضر الممدود على الأرض. الفراشات تطوف حول الأزاهير. وكانت إحدى تلك الفراشات تتراقص مسرعة وهي تطير من زهرة إلى أخرى، تغادر البنفسج لتحط على زهر النسرين، وتغادر النسرين لتحوم حول

القرنفل ومن هناك تنعطف على زهور الحندقوق. وما إن تدنو من زهرة حتى تهجرها. لفت ذلك نظر السلحفاة التي كانت تسير متئدة مثل طفل بدأ يحبو حديثاً، فوقفت في مكانها ونادت الفراشة قائلة: «هيه يا أختاه. ما لك مسرعة مستعجلة؟ أأصابك الجنون أم أنك مجذوبة؟»

الفراشة التي كانت قد حطت على نرجسة ناعسة وبدأت تمص رحيقها، توقفت وهدأت جناحيها الخلابين الجميلين وخاطبت السلحفاة قائلة: «أيتها السلحفاة! أيتها السلحفاة العجوز. الله وحده يعلم كم صار لك من السنوات على هذه الأرض، وكم ستعمرين بعد! فلماذا ستستعجلين في سيرك؟ أما أنا فعمري ربيع واحد. بضعة أشهر تستضيفني فيها هذه الدنيا الجميلة، أستسلم للموت بعدها. لذلك فأنا لا أريد أن أضيع لحظة واحدة من عمري. نعم أنا مجذوبة. مجذوبة من عشق هذه الدنيا الجميلة الندية اللطيفة، وهذا الربيع الفردوسي الرائع. لا أستطيع أن أكون مثلك فأضيع أيامي يوماً إثر يوم. نعم أنا مجذوبة أيتها السلحفاة. إنها جذبة الحياة. فسيري في طريقك. لقد أهدرت معك كثيراً من وقتي القليل».

حزن الخاني والسم المجهول

كانت كآبة الخاني قد زادت في الفترة الأخيرة وناله اليأس. كان قد

أصبح قليل الكلام، ومن هذا القليل أنه قال ذات مرة:

«كل مصائب الأكراد آتية من أمرائهم الذين سدوا أبواب أذهانهم. هؤلاء الأمراء الذي أصبحوا ثعابين ينفثون السم في أرواح الناس. هؤلاء الأمراء الذين دأبهم حب الدنيا وجمع الذهب والمال، ولا يعيرون العلم أي اهتمام. هؤلاء الأمراء الذين هم عبيد شهواتهم. هؤلاء الأمراء الذين حطموا ظهور الناس بعصا جورهم. هؤلاء الأمراء مكتوفو الأيدي أمام الترك. أمراء كهؤلاء يمكن صنعهم من الطين أيضاً يا رجل!»

كنت أعرف أن زيارة الملا فريد وميرزا صبري البيرخالي وذلك الملثم قد كسرت خاطر الخاني وعكرت مزاجه. وقد حاولت مراراً أن أعرف منه ما الذي قالوه في زيارتهم لكنه لم يبح لي بشيء. حتى أثناء مرضه، حيث كنا نعرف وكان هو يعرف أن الموت بات على عتبة حياته ينتظره، لم يتفوه بكلمة عما دار بينه وبينهم في تلك الزيارة.

وذات ليلة، بعد أن غادرنا الطبيب الأرمني زُهراب وانفض الحاضرون، بقيت أنا وهو لوحدنا. مسحت العرق المتصبب من جبينه وتوسلت إليه: «يا ملا أحمد بحق عشقك قل لي ما قالوه لك».

تنهد عميقاً ثم رفع رأسه عن المخدة قليلاً واستوى جالساً. رفع فتيلة السراج عند رأسه ليزداد النور، ثم قال: «إن الأمير ينوي قتلي. لكنني وقسماً بذات الله عز وجل لن أمنحه هذه الفرصة».

ثم روى لي كيف أساؤوا الأدب في حضرته ودعوه إلى ترك الخطبة

والتدريس. وهددوه باسم الأمير قائلين: أزل الحناء عن رجلك وتعال إلى ديوان الأمير. ثم حكى لي كيف أخبرهم أن بإمكان الأمير أن يزوره في الحجرة إن أراد! قائلاً لهم: «ما الفرق بين حجرتي وديوان الأمير؟ ربما كانت حجرتي أكثر طهارة من ديوانه، إذ لا يجتمع الأنجاس في حجرتي على الأقل».

هنا تأكد لي تشخيص الطبيب الأرمني وأدركت أن تسميم الخاني خبر يقين. فمددت اللحاف عليه وقلت له:

–لقد سقوك السم إذن! بان المستور الآن.

–لا، لا. ليسوا هم. هم لم يسقوني السم.

–فمن إذن؟

–مصائب الأكراد واستعبادهم سم بحد ذاته. أفاعيل أمرائهم سم سليماني، يتسرب إلى دمي منذ أربعين عاماً يا ملا إسماعيل.

استراح قليلاً ثم مد يده إلى دواة الحبر وقال: «أليس الحبر سماً أيضاً؟» وأطبق عينيه ثم غط في نوم عميق.

* * *

هذا غير ممكن

حين عدنا من الدفن أردت قراءة رسالة الخاني التي كتبها للأمير

ونحن بعد في مجلس العزاء. لكنني لم أجدها معي! حاولت دون جدوى أن أتذكر أين أعطانيها بنكين المامزيدي. كان المطر الأسود قد توقف وظهرت في الأفق الغربي شمس حزينة تختفي وراء الجبال.

طلبت الإذن من جماعة المعزين وذهبت إلى داري. أخرجت فرسي المربوطة في الاصطبل وامتطيت صهوتها وذهبت إلى المقبرة. مثل شاب مقدام ألهبتُ خاصرة الفرس بالمهاميز فكادت تجن، ووصلت قبل أن تنام الشمس في سريرها الغربي. وقعت عيناي على بضعة أوراق متناثرة أثقلها البلل وألصقها بالأرض. كانت بعض الأوراق قد صارت عجيناً وما عاد فيها شيء يُقرأ. وعلى بعضها الآخر انطبعت آثار أقدام المشيعين وحوافر الأحصنة والبغال. جمعت كل تلك الأوراق ورقة ورقة وثنيت عنان فرسي وانحدرت على جناح السرعة صوب المدينة.

مساء ذلك اليوم، وعقب عودتي من مجلس العزاء إلى البيت، فردت تلك الأوراق على ضوء قنديل كان الخاني قد أهداني إياه وجففتها أمام نار الموقد. انسحق قلبي. كانت سطور رسالة الخاني قد انمحت بسبب المطر غير سطور قليلة نجت من كل ورقة، سقطت عليها دموعي. كانت سطوراً مكتوبة بسرعة وغضب، لكن أيضاً باللطف الذي يشي بأن أنامل الخاني حبرت تلك الأوراق. كانت كل كلمة تفوح برائحة حسرة من حسرات الخاني، ويبوح كل حرف بآهة من آهاته، وفي كل سطر تسيل زفرة من زفراته حبراً مع دموعي.

جففت عيني المبللتين بالدمع وعدت لأكمل قراءة ما تبقى من الرسالة. وحينما وصلت إلى السطور الأخيرة، نهضت من مكاني فزعاً وكأن ثعباناً لدغني وصرخت:

-لا، ليس ممكناً! لاااااااااااااااااااا.

تعلمت خصائص الأدوية وطبائع السموم لدى كيميائي عربي من أطراف بغداد، جاء يعمل طبيباً في بلاط أحد ولاة وان. أرشدني هذا الكيميائي إلى معرفة كل الأعشاب التي يمكن استخلاص السم القاتل منها.

أفشى بكل أسرار الكيمياء. لم يترك باباً مسدوداً إلا وفتحه على مصراعيه أمامي. ما عدا سر مزج الطلق والزئبق الفرار! هذا دأب الكيميائيين منذ القدم، فهم لا يبوحون لأحد بهذا السر كما لا يفشون سر تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب.

لكن في نهاية الأمر، وقبل أن أملأ كأس معرفتي، أقسم لي ذلك الكيميائي العربي بضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني أن مسألة إمكانية مزج الزئبق والطلق محض كذب وأنهما لا يمتزجان بأي وجه من الوجوه. ومن يقدر على ذلك فإنه سيملك الشرق والغرب.

قصة ذبح أمي وما تبعه

أبي الذي كان يعرف باسم بِرْزِين الألشكردي، ذبح أمي أمام عيني وأنا طفل في العاشرة من العمر. كان الخنجر في يده ويخور مثل ثور: «أيتها العاهر لقد دنست شرفي!».

لم أكن أعرف ما الذي يجري وما هو داعي غضب أبي وثورته إلى تلك الدرجة؟ كنت في زاوية بيتنا الصغير مختبئاً وراء ستارة أرقب شجارهما. كنت أظن أن أبي لن يقتل أمي الجميلة الشابة. لكن ظني ذُبِح حين ذبحت أمي. كان أبي ما يزال في ثورته يحمل رأس أمي المقطوع، حين هربت. ركضت وركضت لا ألوي على شيء حتى حل علي المساء وبدت لي الشمس الآيلة للغروب خلف الجبال مثل رأس مقطوع. ومذاك لم نلتق أنا و أبي ثانية. كنت أعتقد أنه سيقتلني أيضاً لو رآني.

في مدينة تبعد عن قريتنا من ثلاثين إلى أربعين فرسخاً، وقعت في يد عصابة من الشطار والحشاشين. أصبحت صبيهم، يغمسون أقلامهم في دواتي ويسطرون شهواتهم على ظهري. كنت أتألم في البداية كثيراً، لكنني اعتدت بعد عديد من المرات وصرت أجد في ذلك لذة.

كنت جميلاً وسيماً مكتنزاً وصقيل اللحم، أخاف الرجال وأريد أن يحموني.

كبرت على هذا المنوال. وشببت عن طوق أولئك الشطار والحشاشين في البلدة وصرت أذهب إلى الخانات. والخانات المنعزلة والبعيدة عن المدن، كانت مرتع الشطار والتجار والملالي وطلبة الفقه وكل من هب ودب.

ضحيتي الأولى

ذات صيف اتخذت طريقي إلى ديار بكر. كنت قد عبرت نهر مُراد واستقبلني سهل مُوش. كان الظلام قد حل وكنت منهكاً نعسان، تغزو عيني رغبة سكان مدينة بأكملها في النوم. لم يكن ذلك النعاس ليطير بالرغم من كل محاولاتي. صحيح أنني كنت متقلداً خنجري تحت الحزام، لكن قطاع الطرق كثيرون وكان علي أن أستريح وأنام قليلاً. آنست من أحد الأطراف ناراً ولا أدري أي قوة جذبتني إلى تلك النار في ذلك الليل البهيم. كل الخوف من العصاة وقطاع الطرق ذاب في قلبي كفص من الملح، وجذبتني تلك النار إليها مثل المغناطيس.

حاصل الكلام أنني دنوت من النار فلمحت أطلال خانٍ خربٍ، لكن لم أر أحداً قرب النار! تلوت بضع آيات لأنني ظننت أن ذلك من فعل الجن والعفاريت. ثم استولى علي الخوف وأردت اجتياز ذلك المكان، لكنني سمعت خشخشة من الخربة، تبعها صوت آدمي صرخ قائلاً: «من هناك؟ أإنسي أم جني؟»

ظهر من نبرة صوته أن خوفه لا يقل عن خوفي، فتلاشى خوفي وصحت به: «أنا آدمي مثلك. أنا عابر سبيل». وتوجهت إلى الخان الطلل تاركاً ورائي النار التي بدأت تخبو.

كان الخان مظلماً. كنا أنا وذلك الرجل نشاهد بعضنا بالكاد

في ضوء بعض النجوم وتلك النار المشرفة على الموت. رغبة النوم التي كانت قد طارت من عيني بسبب الخوف عادت لتداهمني من جديد. ودون أن أدع الرجل يسأل عن أصلي ونسبي أو يستعلم عن قريتي وعشيرتي، قلت له:

-يكاد يغشى علي من قلة النوم. لقد نال مني التعب بعد أن سرت مسافة نصف يوم، فإن أذنت لي سأبيت الليلة هنا.

-وَيْ! ولماذا لا آذن لك أيها الشاب! الخان مقفرٌ وهو ليس ملكي. ولقد لطف الله بي إذ أرسلك الليلة، وإلا لاستوحشت المكان وحيداً.

ثم انتحى زاوية وخلع نعليه فوضعهما تحت رأسه. كان مقبض خنجره يلمع في الضوء الخافت. فذهبت وتمددت بجانبه. خلعت نعلي وأسندت رأسي إليهما مثله.

من النافذة الشرقية لمحت البدر المكتمل. البدر الذي أرهبُه منذ طفولتي وما كنت أتجرأ على النظر إليه طويلاً. كانت أمي تقول: «إن من يطيل النظر إلى البدر أو المرآة، يصيبه الجنون!»

لبست سروالي، وأحكمت التكة على خصري ثم نهضت لألقي نظرة إلى الخارج. حانت مني التفاتة إلى الرجل، وحينما أمعنت فيه النظر صرخت بكل ما حباني الله به من قوة صوت.

* * *

كان أبي. كانت لحيته قد شابت قليلاً، لكن وجهه كان كما عهدته مدوراً يعلوه أنف أفطس وحاجبان غليظان.

بصرختي تلك، هب من النوم فزعاً ونهض وهو يمد يده إلى مقبض خنجره. وحينما رآني قبالته، قال بصوت مرتعش: «من أنت؟»

سللت خنجري وأسندت ظهري إلى النافذة، رأيت في نور القمر شرارات الموت تتطاير من عينيه. كان هو، هو بعينه، بقامته وصوته وهيئته وكل شيء فيه، كان أبي.

لا أدري ماذا اعتراني وقتها! بقيت لا أحير جواباً لبرهة وكأنني أخرس، ثم قلت: «الأفضل ألا تعرفني». لكنه رد علي بصوت يفلق الصخر: «من أنت أيها الصبي؟ هيا قل لي اسمك واسم عشيرتك!» تقدمت خطوة إلى الأمام وقلت: «أنا ابنك، أنا ياوز. أنا ياوز الذي ذبحت أمه أمام عينيه، أنا ابنك الذي جعلته يهيم على وجهه في البراري، ابنك الذي ...».

لكنه لم يسمح لي أن أتم كلامي. هجم علي كخنزير بري وهو يقول: «يا ابن العاهرة أما زلت تعيش وأنا أبحث عنك منذ عشر سنوات؟»

وطعن وجهي بالخنجر، فرددت عليه بطعنة مماثلة لكنه تنحى وانسحب إلى الخلف وذهبت ضربتي في الهواء. تقدم مرة أخرى وطعنني عدة مرات في وجهي، فرددت عليه بأن ضربته في رقبته وصرنا نتبادل الطعنات سجالاً حتى قضيت عليه. لكن التعب

والإرهاق نالا مني كثيراً وامتلأ وجهي بالطعنات وانشق فمي وبلغت الطعنة الأخيرة صدري دون أن تذهب عميقاً. وبالرغم من أن جراحي كانت خفيفة فقد غبت عن الوعي وبقيت مرمياً في ذلك الخان القفر.

الأستاذ خليل الدياربكري

حين عاد إلي الوعي كانت الشمس قد ارتفعت قدر رمح في السماء. كان رأسي في حِجر أحدهم والضمادات تعلو وجهي. كنت، لعجزي عن التحدث، أتكلم إيماءً مع ذلك الرجل الذي يضع رأسي في حجره. كنت خائر القوى لا أتذكر من الحادثة التي عصفت بي ليلة البارحة إلا ما يتذكره المرء من منامه. بحثت بعيني عن جثة والدي لكنني لم أرها. فهم الرجل الذي كان يحضن رأسي، السؤال الذي أثارته نظراتي الواهنة. فخاطبني بصوت حنون قائلاً: «لا تخف يا صبي، فلقد مات ذلك الرجل الذي أراد قتلك فدفنه رجال القافلة. أما أنت فقد نجوت من الموت. لقد غبت عن وعيك رعباً وليس بسبب جراحك فهي ليست عميقة. لا تخف».

كان طعم الدم الرطب يملأ فمي واستبدت بي الرغبة في البصاق لكن فمي الجريح لم يسعفني. فهم ذلك الرجل ثانية ما يجول في خاطري وقال: «لا تتكلم يا صبي. سنفهم كل شيء فيما بعد».

كان الرجل تاجراً قادماً في قافلة ديار بكر من يريفان. كان معه حمل بغلين من القرمز وجراب مليء بالإقط الأرمني، يلقي بين البرهة والأخرى بقطعة منه في فمه ويقرضها بين أسنانه. كان يبدو تاجراً ثرياً لكنني علمت فيما بعد أنه خطاط مشهور أيضاً. كانت مدارس دياربكر ومساجدها وحجارة خانقاهاتها وقيسارياتها، منابرها ومحاريبها مزدانة بخطه الجميل. كان يقال له الأستاذ خليل الخطاط. كان موسراً جداً لدرجة يخال المرء فيها أنه شريك أمير أمراء ديار بكر.

ولقد أرسله الله في ذلك اليوم مبعوث خلاص لي. كنت أسمع أصوات بعض رفاقه من التجار يقولون له: «يا أستاذ خليل سلمت يداك فقد داويت جراح هذا الشاب وأنقذته من الموت. لكنك لا تعرفه. فأطلقه الآن ليذهب إلى أهله وعشيرته».

لكنه لم يستمع لهم. أخذتني الدهشة من مكرمته وقلت في سري: «أي رحمة نزلت على قلب هذا الرجل؟ لماذا يرعاني كل هذه الرعاية يا ترى؟» أخيراً وضعني على ظهر حصان أحد غلمانه وتوجهت القافلة إلى ديار بكر.

* * *

تعلمت على يد الأستاذ خليل فنون الخط العربي. كان يضع أمامي كل يوم بضع ورقات عليها نماذج الخطوط ويقول: «انظر في هذه

الخطوط وقلدها».

من بين كل تلك النماذج، كانت خطوط ياقوت المستعصمي مثار إعجابي الأكبر. فلقد كانت سحراً لا كتابة! كانت جميلة لدرجة أن المرء يكاد يسمع صوتها، فهي تُقرأ حتى لو لم يقرأها أحد.

يوماً بعد يوم تمرست في الكتابة أكثر. كنت أنظر إلى أصابع الأستاذ خليل وهو يحيط بها القصبة ويغمسها في الدواة بحنان ثم يخرجها بحرص شديد حذر أن تلامس فوهة الدواة، ويبدأ الكتابة.

بعد ثلاثة أشهر شفيت جراح وجهي لكن وسامتي كلها كانت قد زالت. لم يبق فيّ شيء جميل سوى عيني. أما وجهي، فصار مثل الكوى الكثيرة على سور دياربكر، وفمي اعْوَجَّ كالمنجل[18].

من سقى الخاني السم؟

منذ تلك الليلة أصبح سيان لدي رأس الإنسان ورأس البصلة! لم أكن قاتلاً ولا كنت أحب الدم المهراق. إن الذي يُسيل حبراً على الورق ويعيش مع الحرف، لا يمكنه أن يسفك الدماء. لكن قدراً لا يد لي فيه دفعني إلى أن أكون قاتلاً.

(18) يروي الكاتب بعد ذلك قصة العلاقة التي تنشأ بين هذا الفتى والاستاذ خليل والتي تنتهي بقتله له بسبب هجرانه له بعد تعرفه على فتى آخر تركي، ومن الوصف هنا ما أثرنا القفز فوقه إذ لا يقدّم أو يؤخّر في بنية السرد شيئاً، في الوقت الذي يحتوي فيه على الكثير من الإسفاف. (المراجع)

تمكنت من الوصول إلى الباشوات، البيكوات، الوزراء، الآغوات، الأمراء، الحجاب، أصحاب القلاع، وغيرهم. وبفضل خطي الجميل كدت أصل إلى قصور اسطمبول أيضاً. وكما كان خطي متقناً فقد كانت خططي لقتل الخصوم محكمة. كنت أدبر قتل خصم أي رجل ينفحني المال. وكانت تدابيري متعددة، منها القتل بالسم والطعن بالخنجر والخنق بالحبل وكتم النفس بالوسادة، حيث كنت أضعها على فم ضحيتي حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة.

عندما كنت أقتل رجلاً، كنت أقتل فيه أبي والأستاذ خليل معاً. لكن اليوم الذي رأيت فيه رأس أمي مقطوعاً والدم يفر ليلطخ الستارة التي كنت أختفي ورائها، وأيضاً اليوم الذي قتلت فيه أبي في ذلك الخان المقفر، واليوم الذي قتلت فيه الأستاذ خليل، هذه الأيام لا يمكن أن تموت وهي عصية على القتل.

لكن، والحمد لله، لم أقتل الخاني.

جاء ميرزا صبري إلى ألشكرد ودعاني إلى قتل الخاني. كنا على معرفة سابقة فقد خططنا سوية لقتل الأمير محمد وكاتبه سليمان بيك قبل نحو ثلاثة أعوام. ظننت أن أهل بايزيد سيعرفونني لذلك جئت ملثماً وكان ميرزا صبري يقدمني لكل من يلقاني على أني أحد أقربائه. ولكي لا يثير لثامي فضول الناس، كان يقول: «المسكين! أسنانه تؤلمه وخده متورم».

كان يريدني أن أقتل الخاني بالسم فأعددت لذلك قارورة من السم

السليماني. لكن والله لست أنا الذي قتل الخاني. أعترف أنني ذهبت إليه وبدلت الزيت في سراجه. أعترف أنني كتبت نسخة شيرين وخسرو بحبر مسموم ووضعتها لدى صلاح الدين الوراق لكي يلمحها الخاني عنده فيأخذها إليه في البيت ويقرأها فيتسرب السم يوماً بعد يوم إلى بدنه. لكني أقول للمرة الثانية: الحمد لله، فأنا لم أقتل الخاني.

حينما خرجت من عند الخاني، أنا وميرزا صبري والملا فريد، توجهت إلى خان قريب من بايزيد كنت أبيت فيه. اكتشفت هناك أنني سكبت زيتاً غير مسموم في زجاجة سراج الخاني.

كنت قد حصلت مقدماً على ثلاث عشرة قطعة ذهبية من ميرزا صبري على أن أقتل الخاني. وكنت موعوداً بالحصول على سبع قطع أخرى بعد موته. كان خوفي هو أن يشفى الخاني من مرضه، وأن يعمد ميرزا صبري لا إلى حجب تلك القطع السبع عني، بل ويسترد أيضاً الثلاث عشرة قطعة المقدمة سلفاً.

لم كان الخاني سيُقتل؟ ما كنت أعرف السبب. لكنني سمعت ميرزا صبري يقول له ليلة ذهبنا إليه: «إنك لا تدعو في خطبك للسلطان. وتطعن في أميرنا. وعليك أن تعتذر وتلقي رداء الندم على كتفيك».

وصار هرج ومرج.

تلك الليلة - لا أخفي هذا - أعجبت بالخاني. لقد كان رجلاً لطيفاً لبقاً. كان هادئاً وقوراً يدخل قلب الإنسان على الفور. لكن

الذهب كان يهمني أكثر من ذلك. وحين يُطلب مني قتل رجل لا أسال لم يجب أن يقتل؟ ولا أسأل أيضاً أهو رجل طيب أم شرير؟ لا بد من سبب لقتله، لكنني لست معنياً بالسبب وليكن ما يكون. وحتى لو طلبوا مني قتل الخليفة لفعلت! المهم رنين الذهب.

حينما فشلت في خطة الزيت المسموم بحثت عن تدبير آخر. كان ميرزا صبري قد نبهني إلى أن هذا الأمر يجب أن يتم خفية ودون أن يثير انتباه أحد ولا أن يترك دليلاً على أنه قتل. حتى أنه رفض القتل بالخنجر وقال: «إن أسلوب قتله موجود في كتابه». أليس هو القائل:

الخصم الذي لا تقدر على النصر عليه
ما هو دواؤه؟ إنه السم الزعاف

بعد ذلك صقلت خيالي على بريق الذهب، وحضّرت حبراً مسموماً من الزئبق الفرار.

كان لدي، في الخان الذي أقيم فيه ويبعد بضعة فراسخ شمالي بايزيد، جِرابٌ أطلقت عليه اسم جراب الموت. وأحياناً كنت أسميه الجراب الأسود بالرغم من صفرة لونه، لما فيه من آلات وعدة القتل مثل الخناجر المعقوفة والأمراس والسفافيد الرفيعة التي كنت أثقب بها قلوب من يُطلب مني قتلهم. كان في ذلك

الجراب أيضاً دواة حبر فضية سرقتها من أحد ملالي ملاذكرد في خان بالقرب من بلدة أخلاط.

هناك، في ذلك الخان شمالي بايزيد بدأت أستنسخ بخطي الجميل كتاب شيرين وخسرو بحبر سكبت فيه السم السليماني الذي ركبته من الماء الحاد وبعض التراكيب الأخرى. وذات مرة جاء الملا إسماعيل إلى الخان ليستقبل ضيفاً قادماً من قارص أو غيرها، وحينما رآني منحنياً أنسخ الكتاب، دنا مني وسألني: «ما هذا؟»

لم أجبه لكنني انسحبت وانزويت بعيداً. في المرة الثانية حين رأيته في اليوم الماطر الذي دفن فيه الخاني، أردت أن أشاركهم حمل النعش، وما إن التقت عيناه بي حتى أخرسته الدهشة، اتسعت عيناه وسأل بخوف حَمَلٍ باغته الذئب: «أين رأيتك قبلاً؟»

تلك المرة أيضاً تركته بلا جواب وابتعدت عنه. كان الملا إسماعيل قد رآني عدة مرات لكن يبدو أنه كان قد نسيني ولم ينتبه حتى إلى لثامي!

لم يمض أسبوع حتى كنت قد أنهيت نسخ كامل القصة وأخذتها إلى صلاح الدين الوراق. لا أدري كيف أعمى الله أبصار أهل بايزيد فلم ينتبهوا إلي. فقد رمقني صلاح الدين وكأنه لم يرني من قبل. ولما رأيته لا يتذكرني ادعيت أنني تاجر كتب فارسية، وأريته الكتاب المسموم.

كان وراقاً لبيباً وعرف من رائحة الحبر أن النسخة حديثة الكتابة.

وحينما انحنى عليها وقرأ بعض الأبيات فيها، سأل: «أي حبر هذا؟»

ادعيت أنه حبر جديد لم يصنع في هذه البلاد، بل تم تركيبه في زنجان ببلاد فارس لذلك فهو يختلف قليلاً عن الحبر العادي.

كنت أعتقد أن صلاح الدين الوراق وبمجرد رؤيته تلك النسخة، سيخبر الخاني الذي لن يدخر وقتاً بل سيشتريه حالاً. ولكي يسهل عليه تقليب الصفحات فإنه سيبلل الشاهدة بلسانه. كنت قد كتبت في يسار كل صفحة الكلمة التي تبدأ بها الصفحة التالية. تماماً في المكان الذي سيضع عليها إصبعه بغاية تقليب الصفحة. ولقد كتبت تلك الكلمة بحبر يكاد يكون سماً خالصاً. وحسب تقديري فقد كان الخاني سيقرأ مئة صفحة فقط، وفي الصفحة الأولى بعد المائة، وبقراءة هذا البيت: «بالفرمان الذي أراده، قتلَ الناسَ / وبيده عشرة أقلام، أعني أصابعه العشرة»، سيسري السم في عروقه كلها ولن يستطيع القيام بعد ذلك ليموت رويداً رويداً.

لكن لست أنا الذي قتلته.

بعد أن أعطيت تلك النسخة المسمومة لصلاح الدين، ندمت. فلقد انجذبت إلى الخاني وأحببته وعرفت أنه رجل يجب ألا يقتل. لم أشفق على أحد كما أشفقت عليه. لقد كان رجلاً ترك في قلبي أثراً عميقاً. حضرت مجلسه مرتين أو ثلاثاً فقط. كانت كلماته طيبة وصحبته حسنة.

بدأت نيران الندم المشتعلة في أحشائي تتغلب على بريق الذهب.

كان الخاني قد مرض وأعلن الأطباء أنه سقي سماً. قمت مسرعاً وذهبت إلى صلاح الدين الوراق وسألته عن تلك النسخة. وحينما أخبرني أن النسخة ما تزال لديه وأراني إياها، خطفتها من يده كالمجانين وخرجت.

من هناك توجهت إلى ميرزا صبري وما إن رأيته حتى رميت الكتاب في حجره وقلت له: «ليكن هذا الكتاب ذكرى مني لديك».

* * *

حينما سمعت خبر موت الخاني، كنت عند ميرزا صبري. الحق أقول تألمت كثيراً وكأنني أنا قاتله. حتى أنني كدت أخرج إلى أزقة البلدة وأصيح: «تعالوا يا قوم واقتصوا مني فأنا قاتل الشيخ».

لكنني سرعان ما تذكرت أنني لم أقتله بل عقدت العزم على قتله.

لم أكن قد طرحت فقط فكرة قتل الخاني من بالي، لكن بفضله وبركة نور وجهه سئمت القتل وعافته نفسي ولم أعد أستطيع حتى ولو قتل عصفور.

وحينما حفرت قبره، كنت أريد التكفير ولو قليلاً عن ذنوبي وكسب حسنة. فحفرت القبر واسعاً مريحاً ما أمكنني ذلك. ولما أنزلت جثمانه ووضعته بإجلال في اللحد، همست في أذنه قائلاً: «ليتني عرفت أيها الشيخ من سلبك روحك الطاهرة! والله لكنت

جعلته الآن في مكانك».

هناك سمعت مرة أخرى أن سماً دُسَّ للخاني. استغربت واندهشت وقلت لنفسي: «ترى من عساه ذلك القاتل؟»

وبعد الدفن نزعت لثامي ورميته على ميرزا صبري وقلت له: «خذه وغط به عورة قلبك».

وبالندوب على وجهي المكشوف وفمي الأعوج، أدرت ظهري لبايزيد التي كانت تزداد حزناً وهي تستقبل رذاذ مطر أسود كالحبر.

الأمير

شيرين

اشتريت هذه الحورية الجورجية بخمسمئة قطعة ذهب. لكن نظرة واحدة فقط من عينيها تساوي ألف فلوران. حتى الفستق الشيرازي ليس في مثل حلاوة وضيق ثغرها. رشفة من شفتها العلوية أطيب من مزاج العسل والقشطة. أنفها ماسة نفيسة ووجنتاها حديقة قرنفل. أسنانها حبات در إسكندرية وجبهتها فاتحة قرآن لم يقرأه أحد بعد. خصلات شعرها ريحان وبنفسج. الحواجب أهلة أو أقواس رستمية، ونظراتها سهام يرشقها رامي قوس فولاذيٍّ القلب. قامتها منارة، عود ريحان، غصن ريان، رمح رشيق، حرف ألف بخط يد بهزاد النقاش. خصرها لا يحتمل لرقته أي حزام، وحينما تنحني أضع يدي على قلبي خشية أن ينكسر ذلك الخصر الرقيق.

اشتريتها عام قتل ابن أخي، أمير بايزيد، الأمير محمد وكاتبه سليمان بيك في القصر. كانت في الرابعة عشرة من عمرها، حورية لم يمسسها إنس ولا جان. كانت غزالة برية ربيتها في مروج حضني وحدائقه. زوجاتي كن وما زلن يحسدنها. إنها فتية، ممشوقة القد، رشيقة، عيناها غديران خطيران عميقان. ولو رأتها شيرين محبوبة فرهاد محطمِ الجبال لحسدتها. ولو رآها الشاه عباس لآثرها على أمته

الأرمنية شاه غزال وجعلها الأولى بين محظياته. ولو كانت في زمن السلطان العظيم سليمان خان تعيش في قصر الحريم، لكانت خُرَمْ سلطان إحدى جواريها.

تتحول في فراشي إلى كرة نار تتدحرج على ثلوج روحي. لا أشبع من سلة ثغرها المملوءة فاكهة. لا أشبع من حرير صدرها المرمري الصقيل ولا من تينك الإجاصتين فيه. لا أشبع من شم ضفائرها التي تظللني كسماء من مسك وعنبر. كلما رشفت جرعة من كوثر شفتيها ازددت ظمأً. إنها حلوة، حلوة المذاق، حلوة الحديث وحلوة العطاء، تماماً كما يقول شاعر بلاطي بُهاري في قصيدة عن وصفها:

شيرين الأمير، لم ير مثلها أحد قط من الورى
تسيل سكراً وتقول سكراً وتذيق سكرا

صياد أنا، وكلما خرجت لصيد طائري الحجل الثاويين على صدرها، يصبح قلبي فريسة تتعثر بشباك نظراتها الجارحة كمخالب صقور وشواهين. ذلك الصباح، ذلك الصباح، حيث تمدد بساط الغيم القاتم على صدر سماء بايزيد وهطل المطر، انسللت من حضنها. كانت ليلتي ليلة عسلية من ليالي فردوس الله تمنيت ألا تنتهي. مكثت على صدرها حتى السحور ثم خلدت إلى النوم. كان نوماً عميقاً، نوماً لذيذاً مثل عسل الكهوف.

ما كنت أرغب في الذهاب إلى الصيد. لكنني تهيأت له. كان الغلمان قد أعدوا لي جوادي الكميت، وعدة الصيد والقوس والنشاب وبندقية الصيد التي كان باشا عثماني قد أهداها لي. توجهنا إلى سفح جبل آكري حيث مصطادنا.

شاهين

عام جلست على عرش الإمارة، أرسله لي خان من خانات تبريز مع الحاج زهدي أفندي التاجر على سبيل الهدية. كان اسمه سابقاً شاهْبَرْ لكنني منحته اسم شاهين حتى يوافق اسم محبوبتي شيرين الحلوة.

لونه أحمر غامق مثل كبد غزالة ذبحت للتو. رأسه صغير وأذناه منتصبتان وصدره رحب ومتن ظهره عريض ومنخاراه واسعان وسنابكه متينة. ذيله ليلةٌ ليلاء تتسحبُ على الأرض خلفه، أما عرفه الأسود كالقطران واللين كالحرير، فينساب على رقبته مثل جدول مسك.

صنعت له ركاباً من ذهب ولجاماً من فضة وسرجاً من جلد المها مزخرفاً بمخمل أصفر خيط بأسلاك ذهب. إنه جواد صبور وهادئ لا يشرب الماء ما لم أصفر له. وحتى لو بقي عشرة أيام ظمآن فإنه لا يرد الماء من دون صفيري. أنا لا أبادله بمئة قطيع من الجياد النجدية

والكحيلان والسكلاوية. حين يعدو، تخاله يسبح أو يطير فلا تكاد تلامس حوافره الأرضَ. عيناه الصافيتان السوداوان تلمعان مثل كأسي عنبر، ولحن صهيله يشبه رعود الربيع.

إنه جواد عربي أصيل، كان أسلافه يتسابقون على رمال الحجاز المقدسة. وربما كان أحد أسلافه فرساً للنبي عليه السلام، فهو جواد ذكي نبيه لا يمكن أن يلقي بفارسه على الأرض أبداً.

كان سليم النعال قد جاء ذات مرة إلى الاصطبل ليصلح حدوات شاهين. هو بذاته قال إن جوادي يعادل وزنه ذهباً. وحينما فحص باطن حوافره قال: «انظر يا مولاي الأمير! حوافره ليست مسطحة لكنها مقعرة! وهذه من علامات الجياد الأصيلة».

يأتي سليم النعال كل يوم جمعة إلى الاصطبل ليعاين شاهيني. فيمشط عرفه ويجدل ذنبه ويفحص أسنانه، وأثناء ذلك يروي حكاياته. إنه ينبوع حكايات لا ينضب، ولا يمكن أن يعيد حكاية واحدة مرتين. ففي المساء عندما ينعقد مجلس القهوة، لا يسرد ترهات مكرورة كالملالي، وفي الصباح يروي حوادث جديدة عندما يصلح حدوات جوادي.

ذات جمعة أثنيت على خفة وسرعة عدو شاهين، فرأيت سليم النعال أخرج المسمار الذي كان بين أسنانه ووضع من يده قاطع الحوافر، وقال: «مولاي الأمير! أتعرفون لم يوصف الجواد السريع بأنه كالريح؟»

أجبته: «يا سلو! السؤال مردود عليك».

رفع حافر الجواد ووضعه برقة على صداره الجلدي وقال:

«يحكى أن الله تعالى حينما أراد أن يخلق الخيل، أمر جبرائيل قائلاً: «إيتني بريح الشمال فإني سأخلق دابة سريعة كالريح»، فهبط جبرائيل إلى الأرض وأخذ من تلك الريح حفنة ثم ارتقى إلى عرش الله تعالى. مزج الله تلك الحفنة من الريح بصوت البرق فثار دخان وظهرت أصوات عظيمة، ثم ظهر من بين ذلك الدخان جواد كميت أحمر كالدم بعرف أسود وصار يعدو إلى أن وقف بين يدي الله تعالى قائلاً: «أي رب، مائة ألف شكر وحمد لك إذ خلقتني بقدرتك. فاجعلني يا رب مطية الأمراء والملوك فقط». فاستجاب الله لدعائه ومنذ ذلك اليوم لا يركب مثل هذه الجياد سوى الأكابر، ويحضر ملائكة الرحمن أنفسهم سباقها».

شهاب

إنه صقري. كان الشيخ سيف الدين ذو الجبة الزرقاء قد أتاني به من جهة وان. وبفضل هذا الصقر ذي العينين الخارقتين للمسافات، طارت كراهيتي لأهل وان من قلبي تماماً كسرب من الغربان. لكن أي صقر هو! كأن منقاره خنجر بدوي كردي، مخالبه صنارات. أما صدره الرحب فأرقط مثل فروة فهد.

عيناه كبيرتان كحيلتان نافذتان حادتان، فإن تحرك فأر على الأرض وهو يحوم بين الغيوم لرآه.

بحث الملا فريد وميرزا صبري والشيخ سيف الدين ذو الجبة الزرقاء وشاعر بلاطي بهاري ثلاثة أيام متواصلة عن اسم. في اليوم الرابع جاؤوا إلى الديوان ومع كل واحد اسم اصطفاه لصقري. قال الملا فريد: «أرى من المناسب أن تسميه يا سمو الأمير باسم رَوانْ». أما ميرزا صبري فقد قال: «وجدت له اسم بابيج». فانبرى الشيخ سيف الدين ليقول: «اسم تِيرْ أزْمان هو الأنسب». وأخيراً قال بهاري: «اسم باسُوارْ حسن». لكنني رفضت الاقتراحات الأربعة وقلت: «يجب أن يكون اسم صقري اسماً يليق بقوته وسرعة طيرانه، وينسجم مع اسم شيرين وشاهين». هنا قال صانع القهوة وهو يحرك الجمر بملقط تحت محماس البن: «لو أذن لي مولاي الأمير، فإن لدي اسماً لائقاً!»

نظر الأربعة بوجوه كالحة وعيون مستهزئة إليه وهم فاغرو الأفواه من الدهشة. لكنني لم أرد أن أخجل صانع قهوتي فقلت له: «هات ما عندك. ألق نردك أنت أيضاً».

ترك الملقط من يده وقال: «مولاي الأمير، شهاب في اللغة العربية هو النجم الذي يهوي في السماء. ولقد أمعنت النظر في صقر جنابكم عندما يهوي لأخذ فريسته. إنه كالشهاب تماماً، إذ تراه يحوم في كبد السماء من ثم تجده بغتة على الأرض جاثماً على صدر فريسته ينشب

مخالبه فيها. إن صقر جنابكم يثقب أكباد الحجل والحمام مثلما تثقب الشهب أكباد الشياطين التي تسترق السمع إلى الملكوت الأعلى».

سررت أيما سرور بهذا الجواب! حملت صرة صغيرة مليئة بالآقجات ورميتها تحت قدمي صانع القهوة وقلت له: «لقد اقترحت الاسم الأنسب. فلتكن هذه الصرة مكافأتك».

* * *

أي مطر أفسد عليّ الصيد؟

ذهبت إلى الصيد صباح الأول من رمضان، وكان المطر يهطل رذاذاً خفيفاً. كنت على صهوة جوادي شاهين، وعلى ذراعي الملفوفة بجلد جاموس مغطى بحرير شيرازي ناصع البياض، وقف الصقر شهاب ذو العينين الخارقتين بسكينة ووقار. كان البرقع الجلدي على عينيه قد أبقاه هادئاً، أما الوهق القصير المربوط بإحدى قائمتيه فقد شده إلى ذراعي. خلفي كان يسير غلماني وخدمي وصانع قهوتي على متون أحصنتهم.

كان شهاب يفرد جناحيه كل برهة وكأنه يرغب في الطيران. كنت أعلم أن ذلك اليوم لا يناسب الصيد، لكنني مع ذلك خرجت وأخذت معي عدة القنص وحتى الطعام والشراب والكلاب السلوقية. كنت

أريد البقاء حتى موعد الإفطار لأروِّحَ عن صقري قليلاً، إذ مضى عليه شهر دون أن يحلق. إن صقري يضيق ذرعاً حينما يبقى في البيت دون جولة طيران. فيهتاج ويصفق بجناحيه ويكاد من قهره ينتف كل ريشه.

حتى ساعة العصر قبيل الغروب اصطاد صقري ثلاث حمامات. ثم عاود الطيران وصار يحلق عالياً في السماء الملبدة بالغيوم يرقب الفرائس. اقتنص أرنبين سمينين أيضاً وألقاهما بين قدمي. كنا أنا وصقري في غاية الحبور، لكن المطر عكّر علينا صفو لحظاتنا السعيدة تلك.

حانت مني نظرة إلى الحرير الملفوف على ذراعي، فألفيته وكأن قطرات من القطران تسقط عليه. لا أدري ما الذي كانته تلك القطرات السود! لكن كان جلياً أنها تسقط من السماء. كانت تسقط مع المطر منذ الصباح لكنني، إذ كنت سعيداً بصقري، لم أنتبه إليها.

الرسالة

فليحضروا السم يا كريتو! (سقراط)

بسم الله الرحمن الرحيم

هو مولاي وإليه أنيب

من المريض المدنف المسمى أحمد الخاني، إلى حاكم سرحدان الأمير عبد الفتاح البسياني.

بعد الحمد لله والصلوات على فخر الكائنات، فهذه رسالتي إليك وأرجو أن تقرأها بتمعن وتدبر وتفتح لكل سطر فيها وكلمة منها باب ذهنك ولا تأخذنك العزة والكبر.

أيها الأمير:

منذ أن اشتريت الإمارة من باشا وان بأربعة آلاف فلوران ذهب وحصلت على الفرمان السلطاني بذلك، أدركت أنك لا تليق بعرش إمارة سرحدان.

....

....

................رأيت بأم عينيك كيف قُتل الأمير محمد وكاتبه سليمان بك، رحمهما الله، بتدبير من الترك. وبمقتلهما تصدعت جدران الإمارة. فورثت عن سلفك عرش الإمارة وسدة الحكم، لكنك لم ترث دمه فلم تنتقم له، بل تركت قتلته يسرحون ويمرحون ولم تنزل بهم القصاص.

إن الظلم والجور الذي تلحقه بالناس، والضرائب والمكوس التي تثقل بها كواهلهم ....

.... لكنك لا تخشى الله مع ذلك، وترسل آلاف القطع من الذهب للباشوات حتى يبقى زمام الإمارة في يدك ......

....

.... إن همك هو الذهب والملك والكنوز والجواهر و ....

....

أيها الأمير:

....

...........الحبر...................................

....

....

....

....

....

....

..من بينهم جميعاً كان ميرزا صبري أكثرهم.................

....

....

فأرادوا أن أترك خطبة الجمعة!

....

............اسم السلطان الذي ليس له من الإسلام سوى الاسم فقط.

....

.............الذل الذي أمام عصا جورهم...............

....

.............الترك والفرس وقد أصبحنا بقرتهم التي تدر عليهم الحليب...

....

.... وفيهم رجل ملثم......................................

....

..........................و........................

................برأت إبليس!

الملا فريد المسكين، الذي كان يرافقهما ويضرب بسيفهما ويرمي

من قوسهما ....

....

...................و..................................

حجة في أيديهم.

إنني أعلم أن حديثي عن الكرد صار سبباً لعدم رضا ....

....التركي............في وان

وأخلاط، وبدليس وموش و...............................

............ماكو. لكن ذلك لم يكن صحيحاً.

....

....

....

....

....

....

....فلو ناديت لأجل

القوم الكرد واستغثت كان عين الشريعة. وإن قلت في خطبي أيها

الأكـ...............سنة نبي الأمة بعينها، لكن ماذا أقول ....

....

....

....

....

....

....

............الدم..............................

....

....

أيها الأمير:

إن جور الترك وظلمهم لا يطاق ....

....

....

..............والفرس نصبوا الأكراد دريئات أمام سهام ال...

....

..........ونحن بينهما صرنا كبش فداء...

....

....

......إن الترك يضعفون الآن. حتى الكفار الذين هم كفار لا يقبلون الخضوع لهم ويرفعون لواء الثورة ضدهم، فلماذا العتب علينا نحن ؟..

....

....

أيها الأم...

لو كنت مددت إلي يد العون وأعرتني سمعك، لجعلت من بايزيد حاضرة مثل حواضر العرب والعجم والترك، مرتعاً للعلم والأدب والمدارس والمساجد.......................................
.......................لكنك لم تبادل صقرك شهاب بالشيخ شهاب السُهروردي ولا بالباز الأشهب الشيخ عبد القادر الجيلاني. أما شيرين..

....

أيها الأمير:

هذه وصيتي. إنك لم تصغ إلي وأنا حي، فالمأمول أن تتبع وصيتي بعد موتي..
...............ابتعد عن الترك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، لا تثق بهم أبداً. وبقدر ما تنأى عنهم، تقترب من الله............

....

....

أيها الأمير.

كان الطبيب الأرمني زُهْراب يأتي لعيادتي كل ليلة..........

....

.............كان يعلم أن السم السليماني قد اختلط بدمي وأنني

لن أنجو.

....

............صحيح ذلك، سقيت سماً. سماً لا ينفع معه أي ترياق ولا يمكن فصله عن دمي. سما صنع من الزئبق على مدى سنوات ..

....

......بين...

.............رويداً رويداً حين كنت أكتب أو أطالع كتبي، كان ذلك السم الممزوج بالحبر ....

....

.........وكنت أعرف أنني لن أعيش أكثر ....أنا.......

....ثلاثة......

......................................من.....................

....خرجت.............

.....................................لكي..........................

....

.........................أرجوا ألا تتهموا أحداً بدس السم لي. إن الذي سقاني السم معروف ....

....

حبري الذي ....

....

.........أعلم أنه لم يبق لي سوى قليل من الساعات..............

....أحمد الله إذ استطعت

بفضله أن أنهي...

....

فليشملني الله بعفوه ويغفر لي، ويجعلك..........................

....

....

....

....

....

والسلام.

أحمد......الخاني. ليلة الجمعة في التاسع والعشرين لشهر شعبان سنة ألف ومائة وتسعة عشر هجرية.

الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ألف وسبعمائة وسبعة رومية.

ميرنامه الشاعر والأمير

من هو العالم الشاعر؟ وما دوره في مجتمعه وزمنه؟ يسعى كاتب الرواية للجواب عن هذين السؤالين ارتكازاً على سيرة أمير الشعراء الأكراد أحمد الخاني (1651-1707)، بلغة متينة وأسلوب شاعري يصف به مكان الرواية و زمانها، الحياة الاجتماعية للأكراد، قصص العشق والغدر، حب الحياة ومقتها، ملاحم البطولة والخيبة، ومجلس الشاعر ومسجده، الذي يصير منارة للعلم في زمنه.







